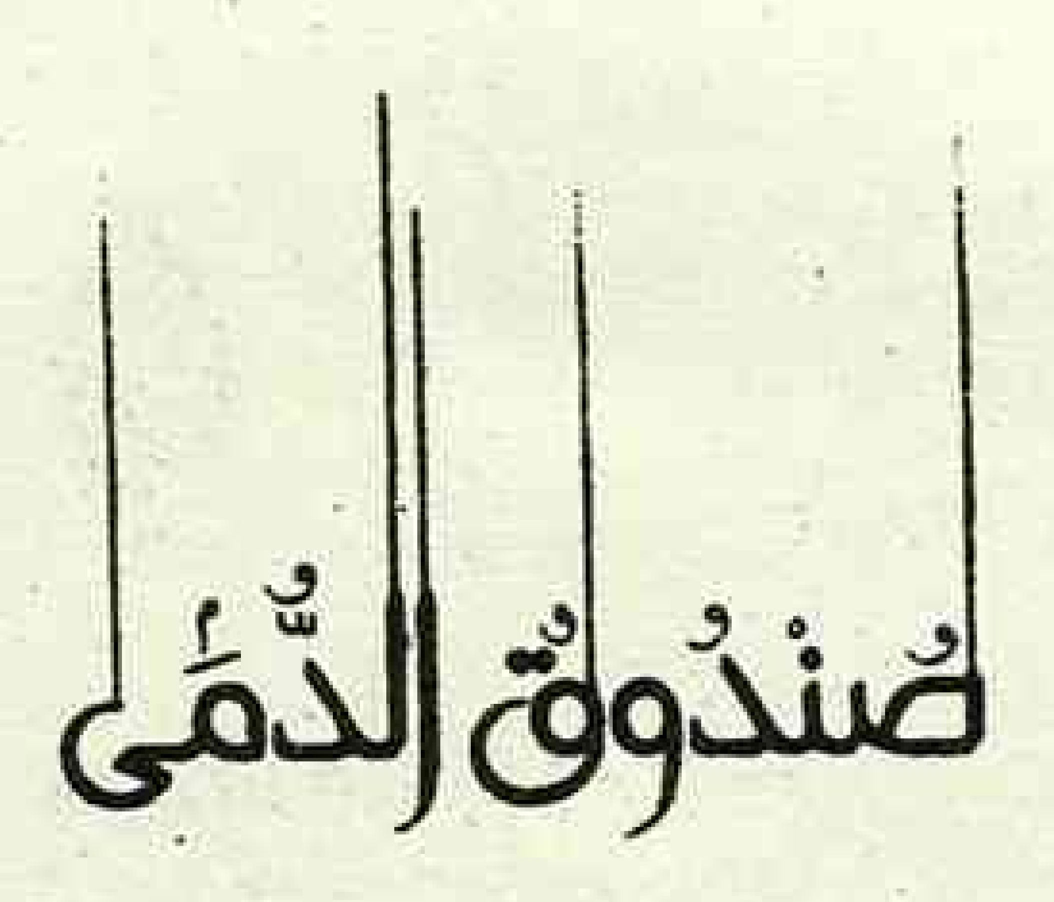

صندوق الدمى
رواية
شيرين هنائي


صندوق الدمى

صندوق الدمى

شيرين هنائي

غلاف: أحمد مراد
إخراج فني: أحمد عاطف مجاهد
التصحيح اللغوي: محمد الكشك

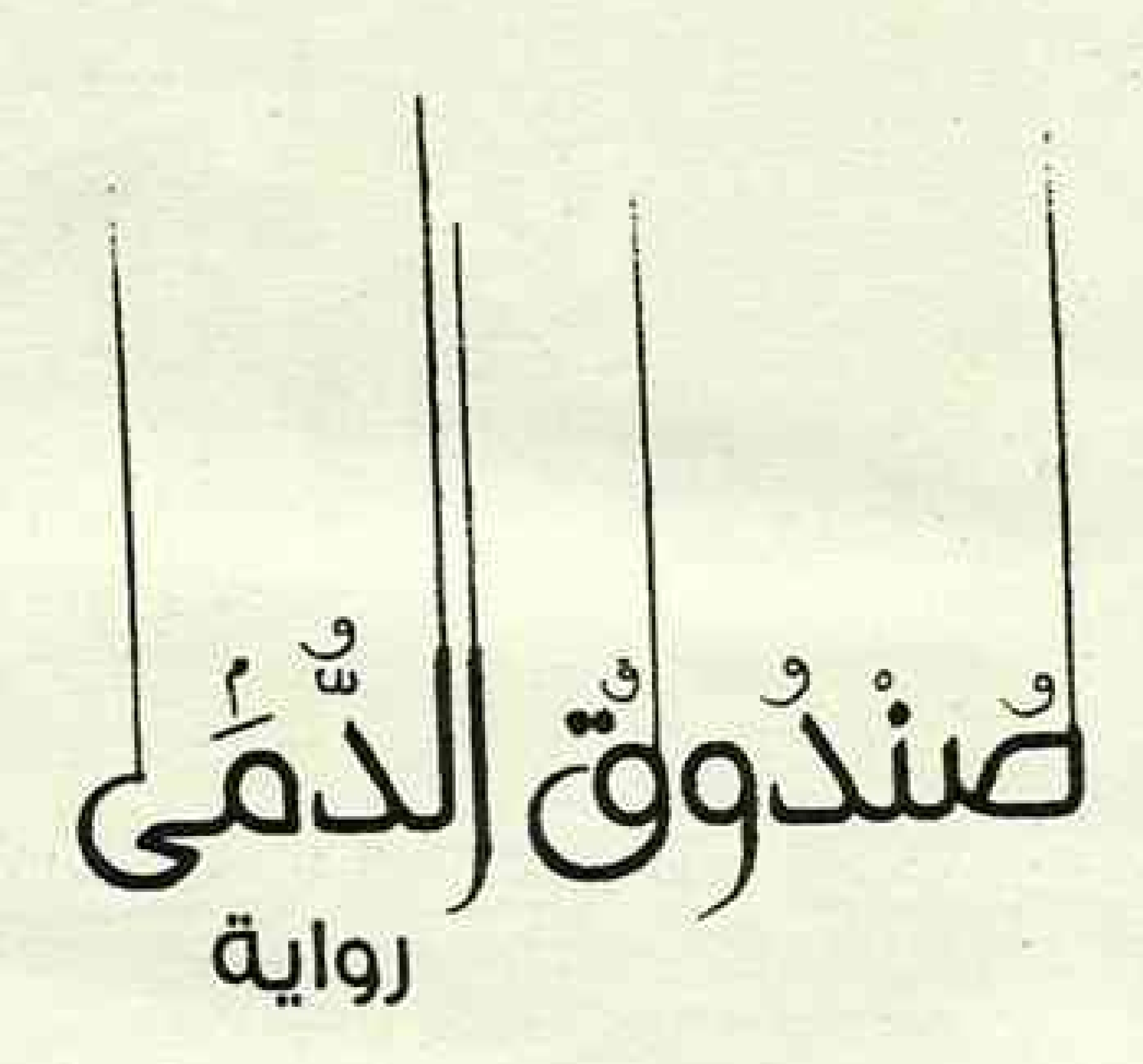
الطبعة الأولى: مايو ٢٠١٢
الطبعة الثانية: نوفمبر ٢٠١٢

رقم الإيداع: ٢٠١٢/٨٤٢٠
ISBN: 978-977-5153-20-3



٣ شارع إدريس أول شارع الوحدة - إمبابة كورنيش - جيزة
البريد الإلكتروني: rewaq2011@gmail.com
الصفحة الرسمية: facebook.com/Rewaq.Publishing
محمول: ٠١١٤٧٣٧٩١٨٣
رقم الهاتف: ٣٣١٠٠٩٥١ (٢٠٢)

شِيرينْ هَنائِي



الرواق للنشر والتوزيع

إهداء..
إلى زوجي..
أول من نبهني إلى حقيقة القيد..

لقد أضعنا أعمارنا في مقدمات بلا نتائج.. بينما استثمروا هم أعمارهم في نتائج بلا مقدمات..

مذكرات..

اقلع غماك ياتور وارفض تلفّ..
اكسر تروس الساقية واشتم وتفّ..
قال: بس خطوة كمان.. وخطوة كمان..
يا اوصل نهاية السكة.. يا البير تجفّ..

صلاح جاهين

من يوميات متفرقة كتبتها **رنا مهنى** إلى ابنها آسر في الفترة من مارس ٢٠٠٩ إلى ابريل ٢٠١٠.

٢٨ مارس ٢٠٠٩

ابني/ابنتي الحبيبة:

ليت اختبار الحمل ينبئني إن كنت صبيًا أم فتاة! نعم! أنا حامل بعد كل تلك السنوات!

انقضت أعوام - أي بني - تمحورت كلها حولك. في البداية، انتظار شهري لأي علامة تطمئن قلبي الملهف إلى الأمومة.. ثم لا شيء. تمر شهور مشكلة في عقلي قطارًا من السنوات التي لا تتوقف ولا تبالي بشوقي إليك.. أصارحك يا بني - سأفترض جدلاً أنك صبي - أن حلم الأمومة قد تلاشى من عقلي تمامًا وأنا أخطو إلى عامي السادس من الزواج دون أن يجدي أي علاج أو عمليات في أن يجسد جزء مني في طفل صغير أعلق عليه كل آمالي وأحلامي التي شاخت في داخلي أولًا، ثم في زوجي ثانيًا.. أعني.. أباك..
لقد قررت اليوم - وهو أسعد يوم في حياتي - أن أكتب إليك لحظة بلحظة، موثقة كل دقيقة تنمو فيها بداخلي؛ لعلك تقرأ هذا يومًا فيكون عندك تاريخًا لم يذكر لأي طفل آخر سواك عنه شيئًا..

لم أخبر أباك بعد بالخبر، لكني أعلم رد فعله المخيّب للآمال من الآن. إنه لم يهتم لحظة بوجودك أو بعدمه، لا أقصد بهذا أن أسيء إليه أمامك؛ فهو كمعظم الرجال، لا تنمو داخلهم الأبوة إلا بعد الإنجاب بفترة - هذا إن نمت أساسًا - لكنني - وأتمنى أن تقرأ تلك الكلمات في سن مناسبة لتفهم ما أعنيه - قد تعلمت أن أحتفظ بمشاعري وأفكاري بعيدًا عنه.

هو كذلك قد أصبح رجلاً غريبًا عني، يجمعني به الفراش رغم إرادته في أيام أحسبها بدقة فقط على أمل أن يمنح لي ما يعوضني عن ستة أعوام لم أجد فيه ما تصورت أني سأجده.. لم أجد فيه ابنًا يعوضني عما أفتقد، وهو يعلم مدى

افتقادي له. لم أجد فيه أبًا أدسّ رأسي في صدره وأبكي وأعلم أنه يحميني حتى إن لم يكن ثمة خطر فعليّ. لم أجده على الأقل زوجًا؛ فلم تكن هناك مودة ولا رحمة ولا أي تفاعل من أي نوع، فقد كان يحصل على متعته – النفسية والجسدية – بطرقه الخاصة، والتي كان يعلم أنني أعرفها و لم يبالِ حتى بإخفائها.

أستأذنك يا بني.. فقد استيقظ أبوك، وعليّ أن أُعِد له الإفطار..

******

٢ مايو ٢٠٠٩

ابني الحبيب:

من الغريب حقًّا أنني لا أشعر بشيء غريب يمرّ بي.. لا قيء صباحي ولا غثيان ولا أي شيء! كما أخبرتك أول أمس فقد ذهبت إلى الطبيبة – مع منال صديقتي – وطمأنتني أن كل شيء كما يجب أن يكون. لقد أمضيت الشهر الماضي – كما تعلم – أحلم بكوابيس كلها عن كوني لست حاملًا، وهو تبرير من عقلي الباطن لعدم ظهور أعراض حمل كباقي النساء علي.

دعني أصارحك أنني أتمنى أن تكون فتاة.. دمية صغيرة ألعب بها وأغيّر لها ملابسها وأصفف شعرها! فإذا كبرت صارت صديقتي وأختي وسندي..

أعشق الفتيات الصغيرات وأعشق صوتهن (المسرسع) وجدائلهن المزدانة بالشرائط الملونة، ترفرف خلفهن حين يجرين كرايات الحوريات الحريرية..

لكنني مستعدة تمامًا لتقبل كونك صبيًّا! سأجد متعة أكيدة في التنظيف وراءك، وتضميد ركبتك المجروحة من لعب الكرة، وحياكة سراويلك الممزقة من فرط اللعب و(العفرتة)! ولن أجد أبدًا غضاضة في الرد على مكالمات الفتيات

ورسائل المعجبات إن صرت وسيمًا كأبيك – وهو شيء لا أتمناه بصدق – ذكيًا مثقفًا كما أتمنى لك أن تكون.

ابقَ سالمًا من أجلي حتى موعدنا في نوفمبر!

******

١٨ يونيه ٢٠٠٩

لقد بدأ التعب! متأخرًا نعم، لكنه بدأ! لكن كل الوهن والإعياء والعصبية نسيتها عندما أخبرتني الطبيبة أنك فتاة!!

ابنتي الحبيبة سليمة وقد بدأتِ في اتخاذ الشكل الآدمي! شهور قليلة وتملئين الدنيا صراخًا وضجيجًا!

أقضي وقتي بين تعلّم أصول التربية مستندة إلى ما أرساه القرآن الكريم من قواعد، وبين ترجمة سميكة جدًا لكتاب دكتور سبوك الأمريكي؛ أحاول أن أستفيد منه ما يلائم مجتمعنا وديننا.

في المساء أتحدث إليكِ همسًا.. أغني لك.. أضع المذياع بقرب بطني؛ لأدعك تستمعين إلى صوت الشيخ محمد رفعت الذي يذكرني برمضان وبطفولتي البعيدة.

الجو الحار يجثم على أنفاسي، وضيق في صدري يبدأ كلما سمعت صوت مفتاح أبيك يدور في باب الشقة، ثم مساء الخير المدغمة بصوته الأنفي العميق.. هذا كل ما أسمعه عادة من صوته.. صباح الخير، مساء الخير، شكرًا... أساسيات اللغة العربية كما يعلمونها للأجانب في المستوى الأول..

المشكلة يا دينا– وهو اسم قررت أن أسميك به إلى أن أراك، دينا زين! فلربما لا يليق بك الاسم قبل شيء – أتمنى أحيانًا أن يتشاجر معي والدك. أن يتصرف

ويتفاعل حتى لو بشكل سيئ. إنه لا يرفض أي طلبات مادية لي، لكنه في الوقت ذاته لا يهتم بأن يفكر فيما احتاجه من تلقاء نفسه.. لا يجرح مشاعري بشكل مباشر، لكنه كذلك لا يهتم بإخفاء ما قد يجرحها.. هل تفهمين ما أعنيه؟

لن أنكر يا حبيبتي الصغيرة أنني أحببت أباك ذلك الحب الواهن (على شعرة)

كما كانت تصفه منال صديقتي. كنت أحب حالة الحب ذاتها.. أحب سيارته، ونظارته الشمسية، وأسلوبه الأنيق الأنفي في الكلام. أحب أن يراني الناس بجواره ويحسدونني. أحببت أن تكون لي حياة مستقرة ماديًّا وعاطفيًا - كما كنت أتصور وقتها - وأن يكون لي قبل كل شيء أطفال. لا أتصور هدفًا آخر للزواج سوى ذلك، ولا أتخيل نفسي إلا محاطة بدستة أطفال تتراوح أشكالهم بين الطويل الوسيم أسود الشعر مثل أبيه، والنحيل ذي الشعر البني المشعث والحسنة الضخمة على جانب ذقنه مثلي!

لم أنل من أحلامي طيلة الأعوام الفائتة إلا استقرارًا ماديًّا فقط، إلى أن أراد الله أن يهديك إليّ!

دينا، لا أريد أن أعطي انطباعًا سيئًا لك عن أبيك، لكن بعد كل تلك الأعوام أعتقد أننا لم نكن موفقين في اختيار كل منّا الآخر.. لكن، هل نستمر سويًّا من أجلك؟ لا أدري..

******

٣٠ يونيه ٢٠٠٩

أحتاج إلى زين بشدة هذه الأيام.. أحتاج إلى ما تصورت أنه قادر على أن يعطيه لي..

أشعر بوحدة شديدة، ولا أستطيع أن أسيطر على صنبور الدموع المثقوب

الجلدة في عيني.

أشاهد مسرحية كوميدية وأجد نفسي أضحك بشدة، ثم أبكي حين أدرك أنه لا أحد يشاركني ضحكاتي، ثم أبكي أكثر حين أدرك أنني أبكي وحدي ولن يأبه أحد لبكائي أو حتى موتي..

أتذكر موتي فأرثى لنفسي، ثم أتذكرك.. أهدأ وأفتح كتاب قصص كليلة ودمنة وأقرأ لك.. أداعب الشعر الأصفر لدميتي الصغيرة، وتتخيل أناملي أن هذا هو شعرك أنت..

يدق جرس الباب حينها، فأغلق الكتاب، وأنهض متسائلة عمن عساه يأتي الآن.

أسمع صوت ضجيج أطفال على الباب.. أفتح فأجدها منال وأولادها وزوجها!

أختبئ قليلاً وراء الباب، وأمدّ يدي (عمياني) وأسحب منال من يدها ضاحكة مرحبة، واستأذنها أن تدعو زوجها للدخول ريثما أرتدي حجابي.

يااللضجة الحبيبة التي يثيرها أولئك الأطفال! تدخل مريم وريم حجرة نومي ضاحكتين، وتجذبان أطراف الإسدال الذي أرتديه في شقاوة واضحة!

أرش على ملابسهما من عطري الذي يحبانه، فتهرولان في سعادة إلى والدهما المولي ظهره لنا في الشرفة في انتظار أن أدعوه إلى الدخول.

يسأل رشدي– زوج منال – عن زين في حرج فأخبره أنه سيعود خلال ساعة على الأكثر، فيسحب كرسيًا من السفرة ويضعه في الشرفة باسمًا ويجلس عليه..

– أتركَكما على راحتيكما، وأنتظر أنا زين في الشرفة..

أحكي لمنال ما حدث في الفترة السابقة ونحن نعدّ الشاي في المطبخ، كمهدها تحاول أن تطمئنني أن كل شيء سينصلح - بمعجزة؟!! - بعد الإنجاب، وأن الأبوّة ستغيّر زين حتمًا، وسيشعر بالمسؤولية تجاه طفلته.

لم أكن أكترث فعلاً لما كانت تقوله؛ فالحكي عادة نسائية لا نبغي من ورائها شيئًا إلا الثرثرة فقط، كان اهتمامي منصبًا على ما كنت أراه في الشرفة الآن. كانت ريم تقول شيئًا ما لأبيها والأخير ينهرها بشدة، حتى تنامت إلى مسامعي بضع كلمات عن طلباتها التي لا تنتهي والدلع الزائد..

تجري الفتاة إلى أختها الكبرى مريم وتحتضنها، تضع مريم كفها الصغيرة عليها.. حتى الآن الوضع طبيعي.. فتاة تشفق على أختها الصغرى.. منتهى الحنان! لكن ما رأته عيناي كان مرعبًا بحق يا ابنتي العزيزة؛ فعلى وجه ريم الباكية كنت أرى وجهًا آخر لريم ذاتها لكنه شفاف.. وجه مزرق أحمر، العينين ككرتي نار، يتلبسه حزن عميق لم أرَ مثله قط،، ومن خصلات شعرها يتطاير شرر رفيع أخضر في اتجاه أبيها. شرر يتزايد مع بكائها.

الأغرب هو أن مريم، ذات التعبير الملائكي على وجهها، والشفقة التي تطلّ من عينيها بينما تربّت على أختها بيدها البيضاء الصغيرة، كنت أرى مريم أخرى شفافة فوق جسدها، تخدش كفها الحمراء ذات الأظافر جلد أختها الصغيرة الذي تسيل منه الدماء إلى أعلى في عكس اتجاه الجاذبية فلا يلوث شيئًا إلا كفّ أختها، وعلى وجه مريم الشفاف ابتسامة خبيثة شامتة!!
لا أنتبه إلى شرودي إلا وبخار الغلاية الكهربائية يلسع وجهي، وصوت (طك) المميز لإتمام غليان الماء بها.

فركت عيني وأعدت النظر إلى الفتاتين مرة أخرى.. أرى المشهد نفسه، بينما تقف منال الآن خلف ريم وتحتضنها ولا أرى على الأم أي تغير يُذكَر، لكنني

أرى مريم يتغير لونها إلى الأزرق، وتتطاير شررات من شعرها في اتجاه أمها برغم أن وجهها - المرئي للجميع - لا يزال تعلوه الشفقة!

تدريجيًا، ومع هدوء الجميع عاد كل شيء إلى اصله، وانصبّ الاهتمام عليّ إذ سقطت فاقدة الوعي!

دينا، أكتب إليك بعد أن رحل الجميع، أبوك غافٍ بجانبي الآن ولا يعلم عما حدث شيئًا.

أحكي لك أنت فأنا أعلم أنك لن تنعتيني بالجنون، لكنني متأكدة من أنني رأيت ما حكيته لك.

ربما تبدو الأوهام حقيقية إلى هذا الحد، لن أعرف أبدًا.. أتمنى ألا يتكرر ما رأيته مرة أخرى، فإن صحّ هذا فمعناه أن الأطفال ليسوا بهذه البراءة إذن! إن مريم تغار من ريم، وربما تدبر الوقائع بينها وبين أبويها، والأدهى أنها تتظاهر بالعكس تمامًا في براءة مقلقة..!!

إن مريم في الثامنة، و لم أكن أظن أن الأطفال يمكن أن تكون لديهم كل تلك المشاعر السوداء. لقد رأيت بعيني ذلك الشرر الذي صدر عنهما تجاه من يغضبن منه. إن الشرر الصادر من ريم أجد له ما يبرره إلى حد ما، أما مريم فقد كانت مستاءة من احتضان منال لريم.. هي حقًا لم تُرِد لأختها أن تهدأ أو تنل أي اهتمام..

حبيبتي، أنا متعبة من كل تلك المشاعر المتضاربة، وأريد أن أنام قليلاً لعلي أهدأ...
تصبحين على خير يا أميرتي..

******

٢٢ يولية ٢٠٠٩

أخبرتك منذ ما يقرب من شهر عن زيارتي للطبيبة وطمأنتها إياي عليك. والآن عدت من زيارة أخرى لها تأخرت عدة أسابيع.
لم أشأ أن أخبرك في المرة الماضية عن ذلك الطفل الذي رأيته في العيادة، فقد رأيته لحظات فقط بينما كانت منال في دورة المياه، وقد ظننت أنني تخيلت وجوده.

كان طفلاً في حوالي السابعة أو الثامنة، أزرق اللون، متصلب الجلد كأنه رخام. كان يقف بجانبي، وقد أدركت وجوده فجأة من صوت يخرج من أنفه كأنه يجاهد كي يتنفس!

ما أثار ذعري حتى كدت أبلل ثيابي هو أن فمه كان مخاطًا بخيط أسود والدم الجاف يكسو أماكن ثقوب الخياطة! عيناه بيضاوان تمامًا وإن كنت أشعر أنه يحدّق فيّ. أما أذناه فقد سدّتا بقطعتي صلصال خضراوان أو هكذا خيّل إليّ.

لم يفعل الطفل شيئًا سوى أنه دار على السيدات الجالسات، يتلمس بطونهن دون اهتمام. لمس بطني بسرعة ثم جرى مبتعدًا عبر الحائط! ظللت أرتجف لمدة نصف ساعة على الأقل ولم أخبر أحدًا عمّا رأيت. لكنني سألت طبيبتي عن ما إذا كان من الممكن أن ترى الحامل بعض الأشياء غير الحقيقية، فأخبرتني أن ذلك ربما يحدث تحت ضغط الهرمونات والقلق وما إلى ذلك، لكنني لم أخبرها بأية تفاصيل.

اليوم يا فتاتي الصغيرة وجدته مرة أخرى في العيادة، وهو ما كان من أسباب تأخري في مواعيد متابعتي مع طبيبتي. لقد كنت أخشى أن أراه مرة اخرى.
كان يمشي ببطء ويجوب العيادة ناظرًا إلى بطون السيدات المتراصات على طول حوائط حجرة الانتظار.

لم يلمس بطن أي منهن مرة أخرى، كما لم تره أيهن أو تشعر به.

توقف عندي لحظة ثم جرى مختفيًا! لقد صار هذا لا يطاق! من الصعب في هذه المرحلة أن أغيّر طبيبتي وقد تابعت معي حملي من البداية، من الصعب أيضًا ألا أذهب إليها دوريًا؛ فأنا أهتم حقًا بسلامتك، وأحب أن أعلم كافة المستجدات عنك، هذا بالإضافة إلى متعتي الخاصة الصغيرة برؤيتك على جهاز الموجات الصوتية!

أخشى عليك من تلك اللمسة التي لمسها لبطني إن كان حقيقيًا، لا أدري كذلك إن كانت بعض النساء الأخريات يرين أشياء مخيفة كالتي رأيتها من يوم أن لمسني ذلك الطفل.

هل كانت لمسته متسببة بشكل ما فيما رأيته على مريم وريم؟ أم أن ذلك كله كان جزءًا من هلاوس حملي؟ ولِمَ لا أرى شيئًا على الكبار؟ إن هلوستي خاصة بالأطفال إذن! هذا ما يرجحَ أن تكون فعلاً مجرد هلوسة بسبب قلقي عليك وتفكيري المستمر في أفضل سبل لرعايتك وحمايتك..

الآن أضمك إليّ في أحشائي، وأغمض عيني على صوت ماجدة الرومي تهدهد ابنتها..

.... وفي غدٍ ستكبرين، وتغرقين في الشجون..
وفي غدٍ ستعشقين، عينين من دون العيون..
نامي.. يا حلوتي الصغيرة، نامي..
أنتِ غدًا.. أميرة!......

******

٢ أغسطس ٢٠٠٩

لقد تخلى زين عني.. أعني أنه قد اتخذ خطوة فعلية تأكدت منها اليوم.. لن أحدثك بتفاصيل تؤثر على رؤيتك له مستقبلاً؛ فهو في النهاية أبوك، وإن لم يكن زوجًا مثاليًا فلن أسرق فرصته في أن يكون أبًا جيدًا أبدًا. لكن حبيبتي، اغفري لي.. لا أستطيع الاستمرار كزوجة له وقد علمت - وتأكدت - من علاقته شبه الرسمية، والتي يعلم عنها الجميع سواي، بفتاة تعمل في شركته.. اسمها إيناس زكريا.. نعم، هي جميلة.. بمقاييس الرجال والنساء هي جميلة.. ذكية كما سمعت عنها من أخيه وهو يرد على اتهاماتي لزين.. كان يقول لي إن الرجل كقطعة من الصابون المبلل.. إن لم تقبضي عليه بكلتا كفيك، انزلق بعيدًا، وإن قبضت عليه بقوة انزلق أيضًا! وإيناس تملك ذكاءً ليس لديَّ، وقدرة على الاحتفاظ بصابونتها بشكل أفضل!

يرى عمك أنس أنني تركت زين يفلت من قبضتي وأنا أحوم حوله كذبابة لا تكف عن طلب الذرية، وكأن وجوده لا يكفيني أو يساعدني على الصبر ريثما يكتب لنا الله الإنجاب..

يقول عمك أنس إن علاقتي الحميمة به - أباك أعني - كانت تفوح منها رائحة الواجب والشر الذي لا بد منه لإنجاب الأطفال! يقول إنه لم يشعر لحظة أنني أستمتع بقربي منه قدر حرصي على أن أعجل بنهاية لقائي معه كي أحصل على ما أستطيع أن أصنع منه الأطفال! وهي المتعة نفسها التي ربما يلاقيها مع عاهرة تتعجل إنهاء اللقاء حتى تحصل على مالها!!

كان أنس يوجّه لي اتهامات يحاول أن يجعلها على هيئة نصائح كي لا يجرح مشاعري، لكن أي نصائح تلك بعد فوات الأوان؟! إن كان يريد نصحًا لكان قد حدثني من البداية ومنع تدهور حالنا، لكن يبدو أن عائلته لم تزل ترى في

ابنة الموظف البسيط التي اقتنصت ابنهم راغبة في أمواله وفي (المنظرة) كما سمعتها مرة من أخته..!!

الحق يا طفلتي لم أعد أدري.. هل أهملته لأنه أهملني، أم هو الذي أهملني لأنني أهملته؟! لم أعد أذكر، لكنني لن أدخل بك أكثر في دوامات الصراع تلك؛ فقد قررت أن أنهي كل شيء قبل أن تولدي حتى.. أريد أن أترك لك مساحة الحكم على الأب لا على الزوج الذي لن يعنيك في شيء..
سأطلب الطلاق في أقرب وقت.. وليرشدني الله إلى ما فيه الخير لك..

******

٣٠ أغسطس ٢٠٠٩

لا أعلم ما يحدث لي.. أعتقد أنني.. أنني ألد!!!!

******

١٦ سبتمبر ٢٠٠٩

يا إلهي! لقد كانت طبيبتي حمقاء، وصاحت بعد أن أخرجتك إلى الدنيا في المستشفى وهي تعطيك لي مغطى بالدم عاريًا:

- ولد يا رنا! ولد! ضحك علينا! هاهاهاها!!!
وأتناولك بين كفي لاهثة، غير مصدقة لتلك المعجزة الصغيرة! والآن يا طفلي العزيز وقد بلغت من العمر أسبوعين كاملين، أواصل الكتابة إليك بعد انقطاع وأعتذر عن كتابتي لك قبلاً على أنك دينا! تعلم أنك الآن أعزّ شيء إلى قلبي وأنت تغفو بجانبي.
لقد أسميتك آسر؛ فقد أسرتني من أول نظرة إلى وجهك الجميل.. تملك وجه

أبيك – كما كنت أخشى – لكن بالنسبة إليَّ فإن روحك هي ما ساكرس له حياتي؛ لتكون – بمشيئة الله – أفضل الناس وأذكاهم، وليس مجرد شاب آخر ممن يُنتجون بالآلاف ولا يساوون أكثر من ثمن ملابسهم.

لتكونن رجلي من الآن فصاعدًا، فحين أضمّك إليَّ أشعر بحنان منك عليّ يفوق حناني أنا نفسي عليك! وكأنك أبي!

طلبت مني طبيبتي أن تراك حين أتعافى؛ لأنها تشكّ في وجود عيب ما في أعضائك الخاصة، لذا كانت تظن أنك فتاة، لكنني أراك مكتملاً ولا عيب فيك.. لا توجد في حياتي نسوة كبار أثق فيهن إلا حماتي وعمتك، ولكني لا أريد أن أستشيرهما في شيء، جاءت منال فقالت لي إنها لا تدري عن أعضاء الأطفال الذكور شيئًا؛ فهي لم تنجب إلا إناثًا!

سأذهب بك إلى الطبيبة في أقرب فرصة، إلا أنني أخشى الذهاب إلى عيادتها فتعاودني الرؤى الغريبة التي انقطعت منذ ولادتك. حينها سأتأكد من كونها ليست هلاوس حمل، وهو شيء لا أحب التأكد منه!

لم أر الطفل الأزرق إلا تلكما المرتين اللتين ذكرتهما لك، بينما تكرر ما رأيته على ابنتي منال عدة مرات على فتيات مختلفات لا أعرفهن، إلا أنني سعيدة أن كل شيء توقف الآن..

سأنام الآن وأنت بين ذراعيّ، تملأ عليّ حياتي..

نم يا حبيبي.. إنها ليلة أخرى تمرّ حتى أراك رجلاً..

******

١٨ سبتمبر ٢٠٠٩

أشعر بظمأ شديد وقد تبقى حتى موعد الإفطار أكثر من ساعتين، إنه أول رمضان تقضيه معي يا صغيري، ولعله ليس الأخير إن شاء الله..

لقد جهز لك والدك أروع غرفة أطفال على الإطلاق! مكسوة من الحائط للحائط بموكيت أزرق اللون ناعم كصفحة الماء.. تزدان حوائطها بورق حائط يمثل سحبًا وطيورًا كرتونية وبحرًا ممتدًا، بينما سقف الغرفة كحلي اللون مرصع بنجوم تضيء في الظلام!

لديك الآن كل شخصيات الرسوم المتحركة على رف علوي.. لديك سرير على هيئة سفينة قراصنة ضخمة بأشرعتها وأعلامها تكاد تكون حقيقية لولا الملاءة والوسائد..

حملتك ودلفت إليها بعد أن فتحها زين بعدما تسلمها من مهندس الديكور، وقد كانت مغلقة تمامًا ومحرمًا عليّ دخولها لمدة أسبوعين.. كنت أتساءل – مع صوت الضوضاء والدق بالداخل – عما إذا كان زين ينقب عن الآثار فيها، خصوصًا مع تعليماته المشددة بعدم دخول الحجرة ريثما ينتهي منها..
انتهى البواب من جمع ما تبقى من آثار العمال وانصرف، وهو شاب (جدع) ساعد العمال في حمل قطع الأثاث إلى الغرفة و لم يتقاض شيئًا.
تقدمني والدك وأضاء الغرفة وابتسم لي..

– ها! ما رأيك؟!

لم أدر ما هي الكلمات لوصف تلك الروعة! يبدو أن زين سيكون أبًا جيدًا رغم كل شيء!

اختلطت سعادتي من أجلك مع شعور سخيف بجدوى تلك الحجرة مع

احتمالية أن أترك ذلك المنزل بعد الطلاق.. كنت أتساءل ما إذا كان أبوك يذكر طلبي بالانفصال عنه أم يتجاهله عامدًا؟!

أخذ يطفئ النور ويضيئه في بلاهة وهو يستعرض لي كيف أن النجوم في سماء الغرفة تضيء كما لو أن الصغير يبحر فعلاً في المحيط بسفينة قراصنة!! ثم يضغط زرًا منفصلاً ليضيء فانوسًا رمضانيًا نحاسيًا تلألأت أنواره الملونة في الغرفة..

لم تدرك أنت وقتها أي شيء من هذا، ولكنني كنت حائرة..

- أأ.. زين.. إن الحجرة رائعة فعلاً، وإن آسر لمحظوظ لامتلاكه حجرة كهذه.. لكن.. لم تردّ علي بخصوص طلبي..

فيردّ ومازالت الابتسامة الطفولية على وجهه وهو يتأكد من تثبيت رف ما

- طلب ماذا؟!

- ال.. الطلاق.. !

يلتفت إليّ وتخفت الابتسامة عن وجهه تدريجيًا ومازالت ذراعه معلقة في الهواء..

- طلاق؟ تقولين طلاق؟ هه؟ الآن؟!!! رنا.. حبيبتي.. ألم يعلّموك في منزل أهلك أن تنتقي الأوقات المناسبة (للنكد)؟! إن هذا شأنك طوال ست سنوات لعينة.. تنتقين ببراعة أوقات سعادتي واحتفالاتي لتذكّريني أنني حقير ولا أستأهل لحظة سعادة واحدة! بعدها تشكين أنني لا أتحدث إليك ولا أكترث لأمرك..

ويترك الحجرة ملتقطًا مفاتيح السيارة ونظارته الشمسية من على السفرة ويفتح الباب..

- تريدين طلاقًا إذن.. حسنًا.. أنت طالق يا رنا..

وأقف ذاهلة يا بني بينما تبكي أنت وكأنك تشعر بي..

لقد انتهى كل شيء.. كنت أتوقع المزيد من المراوغة أو.. لا أعلم.. نهاية درامية أكثر من اللازم..

أجلس معك في سريرك الأسطوري وأهدهدك حتى تنام.. أحدق في السقف وليست لدي رغبة في البكاء..

يبعث الفانوس بألوان مبهجة على الحائط ولكنها لا تشعرني بأي بهجة..

من بعيد أسمع صوت صلاة التراويح فيطمئن قلبي قليلاً.. إن الله سيظل معنا..
أتخيل أن السفينة تبحر بنا بعيدًا.. ربما عبر النيل إلى الشمال.. لا أريد أن أرى شيئًا من حياتي الماضية.. ليتني أستطيع البدء من جديد معك.. معك وحدك..

******

٢٨ سبتمبر ٢٠٠٩

رغم ما حكيته لك في مذكراتي الأيام الماضية من عدم إخباري أحدًا – حتى أهلي – بموضوع طلاقي، إلا أنني ما زلت لا أشعر براحة في تلك الشقة..
لم يأتِ والدك من يوم طلاقنا و لم يتصل.. أتى عمك أنس قليلاً وأعطاني نقودًا لمصاريف العيد وما إلى ذلك. لم أقبلها فانصرف محرجًا..

كانت منال تتصل بي من بيتها في الإسكندرية؛ فقد تم نقل زوجها إلى فرع عمله هناك.. كنت أشتاق إليها وأودّ أيضًا أن أحكي لها، لكنني كنت أجبن في آخر لحظة..

كنت أتصل بأبي يوميًا وأتحجج في كل مرة يسأل فيها عن زين.. كان أبي مريضًا لكنني لم أجرؤ على الذهاب إليه؛ فنظرة واحدة منه إلى وجهي ستنبئه بكل شيء.. وربما تتدهور حالته أيضًا..

إن عمتي تعتني به جيدًا وهذا يجعلني مطمئنة إلى حد كبير.

******

٨ أكتوبر ٢٠٠٩

وعدني عمك اليوم بأنني سأحصل على مستندات طلاقي في أقرب فرصة، وعرفت أن من حقي المكوث في شقة الزوجية طيلة فترة حضانتي لك.. بعدها - كما أخبرني أنس - سيطلب زين ضمك لحضانته..

هل تفهم ما يعنيه ذلك يا بني؟!! أن يأخذك مني برغم انتظاري لك كل تلك الأعوام.. أن ينتزع الأمل من حياتي وكل ما أحيا من أجله..

يعني أن ما تبقى لي معك هو سنوات قليلة.. هل هذا عدل؟!

ماذا أفعل الآن؟! أبكي وأنا أراك متشبثًا بثديي بيدك الناعمة الوردية، ونظرة مطمئنة في عينيك.. أكاد أسمعك تهمس لي.. "لن أتركك يا أمي.. سأظل بجانبك للأبد"، أصدقك وكأنني أسمع نبوءة من أمهر عرافي العالم.. لكن لا بد من أن أفعل شيئًا..

******

١١ أكتوبر ٢٠٠٩

لقد حكيت لمنال كل شيء.. ظلت تحوقل طيلة نصف ساعة على الهاتف ثم بكت قليلاً، وبعد أن هدأت طلبت مني أن أفكر بهدوء، وأتعقل؛ فقد أخبرتها

أنني انتويت الهرب بك إلى أي مكان.. قالت لي إنه قادر على العثور عليّ، بل وإقامة دعوى قضائية ضدي.. لا يستطيع المرء الاختفاء بهذه السهولة..
لكنني يا بني كنت مصممة؛ فلن يأخذك مني إلا الموت - موتي أنا؛ فأنا لا أستطيع حتى التفكير في موتك - ولن يصل إلي إذا أجدت الاختباء.. لكن من أين لي المال للسفر أو البحث عن شقة حتى أجد وظيفة ما؟
أفكر وأنا أطعمك، ثم أتحدث إليك عن همومي، فيبدو عليك الإنصات، ثم تضحك! تضحك مسفهًا كل عوارض الدنيا.. وما لتلك البلايا إلا أن تهون أمام وجهك الصبوح!
أحبك اليوم أكثر من أمس، وسأحبك غدًا ضعفي اليوم.. هل تدرك كم سأحبك حتى يوم عيد ميلادك الأول؟!!!
وتضحك ثانية كأنك حسبتها!

******

٤ نوفمبر ٢٠٠٩

تملأ شوارع القاهرة الورود الحمراء والقلوب.. بينما يتراص العاشقون على ضفاف النيل متشابكي الأيدي..

وبينما تدوّي أصوات الأغاني من كل مكان، أركب سيارة عمتي المتهالكة، متشحة بالسواد.. مشيعة أبي إلى مثواه الأخير.

أحملك يا حبيبي على كتفي وقد صمتّ تمامًا فلم تبك أو تطلب طعامًا طوال اليوم.. من حين لآخر أشعر بذراعيك الصغيرتين تضماني بشدة فتعتصر الألم مني، وتطمئنني أنه لا يزال لي ظهر في هذه الدنيا..

بعد صلاة الجنازة وجدت زين يرتدي حذاءه على بوابة الجامع ثم يرتدي

نظارته السوداء ويتجه إليَّ معزيًا.. أشعر بوهن شديد يا بني، ولا أخفيك أنني وددت لو ارتميت بين ذراعيه.. أعلم أن شعوري هذا خاطئ، وأنني لا أحتاجه هو شخصيًا ولكنني أحتاج تلك الصورة التي طالما تخيلتها عنه..

– ماذا ستفعلين بعد الجنازة؟

– لا شيء.. سأذهب إلى المنزل.. ربما تأتي معزيات ليلاً كما تعلم..

وظل زين في المقابر حتى انتهينا من الدفن، ظل واقفًا على بعد يرقبنا بعد أن طلب مني أن يحملك قليلاً لكنني أبيت. اعذرني يا بني، ففكرة استيلائه عليك لا تفارق ذهني من الآن..

عرض عليّ أن يوصلني إلى المنزل فوافقت؛ فانهيار عمتي كان يضغط على أعصابي، و لم أكن قادرة على منحها المواساة؛ فأنا بحاجة إلى من يواسيني..
لم يفتح أبوك فمه طيلة الطريق، ولكنه كان ينظر إليك مداعبًا من حين لآخر حتى وصلنا..

لدهشتي صعد أبوك معنا حتى مدخل الشقة، ثم وقفنا لحظات بدت كأنها الدهر نتبادل نظرات، أكذب إن قلت إنني أفهمها..

لم أدر كيف دخل إلى الشقة، ولا كيف وجدتني أجلس معه نحتسي الشاي على الكاونتر العالي في المطبخ بينما تغفو أنت في عربة الأطفال بيننا..

– تعازيّ لك..

– الحمد لله على كل شيء.

– ألا تحتاجين شيئًا؟ هل يصلك المال مع أنس؟

– نعم يصلني.. وإن كنت لا أعلم لِمَ لا تأتي وترى ابنك كأي أب و.. معذرة..

غريزة (النكد) مازالت تسيطر عليّ.. يبدو أنك ارتحت منها الفترة الماضية.. ابتسم ودفن وجهه في قدح الشاي.. من مكان ما في الشارع تنبعث أغنية براياان آدامز "عندما تحب امرأة".. صوته المشروخ الحاني يداعب أذني.. يذكّرني بشكل ما بصوت أبيك..

"عندما تحب امرأة..
حاول فهمها...
حاول سبر أغوارها..
تسمع كل فكرة من أفكارها..
وترى كل حلم من أحلامها..
امنحها أجنحة إن أرادت الطيران..
وعندما تجد نفسك بلا إرادة بين ذراعيها آمنًا..
تعرف حينها أنك أحببت تلك المرأة...."

آه يا بني من ذكريات تلك الأغنية.. يرفع زين عينيه عن قدحه وينظر نحوي.. أكاد أرى دموعًا في عينيه، لكنه أبدًا لا يدعها تظهر..

هل أحببت هذا الرجل فعلاً أم أنني أحببت الحالة نفسها؟ بما فيها تلك الأغنية. هل أشتاق إليه فعلاً أم هو الضعف الناتج من فقدان أبي ومن كل ذلك الحب المنبعث في الهواء من حولي في عيد الحب..؟!

أخبرتك يا بني في الأيام السابقة كم كنت أشعر بالخواء من دونه.. عندما كنت أرى ملابسه التي لم يأخذها في الدولاب، ورائحة جسده الملتصقة بتلك الملابس، أشعر بالحنين إلى شيء ما..

فرشاة أسنانه الجافة تحك ذاكرتي وتكشط الصدأ عن ستة أعوام قضيتها مع الرجل نفسه.. هل فعلاً أنا من تركته ينزلق من يدي..؟؟

"عندما تحب امرأة..
أخبرها أنها محبوبتك..
أخبرها بما تحب سماعه..
وعندما تحاجك، أخبرها أنك ستكون معها أبدًا..
أخبرها أنك لم تحب قط من قبلها امرأة.."

كنت أبكي، خليط من الوحشة والشعور بالذنب لإهمالي أبي خلال الفترة الماضية.. لقد أهملته وأهملت زين لأنانيتي.. وهل الأمومة أنانية؟!

يربّت زين على كتفي.. ينزل عن كرسيه العالي ويقترب مني.. يحتضنني.. ااااه ه ه...

"عندما تحب امرأة..
وتدعها تحتضنك..
عندما تعلم أنها بحاجة للمستك..
تنفسها.. تذوقها..
أشعر بها في دمك....
عندما ترى أولادك الذين لم يولدوا بعد في عينيها..
إذن، فأنت تحب تلك المرأة...".

ولتفهم يا بني وحدك ما حدث بعدها، لكنني لم أشعر قط من قبل بما شعرته تلك الليلة...

******

٥ نوفمبر ٢٠٠٩

أجلس الآن بعد انصراف المعزيات لأكتب إليك..

لقد تطورت العلاقة بيني وبينك إلى صداقة لا شك فيها! أكتب لك كل ما يمر بي، حتى وإن كان غير لائق أن يعلم الابن ما يدور بين أبيه وأمه بهذه الدقة.. لكنني أحتاج بشدة إلى أن أحكي لك ما حدث أمس، ارتدى زين ملابسه وجلس على طرف السرير يدخن، هو لم يدخن من قبل في حجرة النوم..

– إذن؟!

– إذن ماذا يا رنا؟

– لقد كان ما حدث خطأً فادحًا...

– أي خطأ؟ مازلت في شهور العدة.. أنت زوجتي..

– زوجتك؟ أعني.. لقد رددتني في لحظة ضعف وأنا...

ويطفئ سيجارته التي لم يدخن إلا نصفها ويصعد بجواري إلى السرير..
– رنا.. لم تكن لحظة ضعف بالنسبة لي، لقد كنت واعيًا لما أفعله، وأردت فعله.. أنت زوجتي وأريدك أن تظلي معي..

يدق قلبي بعنف..
– إذن.. ستترك المرأة الأخرى؟!

يصمت لحظات ثم يقوم مرتديًا حذاءه ويحاول ألا ينظر لي..
– لتعرفي شيئًا.. أنا أحبك.. وأحب إيناس.. هي لم تفعل لي شيئًا كي أتركها، في الوقت نفسه أريد أن تظل زوجتي وابني معي.. أحتاج كلتيكما في حياتي..

- تحتاج كلتينا!!! لكنني لا أستطيع الحياة بهذا الشكل، لن أحتمل.. لقد خدعتني إذن اليوم لتردني كي تصبح كلتا المرأتين ملكك! كنت أعلم أنك حقير ولكن ليس إلى هذه الدرجة!

يقطب جبينه وينظر إليّ، يخطف معطفه من على المشجب ويرتديه ثم ينظر في عيني مباشرة في تصميم

- لن أطلقك.. وابني هو ابني شئت أم أبيت.. أنتِ غبية فعلاً.. هل كنت ستشعرين بتحسن إذا ضممت الولد إلى حضانتي وتركتك تتعفنين وحدك؟ هه؟ هل ما فعلته الآن حقارة؟ هل إذا ظللتِ زوجتي وظل الولد معك شرعًا وقانونًا أصبح أنا الحقير؟! منتهى الغباء.. !!!

ويرحل ويتركني لا أعي شيئًا.. لم أفكر فيما قاله من قبل.. ربما عودتي لأبيك كانت ستوفر عليّ مشقة الخوف والمعاناة من فقدك.. هل أنا غبية فعلاً أم أن شيئًا في داخلي يريد الاستحواذ عليك، أن تكون ملكي وحدي؟
أصارحك يا بني أني أشعر بندم ما، لكنني لن أترجاه للعودة، ولن أقبل أن أكون المرأة الأخرى (القديمة) في حياته.. أنت ابني وقد دفعت ثمن حصولي عليك كاملاً وستكون لي وحدي..
يا ربي.. ماذا أقول؟! لقد جننت تمامًا ولا أعي فداحة فعلتي.. كيف أصف نفسي بالمضحية من أجل طفلي وأنا أحرمه من أبيه؛ لأنني لا أستطيع التضحية بجزء بسيط من كرامتي من أجله.. ساعدني يا رب..

******

٢٣ ديسمبر ٢٠٠٩

ابني الحبيب.. لقد حكيت لك في الأيام السابقة كل ما من شأنه أن يصيبك

بالكآبة لمدة عامين! نعم، فأبوك مازال رافضًا للطلاق، وأنا لا أستطيع الحياة بهذا الشكل.

لقد تزوج إيناس بالفعل، فعزمت أن أترك كل تلك الحياة خلفي وأرحل بعيدًا..

لقد ترك لي جدك مبلغًا ماليًا معقولاً هو نصيبي من الميراث، بالإضافة إلى شقته الصغيرة بإمبابة التي كان قد كتبها باسمي. ساعدتني منال في بيع الشقة، وها أنا في طريقي غدًا إلى الإسكندرية لرؤية الشقة التي وجدها لي رشدي زوج منال. أيًا كانت فسوف أوافق بها ما دامت في حدود المبلغ المتاح معي، مع ترك مبلغ آخر للعيش به ريثما أجد أي عمل.

ستبدو جميلاً في ثياب الخروج الشتوية غدًا! لقد أخطأت حين خيل لي أنك تشبه زين، في الواقع أنت لا تشبه أيًا منا! لكنك جميل تشبه الفتيات بشعرك الحريري المتدلي على عينيك، وملامحك الدقيقة، وحجمك الصغير.. تبدو ملاكًا من ملائكة اللوحات الكلاسيكية.. ملاكًا على الحد الفاصل بين الذكورة والأنوثة! لقد وهبك الله لي وأبى إلا أن تكون ابنًا وابنة في الوقت ذاته؛ ليعوضني بك عن كل ما افتقدته..

نم يا صغيري.. فغدًا يوم طويل..

******

٢٤ ديسمبر ٢٠٠٩

أجلس منهكة في حجرة الفتيات- مريم وريم - أكتب إليك على عجل، وقد قررت منال أن أبيت معها حتى أنهي موضوع شراء الشقة..

اصطحبتني منال ورشدي من محطة القطار إلى حي سيدي بشر حيث الشقة

المزعومة. شارع ضيق نظيف يكسوه أسفلت قديم لكن بحالة جيدة على عكس الشوارع المماثلة في القاهرة؛ حيث لا أسفلت على الإطلاق، والشارع محرف بطريقة تجعلك توشك على رؤية الألواح التكتونية ذاتها!

المنزل مكوّن من ٤ طوابق، وتقع الشقة في الدور الأرضي من البناية. ما زالت زينة رمضان معلقة بين المباني الصغيرة القصيرة حتى الآن، ويبدو أنها كانت معلقة منذ أعوام، وستظل معلقة إلى أن تبلى..

الشقة صغيرة، حجرتان لا تتجاوز الواحدة منهما مترين في ثلاثة أمتار، تزين حائطيهما نافذتان صغيرتان. أما الصالة فهي أكبر قليلاً، ويتفرع منها حمام ومطبخ. الحوائط في حالة جيدة وإن كان لونها الأصفر الليموني يشعرني بالغثيان.

لكنها كانت بالنسبة لي كالواحة في الصحراء، وقد شجعني على تقبلها سعادتك الغامرة فيها، كنت تضحك وتنظر حولك كاننا في حافلة مزدحمة بالمهرجين!

كتبنا عقدها منذ سويعات قليلة، ودفعت جزءًا من المبلغ، وسأسحب المبلغ المتبقي غدًا من فرع البنك هنا..

لا أعلم من أين سأشتري لها فرشًا لكن بوسعي النوم على الأرض ما دمت أشعر بالأمان معك..

أغني لك قليلاً حتى تنام.. وأنام أنا...

******

٣٠ ديسمبر ٢٠٠٩

يوم آخر لنا معًا في شقتنا الصغيرة الجميلة! تعلم..؟ لقد فككت سريرك الجميل، وحمله رشدي على سقف سيارته فجرًا، مغامرًا أن تسحب رخصه على الطريق. لكنك أحببت هذا السرير، فليكن هو متاعنا الوحيد في هذه الشقة مع التلفاز القديم الذي تبرعت لي به منال. حالته جيدة إذا واظبت على الطرق فوقه كل بضع دقائق حتى تثبت الصورة.. لن أنسى أيضًا الكومبيوتر المتهالك الذي اقترضته منها لأعمل عليه إذا قبلت بي المكتبة التي أعتزم أن أعرض خدماتي عليها غدًا..

أحضرت كذلك بعض ملابسنا وبعض الكتب وشرائط الكاسيت..

أحملك في طريقي إلى السوق فآخذ الطريق الطويل الممتد بطول البحر..

أشعر بالحرية وشيء من السعادة وسط قلقي من مستقبلنا الغامض..

تزدان الأرصفة أمام المحال بأشجار عيد الميلاد ودمى بابا نويل..

أشتري غداءً بسيطًا مناسبًا لطهوه على موقد الكهرباء ذي العين الواحدة، وأبتاع لك كيسًا من الكرات الملونة كالتي تعلق على أشجار رأس السنة، ظللت ممسكًا بها طيلة طريق العودة..

بجانب المنزل أرى مدرسة ابتدائية مهجورة.. ألمح من خلال سورها الحديدي لعب أطفال قديمة ملقاة هنا وهناك، لكنني أسمع ضوضاء أطفال بالداخل، إنها ليست مهجورة إذن.. ربما لها مدخل خلفي أكثر نظافة.. تسترعي انتباهي لافتة المدرسة الخشبية المكسورة من منتصفها حيث اسم المدرسة فلا أستطيع أن أميز منه إلا "مدرسة.......... الابتدائية للغات".

تظل عيناك معلقة بها حتى نصل إلى المنزل فتقبض بيدك الصغيرة على طرف

البوابة وكأنك لا تريد الدخول.. تريد النظر إليها أكثر.. ليتك تستطيع الكلام لأعلم ما يجذب نظرك فيها إلى هذا الحد..

******

٣١ ديسمبر ٢٠٠٩

لقد عدنا الآن إلى المنزل بعد يوم شاق! كل عام وأنت بخير يا صغيري !! اليوم هو أول رأس سنة نقضيها سويًا! في الأعوام الماضية اعتاد أبوك أن يقيم حفلاً صغيرًا في المكتب يدعو إليه أصدقاءه وموظفي الشركة. لم أكن أحضر ذلك الحفل؛ لأني في المرات القليلة التي حضرته لم أكن أستطيع إلا أن أتبع نظرات أبيك أينما ذهبت.. يكلم تلك المرأة، وعندما تستدير لترحل أجده يتفحصها من شعر رأسها إلى كعبيها.. يمزح مع تلك ويضحك مع غيرها.. لا يتذكر وجودي إلا في وقت الرحيل..

إن النظر بجانب العين إلى النساء الأخريات خاصية في الغالبية العظمى من الرجال ويكاد يكون طبيعة ثابتة فيهم. ربما تكون عندك يا صغيري الخاصية ذاتها حين تكبر، لكنني أنصحك الآن – فلا أعلم إن كنت سأعيش حتى أراك زوجًا أم لا – ألا تمارس تلك العادة بينما تكون زوجتك إلى جوارك حتى وإن ظننت أنها لا تراك؛ فنحن نجيد إخفاء ما نعرفه عنكم! فنحن النسوة لنا عين ثالثة تكشف تلك اللحظات، وهي عين مزعجة فعلاً أتمنى شخصيًا أن أحدد مكانها لأقتلعها! تحتاج الواحدة منا إلى أن (تظن) أن زوجها بريء ويكتفي بها دون سواها، ولا تعلق عينه – كالسنارة – بمؤخرات ونهود الأخريات! هاهاها! سأكتب على غلاف تلك المذكرات (غير مسموح بها لمن تحت الثامنة عشرة!).. يبدو لي أنني أتكلم بحرية قد لا تليق بمراهقة مثلاً! لكن لتعذرني يا بني؛ ففشلي مع أبيك يدفعني دفعًا لتربيتك كي تكون رجلاً يحترم

النساء، ومشاعرهن حتى إن لم يحببهن.. أريدك أن تعرف المزيد عن النساء مما لن تخبرك به واحدة منهن.. إن النساء لا يطلبن الاهتمام ولكنهن يسعين إلى أن يجدن ذلك الرجل الذي يهتم بهن فعلاً..

أنت الآن تجلس أمامي تلعب بكراتك الملونة على السرير، بينما أعدّ طعام غد؛ حيث إنني سأعود من المكتبة التي قبلت أن أعمل بها، منهكة ثقيلة الحركة أشبه بالسجادة المبتلة..

ما زال لدي عمل طويل في ترجمة بعض الأبحاث للمكتبة على جهاز الكومبيوتر.. إن صاحبة المكتبة طيبة ودود ستسمح ببقائك معي في عملي؛ فأنت هادئ جدًا، ولكنها لا تقبل أبدًا التأخر في تسليم العمل، وها هي قد أثقلتني بأطنان من الأوراق والأبحاث المدرسية لترجمتها في أول يوم لي رغم أنني لم أقض معها إلا ساعة..

لا أعلم ما أصاب التيار الكهربي اليوم؛ فمنذ أن بدأت صالة الأفراح في أول الشارع عملها اليوم بأولى حفلاتها، حتى ظل التيار ينقطع ويعود ويتراقص.. حتى غدا من المستحيل أن أكتب ورقة واحدة ولا ينقطع بعدها التيار، فأعيد تشغيل الكومبيوتر مرة أخرى والكتابة من جديد.. إن الوقت الضائع لا.......

....

يا إلهي.. لن تصدق ما حدث منذ قليل.. ما زالت يدي ترتجف ولا أستطيع السيطرة عليها... لقد كان كابوسًا حقيقيًا ولا أعلم حتى كيف انتهى..

لقد دق الباب فتركت ما أكتبه لك وقمت لأفتحه فوجدت جارتنا مدام بثينة تحمل صغيرتها ذات الثلاثة أشهر مبتسمة حاملة في يدها تورتة منزلية الصنع وتبغي قضاء الليلة معي؛ فزوجها مهندس البترول لن يأتي الليلة، وهي تأبى أن

تقضي ليلة كهذه وحيدة..

تعلم أنني لا أحب الاختلاط بالجيران؛ فأنا أريد أن أختفي عن الأنظار ولا تتناثر عني الأقاويل هنا وهناك مؤدية إلى إيذاء سمعتي، أو في أسوأ الأحوال كشف مكاني لأبيك الذي لا بد أنه يذرع مصر بحثًا عنا..

لكن الانغلاق الزائد أيضًا ربما يسمح للآخرين بنسج القصص عني وزيادة العداء تجاهي، وهو آخر شيء أتمناه. سمحت لها بالدخول فلم تجد ما تجلس عليه إلا السرير أو كرسي الكومبيوتر فاختارت الأخير. رحبت بها وأعددت لها شايًا بينما هي تحكي لي عن الظرف الذي جاء بها الليلة ألا وهو الشعور بالوحدة في عدم وجود (ظل رجل).. لقد أسكتُّ فضولها منذ أخبرتها أنني مطلقة ولم يعطني زوجي حقوقي فاضررت إلى السكن هنا، وهو المسكن الوحيد الذي استطعت توفيره من مالي الخاص بعد أن طردني زوجي من مسكن الزوجية. إلا أنني أهبت بها ألا تخبر أي شخص يسأل عني أو عن مكاني؛ فربما يكون زوجي وقد أتى لإيذائي أو اختطاف ابني..

- آه، لقد ذكرتني بحديثنا عن الرجال، لقد سأل عنك اليوم رجل أسمر يشبه موديلات البذلات، وقد شككت فيه.. لقد ظل يطرق بابك، وحين سمعتُ الطرق فتحت بابي وسألته عمن يريد فسأل عنكِ.. فأخبرته أنني لا أعلم شيئًا عمن يسكن هنا؛ فأنا سيدة في حالي.. فنظر إليّ نظرة لم أفهمها ثم رحل..

سيدة في حالي؟!!! وهل من شيم السيدات اللاتي في حالهن أن تفتحن الأبواب كلما سمعن طرقًا على أبواب الجيران اللاتي لا تعرفن عنهم شيئًا؟!! تبًا لها! لقد وجدني! كيف؟

وضعت بثينة طفلتها الممسكة بدمية قماشية مما نسميها (كرنبة) بجوارك على السرير كي تشرب شايها، فتركت أنت كراتك وأمسكت دميتها في فضول!

بكت الطفلة فتركت تلك الدمية من فورك، لكنها ظلت تبكي وتنثر كراتك في كل اتجاه..

فقمت إليكما لأهدئ الموقف وأحملها فتعلقت يدي في الهواء، وردتهما إليّ فورًا حتى قبل أن ألمسها.. كانت الطفلة تبكي وتتصاعد دموعها إلى أعلى.. إلى سقف الغرفة، وقد ازرقّ وجهها - هل تذكر مريم وريم؟ - ومن شعرها القصير الخفيف تمتد شرارات صغيرة في اتجاهك! دون تفكير ضممتك إليّ وخبأت رأسك في صدري ووليتها ظهري، بينما تبدّى الغضب من تصرفي على وجه أمها التي حملتها وأخذت تهدهدها وتعطيها الدمية حتى هدأت تمامًا وعادت - بالنسبة لي - إلى طبيعتها!

ظللت متسمرة في مكاني لا أذكر ما قالته لي إلا أنها هدأت ووضعت الطفلة على فخذها وأخذت تثرثر عن زوجها وعن ابنتها وعن وعن.. لكنك تعلم يا بني ما أشعر به الآن.. لقد عادت تلك الموهبة السوداء كما قررت أن أسميها في عقلي.. لمَ عادت الآن وقد مرت شهور طويلة على اختفائها؟ هل لهذا علاقة بكوني تحت ضغط عصبي ما بسبب ذكر أبيك؟

لم أعلم ما رددت به عليها، ولا كيف مرت الساعات حتى جاءت الساعة الثانية عشرة وكنا نشاهد احتفالاً على الهواء مباشرة وأنا شاردة تمامًا، في الاحتفال.. بدأ العد العكسي، وهنا ساد الظلام!

لقد انقطع التيار اللعين، ومن أول الشارع أسمع ضوضاء من جهة صالة الأفراح التي أكملت عملها بمولد كهربي..

ظللت ساكنة في مكاني وقد كنت في طريقي إلى المطبخ لجلب كوب ماء لجارتي، واستدرت عائدة إلى منضدة الكومبيوتر التي أضع عليها شمعة في غطاء زجاجة لكنني صدمت رأسي صدمة خفيفة في الحائط وأنا لا أميز شيئًا في الظلام..

لم أكن أرى شيئًا إلا أنت والطفلة الصغيرة! لقد كنتما تتوهجان باللون الأصفر المهتز! ربما يعني هذا الخوف أو المفاجأة أو أيًا كان ما يعنيه فهو غير طبيعي ومرعب!

اجتزت الأمتار القليلة التي تفصلني عنك في سهولة مهتدية بضوئك الأصفر واحتضنتك.. تدريجيًا بدأتما في العودة إلى طبيعتيكما..

– بثينة.. هيا نقف في الشرفة إذن، الشمعة قصيرة جدًا وليس عندي غيرها!

قمنا إلى الشرفة فلسعنا الهواء البارد، فأغلقت الزجاج تاركة الخصاص مفتوحًا ليبعث إلينا بعض الضوء من الشارع..

من الزجاج أرى بعض الجيران وقد توجهوا إلى صالة الأفراح مفضلين أن يقضوا ليلة رأس السنة في أنوارها الملونة المتراقصة.. أسمع باب سيارة تفتح وتغلق أسفل نافذة الحجرة، أخرج لحظة إلى الشرفة وأتطلع.. آااه! سيارة مختلفة عن سيارة زين.. ولكنني أراه شخصيًا خارجًا منها متجهًا إلى البوابة! لقد غيّر سيارته إذن وأنا لم ألحظ وقوفها أمام المدخل وأنا عائدة من العمل! قبل أن أعود مهرولة إلى الداخل، سرق نظري طفل مضيء آخر ولكن داخل أسوار المدرسة الابتدائية المجاورة!!!

******

باقي ما كتبته رنا مهنى في ٣١ ديسمبر٢٠٠٩..

كان يشع ضوءًا أحمر لم أر مثله من قبل، ومن حوله برق وليس مجرد شرارات..
كان يجري نحو عمارتي وهو يشير إلى المدخل..
دخلت فزعة وأنا أصيح همسًا إن كنت تفهم ما أعنيه..

- بثينة.. طليقي! طليقي بالخارج وهو يصعد الآن!

سمعت طرقات على الباب، فدسّت كل منا صغيرها في صدرها واتسعت عيوننا!

توالت الطرقات مرة أخرى..

- رنا! ! افتحي.. أعلم أنك بالداخل، لقد رأيتك وأنت تدخلين وكدت أصعد إليك لولا أن شاهدت جارتك ذاهبة إليك ففضلت الانتظار حتى ترحل.. لكنني لن أقضي الليلة في الظلام..

لم أفتح فمي، بينما قامت جارتي بتصرف غريب؛ إذ قامت متسللة بطفلتها إلى الحمام وأغلقت عليها الباب!! ربما يفعل المرء أشياء أغرب إذا استشعر خطرًا على أولاده!

ظل زين يطرق الباب وينادي بعصبية تتزايد كلما أهملت وقوفه على الباب..

تسللت إلى الحمام حاملة إياك وناديت على بثينة همسًا..

- بثينة.. خذي آسر معك.... بثينة.. افتحي.. لا وقت!

لم ترد المرأة لكنني أسمع صوت أنفاسها بوضوح.. لكن ما جدوى أن أخبئك بينما زين لن يهدأ حتى يجدك؟ لن يجدي التظاهر بأنك غير موجود وقد رآني أحملك عائدة من عملي منذ قليل..

وضعتك في سريرك وقررت أن أفتح وأواجهه مهما كانت الأسباب.. فليأخذك على جثتي إن أراد..

فتحت الباب وتراجعت عنه، فدخل فاتحًا الباب عن آخره فاصطدم الأخير بالحائط خلفه مسقطًا بعض الطلاء..

- كيف عرفت مكاني؟!!

سار بخطى بطيئة وابتسامة بدت شيطانية على وجهه في الظلام نحو سريرك..

- هذا السرير هو ما كشفك يا ذكية! لقد رأى البواب سيارة رشدي تحمل السرير الذي يعرفه جيدًا فقد حمل أجزاءه على ظهره صاعدًا به إلى الحجرة! فوصف لي السيارة حين رأى حيرتي والأيام تمرّ ولا يجدك أنس حين يأتي لك في أي وقت من أوقات اليوم..

سألت عن رشدي فوجدته قد تم نقله إلى الإسكندرية.. راقبت منال عدة أيام حتى وجدتك يا صغيرتي! والآن.. أين آسر؟!!

كان يسأل عنك وأنت على السرير! لعلك سقطت عنه؟ التفت في ذعر إلى السرير لأجد أغرب مشهد يمكن تصوره.. كنت ما زلت جالسًا في مكانك بينما يجلس خلفك ذلك الطفل الغامض الذي رأيته يهرول في المدرسة المجاورة.. كان هو الطفل ذاته الذي رأيته في العيادة منذ أشهر بفمه المخاط وأذنيه المسدودتين وعينيه البيضاوين.. كان يلفّ أطرافه الأربعة حولك ويطلق أزيزًا يشبه قرقرة القطط، ومن حولكما مجال ضوئي يسبح فيه ما يشبه فتات الماس مما يجعلكما شبه شفافين بالنسبة لي وشفافين تمامًا بالنسبة لزين.. !!
كنت أسمع همهمة من جهة الحمام ولكنني كنت في موقف لا أحسد عليه..

- أين الولد؟ لقد رأيتك عائدة به اليوم!

- أ... أ... لا أدري...
- لا تعرفين أين ابنك؟! ما شاء الله! أنت تقدمين لي أسباب ضمه إليّ من الآن على طبق من ذهب!

ظل يدخل كل حجرة ويبحث عنه بلا جهد تقريبًا؛ لأن الشقة بلا أثاث فلا يوجد ما أخبئك فيه، عندما وصل إلى الحمام وجده مغلقًا من الداخل..

-آ..ها! إذن أنت تخبئينه مع جارتك الفضولية! افتحي يا امرأة.. لن أؤذيك، فقط أريد طفلي..

لكن بثينة ظلت تصرخ من الداخل وتبكي ابنتها بينما يحاول زين كسر الباب بكتفه.. لقد كان غاضبًا كما لم أره من قبل؛ فهروبي بك يا بني لم يكن ليتحمله أي شخص..

ضربتان وكان الباب القديم قد خلع من مفصلاته وكاد يسقط على بثينة لولا أن قفزت داخل البانيو الصغير وهي تصرخ وترتجف..

خطا زين داخل الحمام فوق الباب المخلوع الذي تشقق من وزنه، بحث في سرعة فلم يبدُ له أن هناك مخبأ ما..

بينما ينفث غاضبًا اقترب من وجه جارتي المنكمشة في الركن والتي تخبئ ابنتها ووجهها إلى الحائط..

- أين ابني.. ؟!

- أقسم أنني لا أعرف..

مد يده وأمسك بذراع الصغيرة في وحشية وجذبه فأطلقت الرضيعة صرخة مزقت قلبي..

جثت بثينة على ركبتيها لاثمة قدميه وابنتها لا تكف عن البكاء

- اتركها أرجوك.. ما ذنبها.. وما ذنبي؟!

- إن المرأة لا يلتوي ذراعها إلا عن طريق أبنائها! هذا ما علمتني إياه جارتك

البلهاء.. لا يهمكن إلا أطفالكن، فلِمَ تستغربين ما أفعله من أجل طفلي؟! أم أن النساء فقط هن من يشعرن؟؟ انطقي.. أين الولد؟!

– لقد.. لقد أتى أحد أقارب رنا منذ قليل وأخذه.. نعم.. هو كذلك.. أين عساني قد أكون خبأته؟ وهل أفضل ضرر ابنتي على ضرر ابن جارتي؟!

أنت شجاعة فعلاً يا بثينة! لعله يقتنع بتلك الحجة ويتركنا.. وقف لحظات يفكر ثم انقض عليّ حيث وقفتُ خلفه عازمة أن أمنعه من ضربها إن بدا أنه ينتوي ذلك.. أمسكني من فكي ورفع وجهي فصرخت وأنا أشعر أن رأسي سينفصل عن جسدي في أي لحظة..

– أي قريب هذا؟!! لم أر لك أقارب إلا أباك وعمتك.. وكيف لم أره يخرج من البناية مع ابني؟!

– آآآه.. إنه.. إنه زوج ابنة عمتي..

– كاذبة! ابنة عمتك مراهقة!

ودفعني ليرتطم رأسي بحوض الحمام.. زحفت خارجة فوق الباب المكسور فدخلت قطعة خشبية في كفي فصرخت..

جثم فوقي وأمسكني من شعري، فلم أجد إلا أن ضربته في وجهه بقطعة الخشب الصغيرة فقام صارخًا وقد تلطخ وجهه بدم معظمه من يدي المجروحة..

وجدت من يجذبني من يدي لأقوم، بثينة تحمل طفلتها التي بدا أن ذراعها لا تتحرك وتبدو مرتخية، بينما تجذبني من يدي بيدها الأخرى..

أسمع ضجة على سلم العمارة، ثم أرى رجلاً أربعينيًا يمسك سنجة ومعه شابان أحدهما يحمل جنزيرًا يدخلون من الباب المفتوح أصلاً..

- لا تخافي يا رنا.. هذا عزت زوج أختي.. لقد اتصلت به من هاتفي المحمول وورشته في آخر الشارع..

لم يتحمل زين - ابن الناس - إلا ضربة واحدة من الجنزير سقط بعدها، فقام شاب منهم بتقييده وحمله مع صاحبه حملاً إلى المخفر..

على الباب تجمع الجيران الذين كانوا يسمعون استغاثاتنا ولم يجرؤ أحدهم على مساعدتنا.. كل منهم يخاف على نفسه وبيته، ولولا تصرف جارتي لكنا نحتفل برأس السنة في العالم الآخر الآن..

انصرف الجيران وكل حاملٌ كشافه وشموعه مع تمنياتهم لنا بعام سعيد! كنت أنظر إلى السرير لأجدك تعود إلى الظهور في بطء والطفل الغريب يتراجع عنك عابرًا الحائط في هدوء..

كنت تنظر إلى الطفل وتمد يدك كأنك تريد استبقاءه ثم تنظر إلي وتبتسم!

أجري إليك وأحتضنك، بينما تقف بثينة متسعة العينين تنظر إليك..

- أين كان إذن عندما كان أبوه يبحث عنه؟!!! الله أكبر! لقد أعماه الله عن رؤية ابنه!

لا شك أنه رجل عاصٍ فاسد فعلاً! الله أكبر! إن الله يحبك فعلاً يا رنا!

لم أجد بدًا من الموافقة على ما قالت، فما حدث معجزة فعلاً إلا أنني قد رأيت بعيني كيف اختفيت!

ابني الحبيب، أدوّن ما حدث وأملي أن أنام وأصحو لأجد كل هذا قد كان كابوسًا..

تعال إلى حضني أيها الصغير وأدعو لي أن أنسى تلك الليلة..

******

٢٢ يناير ٢٠١٠

طفلي الحبيب، لقد تعافت الصغيرة حسناء ابنة جارتي بثينة من إصابة يدها في رأس السنة، وقد خرجنا إلى السوق اليوم بعد انتهاء عملي..

– الشارع كله يعتبرك من أولياء الله! لقد اختفى ابنك فعلاً!

– البركة فيك! لم أكن أريد كل تلك الضجة، لكنك حكيت للشارع كله!

لم أكن غاضبة منها؛ فقد تصرفت يومها بذكاء فلم تطلب الشرطة التي لم تكن لتجيء قبل مرور ساعات.. لقد تنازلت عن المحضر فلم أرد جلب العداء أكثر من هذا، ولم أستطع تحرير محضر عدم تعرض لأنه كان سيطلقني فعليًا ويطلب حق رؤيتك.. وما خفي كان أعظم..

ربما أكون مخطئة في حساباتي تلك، وربما كان من المفروض أن يحبس وأطلب أنا الطلاق حتى لا أترك له فرصة طلبي في بيت الطاعة!!

أنا لا أفقه شيئًا عن كل تلك المسائل القانونية إلا ما أراه في التليفزيون وأسمعه من صديقاتي.. لقد زاد الضغط النفسي عليّ، وصرت أفكر فعلاً في الهرب بك مرة أخرى.

ما يسبب لي ضغطًا آخر هو أنني صرت أعاني من الموهبة السوداء بشكل مستمر، وقد كوّنت عنها رأيًا في محاولة مني لوضع قوانين تحكمها..

أولاً، هي مرتبطة بذلك الطفل الغريب ولمسته لي لأول مرة.

ثانيًا، أنا أرى مشاعر الأطفال في ذرواتها، فلا أرى إلا الخوف الشديد أو القلق الشديد أو الغضب الشديد.. أي أنها مرتبطة بشدة المشاعر السلبية..

ثالثًا، هذا الطفل غير مرتبط بمكان فقد رأيته في القاهرة والإسكندرية. في

العيادة وفي داري وفي المدرسة المجاورة، إلا أن وجوده في المدرسة يبعث في نفسي قشعريرة ما..

رابعًا، إنك ترى هذا الطفل، وربما تحبه كذلك، ولكنني لا أعرف إن كنت ترى مشاعر الأطفال الآخرين مثلي، لكنني أرجح أنك لا تفعل لأنك لا تبدي أي اهتمام بتلك التغيرات حين أشاهدها..

خامسًا، أنت ترى شيئًا ما في هذه المدرسة لا أستطيع رؤيته. ربما يكون هو ذلك الطفل، لكن.. من يكون؟!

سادسًا، هذا الطفل شبح أو طيف أو أي شيء غير بشري أو حي، وهو ما يقلقني من وجوده برغم أنه يبدو في صفنا إلى الآن..

سابعًا، ما أراه حقيقي وذو آثار ملموسة وليست أوهامًا.

أخيرًا، لماذا أنا؟ ولماذا أنت؟ ما الجديد أو المميز بنا ويجعل ذلك الطفل يلاحقنا ويجعلني أرى ما أراه ولأي غاية؟!

ابني الحبيب.. من المؤكد أنك تعلم الآن وأنت تقرأ هذه السطور في زمن ما مغزى كل ما يحدث، أما الآن فلا شيء إلا التخبط والحيرة..

******

٢٥ يناير ٢٠١٠

كنتَ اليوم مصابًا بنزلة برد شديدة تجعلك تقيء أي شيء تأكله، وكنت (محتاسة) بك في المكتبة وأحاول إبعادك عن أي شيء يمكن لقيئك أن يلوثه. وكنت أهرع بك إلى الحمام كل نصف ساعة وأنظفك قبل أن تتسخ ملابسك، لكنني انشغلت عنك لحظات مع أحد الزبائن فوجدتك قد اتسخت تمامًا من شعرك

حتى قدميك! لم أدر ما أفعل وليس معي ملابس أخرى لك فضلا عن كون الحمام بالمكتبة لا يحوي إلا حوضًا وليس به مياه ساخنة لأحممك بها.
اتصلت بالسيدة صاحبة المكتبة حاكية لها ما حدث، واستأذنتها لغلق المكتبة والعودة بك إلى الدار لتغيير ملابسك ثم العودة إلى العمل مرة أخرى.

- مدام سكينة.. لن يأخذ مني الموضوع أكثر من نصف ساعة..
فترد عليّ بصوتها العجوز المبحوح
- أنا نازلة لك.. انتظري..

وكانت السيدة تسكن في ذات البناية التي بها المكتبة.. دقائق مرت كساعات وأنت ترتجف بلا انقطاع حتى دخلت السيدة من الباب بعباءتها المنزلية المطرزة والشال على كتفيها. ما إن رأتك حتى رفعت حاجبيها في دهشة..

- كيف ستعودين به وهو في هذه الحالة؟ أفسحي لي.. أفسحي لي..

أفسحت لها، فلفّتك في شالها ورفعتك وخرجت بك وهي تكلمني..

- سأنظفه لك في شقتي ولتكملي أنت عملك.. هيا أيها الشاب الصغير!

شكرتها بصدق وإن لم يكن مجرد شكرها كافيًا بالنسبة لي، إنها بمثابة أمي التي لا أذكرها..

مرت حوالي ثلث ساعة حتى وجدتها عائدة بك ويبدو على وجهها أنها تريد أن تقول شيئًا.. كنت ملفوفًا في قميص مقلم يبدو أنه لابنها أو زوجها. ناولتني إياك وهي تبسمل، وفي يدها الأخرى كانت تحمل كيسًا بلاستيكيًا يحوي ملابسك المتسخة..

- رنا يا ابنتي.. كنت أريد أن أسألك عن شيء، ربما أكون فضولية أكثر من اللازم، وربما أنك تعرفين وسوف تغضبين إن حدثتك في الموضوع، وربما

أنك لا تلحظين فوجب عليّ إخبارك!

لم أدر كما تتكلم.. هل تتحدث عن عريس لي مثلاً، أم... أم أنها رأت الطفل الغريب مع ابني بشكل ما؟!

- يا ابنتي، أعلم أنه أول مولود لك وأعلم مما أخبرتني أنك (مقطوعة من شجرة)، فلا توجد امرأة مسنة مثلي تنصحك أو تبدي لك ملاحظات على ابنك.. الحقيقة... اجلسي يا ابنتي..

جلست، وكنت أحتاج فعلاً إلى هذه الجلسة، غاص قلبي في قدمي وضاعت الكلمات مني.. أغلقت السيدة باب المكتبة الزجاجي وعادت لتجلس أمامي مبتسمة في إحراج..

- تعلمين يا ابنتي أنني أنجبت خمسة شباب، واغفري لي، عندما كنت أحمم ابنك وقع نظري على...

وتناولتك مني وكشفت القميص عن جسدك الصغير..

- آ. آ.. أعتقد يا ابنتي أن آسر لديه مشكلة ما في أعضائه التناسلية.. تبدو لي ضامرة بعض الشيء..

- ضامرة؟ ظننتها صغيرة فقط لأنه صغير.. ما.. ماذا أفعل؟!

- لا تذعري يا ابنتي.. ربما تكون صغيرة فعلاً وأنا أخرف.. لقد مرّ أكثر من خمسة وعشرين عامًا منذ رأيت أعضاء طفل صغير! ربما اختلط عليّ الأمر.. لكن.. استشيري طبيبًا من باب الحرص..

ثم قامت وكأنها ألقت عن كتفيها حملاً ثقيلاً ربما يعود إليها ثانية إذا أطالت البقاء. لكن.. ماذا يعني ذلك؟ هي ليست أول من يذكر هذا الموضوع. لقد ذكرته طبيبتي عقب ولادتك، و لم أهتم حينها، ثم نسيت الأمر تمامًا..

أعتزم أن أصحبك للطبيب غدًا إن شاء الله.. لنرى مسألة القيء أيضًا..

******

٢٦يناير ٢٠١٠

لم أدرِ كم بكيت إلا عندما وجدت صعوبة في رؤية الورقة التي أكتب لك فيها. لقد طمأنني الطبيب على حال معدتك، لكنه نصحني بإجراء أشعة على الحوض؛ للتأكد من شيء ما.. لم يخبرني ما هو، لكن عقلي لن يكف عن التفكير. ماذا بك يا صغيري.. وما درجة خطورته؟! أخشى أنني لا أستطيع الكتابة أكثر من ذلك اليوم..

******

٢٩ يناير ٢٠١٠

.... هل أتصل بوالدك؟ هل أطلب منه مالاً لإجراء تلك التحاليل والأشعة؟ هل سيتهمني بما أنت فيه؟

...... لقد جاءت فواتير الماء والكهرباء وعليّ أن أتدبر أمري...

ساعدني يا رب...

******

٣ فبراير ٢٠١٠

لقد أتى أبوك صباحًا إلى المكتبة حيث أعمل، وكنت أنت تلهو على الأرض بجواري وقتها.

دخل إلى المكان متثاقلاً متعاليًا ولم يخلع حتى نظارته السوداء. الحق أنني قد

شعرت بالخجل مما حدث يوم رأس السنة بالرغم من أنه كان هو المعتدي، لكنه خجل أو شعور بالذنب ينتابني إذا أخذت حقي ممن ظلمني!

- كيف حالك؟

سألني وهو يقلب في كتاب خارجي موضوع على الكاونتر الزجاجي أمامي..

- بخير.. هل أستطيع أن أساعدك؟

- أين آسر؟

نظرت تحت قدمي فوجدت شيئًا كنت أتوقعه - وأتمناه - حقًّا. كنتَ جالسًا تلعب كما أنت وذلك الطفل الأزرق - ولا يتوهج بالأحمر كالمرة الأولى

-يحتضنك من الخلف.. لقد رأيته يفعل ذات الشيء طيلة الشهر الماضي كلما استشعرتُ خطرًا تجاهك..

لكن ماذا أقول له؟ بالتأكيد هو يراقبني كعادته، وقد رآني أدخل المكتبة بك صباحًا. هل سأعتمد على الحظ مرة أخرى وأحاول إقناعه أنك لم تكن معي من البداية؟

- آسر ليس معي، إنه مع منال..

- منذ متى وهو معها؟

- آ.. منذ قليل..

وأوليته ظهري متشاغلة بالبحث عن شيء ما على شاشة الكومبيوتر خلفي. لقد كان زوجي طيلة ستة أعوام وهو يعرفني جيدًا حين أكذب.. المشكلة هي أنني بدأت أدرك أن اختفاءك بهذا الشكل يضعني في موقف أسوأ من كونك

ظاهرًا وأنا أرفضك تسليمك له. هل تفهم ما أعنيه؟ كيف سأستمر في الكذب عليه في كل مرة وهو متأكد من أنك معي؟ سوف يستفزه هذا ولا أعرف سبيلاً لجعل ذلك الطفل الغريب يتركك وشأنك. ربما أحاول أن أتحدث إليه

-الطفل لا أبيك - اليوم إذا وجدت الفرصة..

- أولاً انظري إليّ وأنت تكلمينني، ثانيًا ماذا تعنين بـ (منذ قليل)؟ أنا لم أر أحدًا يدخل أو يخرج حاملاً ابني..

- لا بد أنك غفوت أو انشغلت بشيء للحظات.. الآن، هذا مكان عملي ولا أستطيع الحديث معك في هذه الأمور هنا..

- حسنًا، سآتي لك في شقتك..

- لا! أعني...

- رنا.. أنا أسيطر على أعصابي بصعوبة الآن ولا أدري أي لعبة تلك التي تلعبين معي، لكن ليكن في علمك، أستطيع أن أحيل حياتك جحيمًا إذا واصلتِ إخفاء الولد.. لن يستطيع أولئك البلطجية إنقاذك مني هذه المرة..

- حسنًا.. دعني أرتب الأمر.. سأقابلك غدًا بالولد في حديقة الحيوان.. تعرفها؟

- أعرفها..

ثم طرق بيده على زجاج فاترينة العرض وانصرف..

هنا يا بني نقلت عيني إليك فوجدت الطفل الأزرق يبتعد عنك ويتجه في هدوء نحو الجدار. أشرت إليه منادية بصوت هامس

- يا.. يا بني.. انتظر..

تسمّر مكانه و لم يلتفت إليّ.. اقتربت منه في بطء راجفة، تنثني تحتي ساقاي كأنهما لا عظام فيهما.. أدور حوله حتى أواجهه، ثم أركع على ركبتي أمامه..

- أشكرك على مساعدتك يا بني، لكن كما ترى، إخفاؤك لآسر سيسبب لي مشاكل عظيمة، فأستميحك أن تتركه يظهر غدًا حتى يراه أبوه ويبتعد عنّا.. فهل ستفعل ذلك؟

ظل قلبي يرتجف انفعالاً وأنا أتصور نفسي أكلم شبحًا حقيقيًا أو حتى (كائنًا ما). انتظرت أن يجيب بطريقته و لم اتوقع منه ان يتكلم بفمه المغلق هذا.. ظلّ يحدّق فيّ بعينيه البيضاوين ثم مرّ من خلالي عابرًا الحائط..

في تلك الثواني التي عبر فيها مجتازًا جسدي شعرت ببرودة ورطوبة ملاصقة لجلدي كأنني محاطة بشيء رطب خشن.. وهو الشعور ذاته الذي كنت أشعر به وأنا طفلة عندما كنا نذهب إلى الشاطئ وندفن أجسادنا الصغيرة في الرمال المنداة الباردة..

لا أعلم إن كان سيفي بوعده الذي لم يعده حتى! لا أعلم ماذا سأفعل إن جاء غد ووجدتني مضطرة لتبرير اختفائك مرة أخرى..

******

٤ فبراير ٢٠١٠

لقد كانت الشمس قاسية اليوم برغم برودة الجو، وقد اكتسى وجهك بحمرة مغرية بالعضّ! لقد استحال خداك خوختين ناضجتين حتى كدت ألتهمك وأنا أجول بك في حديقة الحيوان الصغيرة بالإسكندرية.

تعمدتُ ان أصل مبكرة كي أتنزه معك قليلاً قبل ميعادنا، واشتريت لك فِلاً

مطاطيًا صغيرًا منفوخًا بالهواء من أحد الباعة الجائلين أمام المدخل.

كنتَ شجاعًا بحق فلم تخف من أي من تلك الحيوانات بالرغم من أنك لم تر معظمها من قبل حتى على شاشة التليفزيون. كنتُ ممن اقتنعوا أن التلفاز يُنقص من ارتباط الأم بأولادها، وبالعكس، ويقضي على أي مهارات يمكن للأطفال تعلمها عن طريق الاحتكاك المباشر بالبشر الأكبر سنًّا، لذا كانت مشاهداتك مقتصرة على ساعة أو ساعتين على الأكثر يوميًا.

اليوم أجدك اجتماعيًا بشكل كبير، قوي الملاحظة حتى إنك قلّدت ببراعة -بالنسبة لسنك- مخارج حروفي حين أنطق أسماء الحيوانات أمامك، بل وحاولت تقليد أصوات بعضها كذلك.

إلا أنني شردت مرة أخرى في مسألة مرضك هذا.. هل أخبر والدك؟ هل أتصرف وحدي؟

جلسنا سويًا ننتظر والدك بعد أن حدثته من هاتف عمومي فأخبرني أنه على وشك الوصول. أتابع بعيني الأطفال هنا وهناك.. أرى القليل منهم في حالات من الغضب أو الثورة، لكن أغلبهم سعداء فلا أرى لهم أي ألوان أو هالات حولهم..

لفت نظري شيء لم أره من قبل، كان الطفل الأزرق يقف في داخل قفص للببغاوات الكبيرة وقد استحال أحمر اللون، يمسك بكلتا قبضتيه القضبان الحديدية ويهزها، ثم ينظر في اتجاهنا ويشير إلى الاتجاه المعاكس.

من الناحية التي أشار إليها أرى رحلة مدرسية لأطفال في المرحلة الابتدائية.. على ملامحهم الخارجية تبدو سعادة متوجسة بعض الشيء، يمكن أن أصفها بسعادة التلميذ بالرغم من وجود المدرس إلى جواره.. أما ما أراه بموهبتي السوداء فهو شيء جديد تمامًا وخارج تصنيفي.

كان الأطفال مربوطين من أذرعتهم وسيقانهم بخيوط تشبه خيوط دمى الماريونيت لكنها شفافة لها طابع دخاني، تتجه إلى أعلى قليلاً ثم تتجمع كلها في يد المدرّسة القاسية. كان الأطفال يعثون الشرر في كل اتجاه ومعظمه تجاه تلك المدرّسة، على وجوههم تعبير استسلام تام.. أعينهم مصمتة لا تطرف، أفواههم مغلقة، يسيرون كأنهم مرغمون، وتنتقل أقدامهم خطوة بخطوة كلما انجذب الخيط لأعلى ثم ارتخى..

كنتَ تنظر إليهم وقد اختفت الابتسامة من على وجهك. أنت تراهم إذن؟! بينما يعبر الأطفال أمام قفص الببغاء الذي يقف فيه الطفل الغامض، يرتفع هذا الأخير عن الأرض محلقًا في سماء القفص، ضاربًا برأسه كل زاوية فيه كأنه يعذب، يهز رأسه في سرعة خارقة يمنة ويسرة كأنه يقول (لا) أبدية شيطانية..

– آسر! أخيرًا!!

أفزع وألتفت لأجده أباك وقد حمل كيسًا ملونًا ضخمًا يعجّ بالألعاب والحلوى. تتقافز عيناي بينه وبين الطفل الغريب لا أدري كيف أركز في كلا الأمرين سويًا..

يحملك في حنان صادق وتشعر أنت به فتحتضنه.. يبدو عدم التصديق على وجهه وكأنه لم يكن يتصور هذا الاستقبال الحاني منك..

لا أذكر أي شيء مما فعلته مع والدك، لكنه لم يبتعد بك عن ناظري، إلا أنني كنت سعيدة لنجاح محاولتي للتواصل مع الولد الغامض، وخائفة من معنى ما أراه الآن عليه وعلى الأطفال الآخرين..

تمر مجموعة الأطفال من أمامي فأحسّ بقشعريرة قوية؛ إذ أجد وجوه الأطفال تلتفت كلها نحوك، حتى عندما أصبحتَ خلفهم أجد أعناقهم قد التفّت مائة

وثمانين درجة للخلف ومازالت أعينهم معلقة بك..

أجد أيضًا أن خطواتهم قد بطؤت بعض الشيء، فانجذبت الخيوط في يد المدرسة التي التفتت إليهم محدقة ثم نقلت بصرها إليك فتبدّى الغضب الوحشي على وجهها. جذبت أطراف الخيوط بشدة حول كفها فتألم الصغار وانصرف نظرهم عنك إلى عذابهم الخاص.

كان أبوك يحملك ويشير إلى مجموعة الأطفال ضاحكًا ويخبرك بأمنياته أن يراك مثلهم.. كبيرًا، تذهب إلى المدرسة، وتشاكس زملاءك..

وجدت أباك يتجه إليّ وقد بدت الجدية مرة أخرى على وجهه. جلس إلى جواري وقد لاحظ شرودي..

- رنا.. ما بك؟ هل تريدين حمل آسر قليلاً؟

- هه؟ بالطبع..

وأجلسك على فخذي وقد قررت الحديث عن أي شيء حتى لا أفكر في ما رأيته، خاصة وأن الطفل الغامض قد اختفي الآن..

- زين.. كنت أريد أن أخبرك شيئًا لكن رجاءً لا تتهمني بالإهمال أو التقصير..

وشرعت أحكي له عن مرضك ورغبتي في إجراء التحاليل التي أمر بها الطبيب. كنت أرى في عينيه ثورة يجاهد كي يستبقيها بداخله.. لكنني لا أعلم أهي غضب مني، أم ذعر على حالتك، أم ماذا؟

- وهكذا أخبرني الطبيب أنه.. أنه ربما يكون آسر أنثى داخليًا، وإذا تأكدنا عن طريق التحاليل من هذا فهو ينصح بإجراء عملية لتعديل الجنس قبل أن يتم ١٨

شهرًا.. قرأت أيضًا أن الطفل يكوّن هويته الجنسية بعد هذه الفترة وإجراء أي عمليات بعد سن عام ونصف قد يهدد سلامته النف...

– أنت وقراءاتك! تقولين إن ابني أنثى؟! دعيني أخبرك شيئًا، إن كانت هذه حيلة لتحويله أنثى كي لا أضمه إلى حضانتي فأنت ساذجة.. تعر...

أقاطعه في هدوء غير مسبوق بالنسبة لي

– زين، يمكنك اصطحابه إلى أي طبيب تشاء.. تعرف أن التأكد من هذا سهل..

كان يعلم أنني لا أكذب في هذا الصدد، لكنه كان يبحث عن أي خطأ لي يبرر انفعال طال كتمانه داخله. إلى جانب ذلك، كيف لم ألحظ موضوع الحضانة هذا؟! هل أراد الله أن يمنحني مخرجًا غير متوقع بهذه الطريقة؟

وكعادة والدك إذا انفعل، ارتدى نظارته السوداء وأخذ يعبث في هاتفه. بعد هنيهة أخبرني أنه سيرحل، وسيتصل بي على رقم النقال الخاص بي الذي أعطيته له؛ لنتدبر أمر الطبيب..

راقبته وهو يخرج إلى سيارته الواقفة أمام الحديقة، ولدهشتي وجدت الطفل الأزرق الغامض يركب في الكرسي الجانبي ثم يلف وجهه إلينا ويغمز بعينه! وترحل السيارة إلى القاهرة...

******

٥ فبراير ٢٠١٠

....

.... وتلك أشياء تحدث. لكن لم يتصل بي أبوك حتى الآن..

******

٧ فبراير ٢٠١٠

.... هل أتصل أنا به؟ أشعر بالقلق من كون ذلك الطفل قد ركب معه.. أتراه قد تخلص من أبيك؟!!! حل جذري أكثر من اللازم..

******

١٠ فبراير ٢٠١٠

اتصلت منذ قليل بأبيك فردّ عليّ منهكًا.. إلا أن مجرد سماع صوته حيًا قد أراحني إلى حد كبير.

– آ.. لقد قلقت عندما لم تتصل كما وعدتني..

– آسف يا رنا... لا أدري ما دهاني.. إن الصداع لا يفارقني، وأرى... أعني.. أتخيل وأسمع أشياء لا وجود لها.. ذهبت إلى طبيب لكنه لم يجد شيئًا عضويًا.. أتراه لم يفحصني بشكل مدقق؟

لم أدرِ كيف أردّ إلا أنني كنت أغالب سؤالاً عن كنه الذي يراه.. هل يرى طفلاً أزرق مخاط الفم؟! هل سيمتلك موهبتي السوداء هو الآخر أم أن الطفل يقوده فقط للجنون؟!

بالطبع كنت خواطري ولم أذكره بموضوع طبيبك. فلأصبر قليلا ريثما يطمئن على صحته..

******

١٤ فبراير ٢٠١٠

يتوافد المراهقون إلى المكتبة في مثل ذلك اليوم سنويًا ماسحين الأرفف مما عليها من (دباديب) وكروت وأقراص مدمجة لمطربين بأعينهم، محيلين الكون تدريجيًا إلى بقعة حمراء كبيرة..

ولأصارحك يا بني، هذا جيل لا يخلو من تفاهة وفراغ ذهن. فمن بين الهدايا في الكون لا يختارون إلا شيئًا واحدًا عديم القيمة والتميز ألا وهو دمية الدب ذات الفراء. لا أعلم إلامَ ترمز أو علامَ تدل، أو كيف تشعر الفتاة بالتميز إذا أهديت هدية لا تعبر عن أي شيء فيها كهذه؟!

مجرد قالب آخر وضعوه للاحتفال بيوم الحب الذي بحت أصوات العقلاء في التصريح بأنه مجرد يوم للاحتفال بالقديس فالنتاين الذي كان يشجع العلاقات غير المشروعة وهروب الفتيات مع الفتية أصدقائهن تحت راية الحب. وهناك يوم مصري للحب في نوفمبر، لكنه جيل قد تم برمجة عقله كي يفكر بأسلوب العقل الواحد والأقدام الكثيرة، فلا عيد إلا العيد الغربي بطقوسه الباهتة. عقلهم غذي على ثقافة المواعدة، والمدارس الثانوية المشتركة، وهانا مونتانا، وهاي سكول ميوزيكال، عقل يحرك ملايين السيقان في كافة البلدان في اتجاه واحد لا يمتّ إلى ثقافته ولا إلى عقله بصلة.

أجد الفتية والفتيات كالمغيبين بعيون زجاجية تمسح الفتارين عن أي رمز غربي أو منحرف أو أجوف لشرائه دون تفكير في مغزى ذلك كله.

إن الثقافة الغربية باهرة بحق ككل وكوحدة واحدة. ثقافة لا بد من إدراك جمالها في بيئتها مع انتزاع ما ينافي الأخلاق منها. لكن كل ما نفعله نحن كمسؤولين عن جيل من الأطفال والمراهقين والشباب هو استيراد ثقافة مجوفة تبدو أنيقة براقة واعدة من الخارج بينما تحوي داخلها الخواء ذاته.

نعم يا بني، نحن نسمح بجلب هذا كله لعقول أبنائنا ولا دخل للغرب فيما وصلنا له الآن. تخيل معي مثلاً يا بني إن الغرب كائن ضخم براق شرير ونحن - أولياء الأمور - ندرك هذا جيدًا. الكائن بطبيعته يريد التهام المزيد من العقول، هذه هي قوانينه الخاصة التي يحيا بها. فماذا فعلنا نحن؟ أغلقنا كافة الأبواب والنوافذ على أبنائنا كي لا يروا المسخ، وبالتالي لا يراهم هو، لكننا دفناهم أحياء في الظلمات، ولم نجلب لهم ما يؤنس وحشتهم ويصرف انتباههم عن الوحش البراق في الخارج، فصار شغل أبنائنا الشاغل هو كيفية الفرار لرؤية الكائن؟ ترى ما شكله؟ بالتأكيد هو أفضل من الظلام واللاشيء الذي حبسنا عقولهم فيه.

على النقيض هناك آباء تركوا أولادهم ليستكشفوا الوحش بطريقتهم دون أي سلاح يرتكنون إليه. لم يعد في وسع الأبناء إلا الانجراف وراء الوحش الجذاب، فلِمَ يعودون إلى ديارهم إن كانت فارغة مملة؟ لِمَ يقاتلون إن لم تكن ثمة قيمة ما يقاتلون من أجلها؟

هل تفهمني الآن يا بني؟ ما ذنب الوحش في كونه وحشًا؟! كان نتاج إهمالنا كل تلك الأعوام هو أجيال من الدمى تسير وفقًا لما يريده أي شخص إلا هم. والأكثر ظرفًا هو ترسيخنا لمبادئ الطاعة العمياء في أولادنا وكأنما ينقصهم قلة الإرادة أيضًا. الطاعة العمياء والقمع هي أكثر الأساليب التربوية سهولة وفعالية في التحكم في الأطفال كقطيع، ومن ثم نوفر وقتنا لتفاهات أخرى ظانين أن خيوط الدمى التي نتحكم فيها من خلالها لن تلتف حول أعناقنا يوم ما.

القلة النادرة يا بني من الشباب والمراهقين الأصحاء فعلاً تلاقي هجومًا شديدًا من الكبار والصغار على اعتبارهم (FREAKS) على الطريقة الأمريكية؛ وهي لفظة تعني لغويًا غريب الأطوار وتعني فعليًا الأشخاص المثقفين ذوي النظارات الطبية والمهتمين بالعلم أو الدين. كما تعني أيضًا الفتيات النقيات العذراوات، وكل ما هو مستقيم في الدنيا فهو - من وجهة نظرهم - غريبًا شاذًا مرفوضًا!

أدرك الآن - فجأة - الجحيم الذي كنت ألحّ كي أجلبك إليه، أدعو الله أن يساعدني كي أريك غريب الأطوار، على أن تصبح دمية أخرى في يد أي شخص حتى إن كنت أنا شخصيًا..

لاحظت الآن وأنا أكتب إليك أن هؤلاء الفتية والفتيات الذين امتلأت بهم الشوارع اليوم أشبه بأولئك الأطفال الذين رأيتهم في حديقة الحيوان. إلا أنني أفقد موهبتي السوداء مع من هم في سن المراهقة ومن هم أكبر فلا أعرف حقًا ماذا أصاب أولئك الشباب.. من محركم؟ أم هم استحالوا دمى بإرادتهم الخاصة الآن ولا محرك لهم إلا عقولهم الخاوية؟

تلك الموهبة أصبحت تصيبني بنوبات اكتئاب عنيفة أرى من خلالها حقائق أتمنى ألا أراها ومستقبلاً غامضًا على ضوئها أكره أن أتركك فيه يا بني..

لقد كنت دومًا واحدة من غريبي الأطوار رغم كوني لا أنتمي إليهم فعليًا، لم أكن يومًا مثقفة بشكل لافت أو ذات مواقف تنم عن شخصية قوية، لكنني كنت أعرف الخطأ حين أراه وأحاول جاهدة ألا أتبعه، كانت معظم محاولاتي فاشلة إلا أنني مازلت أحاول، مازلت أحاول حتى في تربيتك. لم أكن مميزة لكنني لم أكن خاوية مثلهم، وقد تمنيت أن أصبح مثلهم.. خاوية الفكر، إذ ربما أرتاح من هدير عقلي المستمر وتحليلاته التي لا تنتهي لكل كبيرة وصغيرة

تقع عليها عيناي.
أعترف بفشلي كزوجة، ربما لكوني فاشلة حقًا، ربما لكون أبيك واحدًا آخر من الدمى، ربما لأن الزواج الآن لا يخضع لمقاييس الماضي التي رباني عليها أبي.
قرأت رأيًا راقني لكاتب شهير يقول فيه إن الرجل يحب أن تكون زوجته خليطًا من الزوجة والصديقة وممثلة السينما الحسناء. أرى أن الوضع الآن غدا أكثر تعقيدًا؛ فالزوجة والصديقة والممثلة الحسناء أمور يمكن تدبرها، لكن أنّى لأي زوجة أن تكون كل هذا وتصدّ أيضًا عن زوجها سيل النساء الشقراء والسمراء والصفراء ومحترفات العلاقات الجنسية والنساء المصنوعات حسب الطلب.. وكل هذا على الطريقة الغربية؟ لقد أصبح كل هذا متاح للرجال عبر التلفاز والهاتف والبلوتوث والإنترنت وربما عبر الهواء أيضًا، فبأي معجزة تنجح في إمالة كفتها؟!
هاهاها.. أجدني بين الحين والآخر أبرر فشلي أمامك بطريقة مزرية!! أعلم أنني غير محقة في معظم تبريراتي لكنني أعلم يا بني أنه لن تتاح لي فرصة الحديث بهذه الحرية والدفاع عن نفسي أمامك إلا من خلال هذه السطور..
أنا منهكة تمامًا اليوم، سأتصل بأبيك غدًا لأرى ما آل إليه مرضه.. أحبك يا صغيري..

******

١٦ فبراير ٢٠١٠

لقد دخل أبوك في دوامة الشك في قواه العقلية إلا أن طبيبًا ما حاول طمأنته بأن ما يمر به هو مجرد أعراض لورم خبيث في المخ!!

هكذا أظنه سيحتاج عدة أشهر من الفحوص داخل مصر وخارجها كي يتأكد من أنه لا شيء به، وأن عليه المتابعة مع طبيب نفسي..

لا أدري إن كان علي إخباره بكون هذا الطفل الغامض هو سبب معاناته، لا أجد الجرأة لهذا في الواقع.. سأدعه يكتشف ذلك بالطريقة الصعبة، وبذلك ينشغل عنك قليلاً، إلا أنني كنت أريد مالاً كي أجري تلك التحاليل لك.. ربما أقترضه من السيدة سكينة على أن تخصمه من راتبي على دفعات..

دعني الآن أحكي لك قصة من قصص القرآن قبل نومك...

******

١٧ فبراير ٢٠١٠

الساعة قد تجاوزت الحادية عشرة مساء وقد عدت، أنا وأنت، من منزل السيدة سكينة وقد تحوّل عقلي إلى قطعة من الليف. لم أعد أدري ماذا يحدث ولأي غرض.

ولأوضح لك، بعد انتهاء فترة عملي اليوم توجهت إلى دار منال وتناولت معها غداء خفيفًا، وحكيت لها أحداث الفترة الماضية، لكنني لم أخبرها بحاجتي للمال؛ إذ إنني أعلم أنها قد تقتطع من قوت أولادها من أجلي، وأعلم ضيق ذات يدها، فأنهيت حواري معها بأنني في انتظار شفاء أبيك كي نبدأ فحوصاتك.

بعد أن غادرت منزل منال توجهت إلى منزل السيدة سكينة مرة أخرى؛ إذ إنني كنت بحاجة إلى الحديث و(الفضفضة) قليلاً قبل أن أصارحها بطلبي. لا أريد البكاء أمامها أو إبداء الضعف لأي شخص قد يرفض إقراضي.

دققت بابها وأنا أسمع ضوضاء من الداخل. إنها المرة الأولى التي أزورها فيها

في منزلها. انتظرت دقائق ثم فتح لي شاب لا بد أنه ابنها الأصغر. كان يرتدي قميصًا بنيًا ابيضّ كوعه وأسورته اليمنى، فسّر لي ذلك البياض أصبع الطبشور الذي كان يقبض عليه بين أنامله.

– مدام سكينة موجودة؟

– نعم، أنت مدام رنا التي تعمل معها في المكتبة؟ تفضلي!

وابتسم وأفسح لي فدخلت وصوت ضوضاء أطفال تتعالى.. أشار لي أن أجلس في الصالون، واستأذن أن يكمل الدرس الخاص الذي يعطيه لبعض الطلبة في حجرة السفرة..

كنت أختلس النظر إلى ما تبدّى لي من حجرة السفرة. كنت أرى الآن جزءًا من ظهره وأرى الطلبة الذين هم في سنة ما من المرحلة الابتدائية.

كانوا مصدر الصخب والمزاح، وقد بدت على وجوههم راحة ما اختفت ما إن دخل رمزي – ابن السيدة سكينة – وبدا على كل منهم ذلك الخيال الضبابي الأزرق الذي يعني لي أن موهبتي السوداء قيد التفعيل.

كنت أرى ذلك التعبير على وجوههم الزرقاء، النظرة الخاوية والوجه الجامد الخشبي إلى حد كبير، ومن أطراف كل منهم تصاعد خيط دخاني أبيض مدّ رمزي يده في الهواء لالتقاطه..

كان يشرح بالإنجليزية بأسلوب غير مفهوم يتخلله العجلة والنظر إلى ساعته كل دقيقتين.

وضعتك على الكرسي وتسللت على أطراف أصابعي لألقي نظرة أفضل على مجموعة الطلبة. بطرف عيني أرى خيال السيدة سكينة في غرفة نومها المضاءة تروح وتغدو.. بدا لي مع اقترابي أكثر مجموعة أخرى من الطلبة من خلف

الجدار، زادت دهشتي عندما رأيت فتاة سمراء ضئيلة الحجم تشبه النوبيين يظللها ذلك الضباب الأزرق، لكنني أرى خيالها الضبابي الأزرق يتوهج وينطفئ في تذبذب مزعج، وعلى وجهها الأصلي أرى ذكاء لا شك فيه يجعل ظلها الضبابي مجرد نسخة أخرى باهتة لها، لكنه لا يملك ذلك الشكل الخشبي أو النظرة الخاوية.

أسمع رمزي يشرح - أو لا يشرح للدقة - في عجلة، بينما تمسك الفتاة بالخيوط التي تجذبها إليه فتمزقها برقة فتتلاشى الخيوط كالدخان، إلا أنها تعاود التجمع ببطء مرة أخرى.

رفعت الفتاة يدها طالبة الحديث، وفي زجاج الشرفة خلفها أرى انعكاس رمزي بشكل غير واضح..

- أستاذ رمزي.. تقول إن الكواكب في المجموعة الشمسية تسعة بينما أذكر في حصة الدين أن نبي الله يوسف قال إنه رأى أحد عشر كوكبًا.. فأيهم الأصح؟!

سؤال بسيط طفولي؛ إذ من الواضح أن من يدرّس لهم التربية الدينية لم يفسر لهم معنى الآية، وأن الأحد عشر كوكبًا يرمزون إلى أخوة يوسف عليه السلام وليس إلى الحقيقة الكونية. هذا بالإضافة إلى أن العلماء اكتشفوا مؤخرًا كوكبين إضافيين بعد استبعاد كوكب بلوتو من قائمة الكواكب.. إذن فلا شيء مؤكد حتى الآن! فلأنظر بمَ سيجيب رمزي..

أرى انعكاس رمزي يرفع يده بحركة غير مفهومة، لكن لمن يملك موهبتي أرى أن الخيط في يده يلتف حول عنق الفتاة.. يجذب الخيط بقوة فأرى الضباب المحيط بالفتاة يكف عن التذبذب ويتخذ شكل الدمية الخشبية بشكل مخيف. يجاهد ضباب الفتاة كي يتحرر لكن قبضة رمزي كانت قوية بحق..

- رشا.. حذرتك من قبل من استخدام اللغة العربية أثناء الدرس، ثم لم لا تكفي عن الأسئلة الغبية وتركزي فيما يقال؟ لن تستفيدي شيئًا من سؤالك هذا، كما أنك تضيعين وقت زملائك الذين يريدون الاستفادة الحقة.. احفظي ما أمليه عليكِ فهذا هو المنهج، ومنه سيأتي الامتحان..

كان شديد اللهجة وكأنها سبته مثلاً.. ومع جذبه لخيوط الطلبة أخذوا في الهمهمة وإعلان امتعاضهم من غباء سؤالها!

- رنا! أهلاً يا ابنتي!

ينتابني الارتباك وأنا واقفة على باب الصالون في وضع المتنصت بلا تفسير.. أبتسم في ارتباك وأحاول تبرير موقفي..

- أهلاً يا سيدتي.. آ.. خيل لي أن أحدهم ينادي عليّ.. هل كنتِ تنادينني؟!!!

- لا يا حبيبتي.. ربما هي ضوضاء الأطفال في الدرس.. الطلبة يأتون لرمزي من كافة المدارس كي يعطيهم دروسًا خاصة، سمعته جيدة في هذا الصدد.. تفضلي..

أجلس وأنا أتنفس الصعداء وأحاول ألا أختلس النظر أكثر إلى الطلبة.. جلسنا نثرثر في افتعال لدقائق، ثم وجدت أنني لا بد أن أطلب مطلبي الآن.. حكيت لها كل شيء، وطلبت منها مبلغ خمسمائة جنيه للتحاليل والأشعة..

بدا عليها الترحاب بالفكرة، وهمت أن تردّ لولا أنني رأيت الطفل الغامض إياه يتجسد من الكرسي الذي تجلس عليه ويسند رأسه على رأسها من الخلف.. في ثوانٍ تبدل وجهها وقطبت..

-.. رنا.. من الصعب إقراضك كل هذا المبلغ، واعذريني؛ فإن راتبك كله

أربعمائة جنيه تكفيك بالكاد، فإذا خصمت منها مبلغ ٥٠ جنيهًا شهريًا فستضطرين إلى الاقتراض مني مرة أخرى لسد مصاريفك، أما لو خصمت مبلغًا أقل فمعناه أني لن أسترد نقودي وأنا حية! ثم إن مرض ابنك غير خطير ويمكن تأجيله ريثما تدبرين المبلغ من أبيه..

ثم صمتت معلنة انتهاء اللقاء. أرى الطفل اللعين يتركها ويبتسم ابتسامة صفراء يختفي بعدها. أشكرها وأقوم مرتجفة من الإحراج والحيرة. ألقي نظرة أخيرة على حجرة السفرة التي تبدت لي كلها من مكاني على الباب فأرى ضباب الطفلة رشا يمد يده إلي مستغيثًا ثم فجأة تظهر رأس رمزي من الباب تنظر لي في حدة كأنه رأى استغاثة الطفلة بي.. أصفع الباب خلفي وأهرول بك حتى باب شقتنا..

لا أعلم يا بني كيف مرت علينا ربع ساعة من الهرولة تسابقت فيها في ذاكرتي لقطات مما رأيته عند السيدة سكينة.. رشا، الخيط الملتف حول عنقها، الطفل الغامض اللعين الذي جعل السيدة الطيبة ترفض طلبي، وأخيرًا رمزي الذي بدا وكأنه يعلم سري الصغير..

الآن فقط وأنا نائمة على سريرنا القرصاني يتراقص في ذهني هاجس ما.. ترى هل أشارت الطفلة لي أم لك؟!!!

******

٢١ مارس ٢٠١٠

أول عيد للأم لي وأنا أم فعلاً! أجدك تعطيني اليوم كرة من كراتك الملونة وأنا بعد نائمة، فأستيقظ على وجهك الضاحك!

نتوجه معًا إلى المكتبة وأرى ما يحدث في عيد الحب يتكرر مجددا.. كتائب من الأطفال يأتون حاملين مصروفهم الصغير لشراء هدايا بلا معنى لأمهاتهم.. مجرد عادة أجد خير منها أن يكتب كل طفل خطاب لوالدته بخطه الممموج الحبيب بدلاً من شراء تلك الخطابات أو شهادات التقدير الجاهزة الباردة.. إلا أنني تذكرت إحدي صديقاتي عندما صنعت لها ابنتها الصغيرة بطاقة معايدة بأوراق مقصوصة من عبوات البطاطس المقلية الملونة البراقة، هدية غير متقنة لكنها تحمل الحب ذاته بين أوراقها الملتصقة ببعضها. نظرت إليها صديقتي ثم ألقت البطاقة جانبًا بلا اكتراث وغمغمت بشيء يشبه (هذا هو ما أفلحت فيه؟ إذا ادخرتي ثمن تلك الأكياس من البطاطس واشتريتي لي شيئًا محترمًا، ألن يكون ذلك أفضل لي ولك بدلاً من "بهدلة" المناضد باللاصق والأرضيات بالورق؟)، من يومها و لم تمسك الطفلة بورقة أو بقلم تلوين، وهجرت كل أنواع الفنون لتصير واحدة أخرى ممن يشترون طاقم الأكواب الزجاجية القبيحة إياه أو البطاقات الجاهزة الغبية..

لشد ما تؤثر الكلمة أو تعبير الوجه في الأطفال.. مجرد كلمة قد تغير مسار حياتهم للأبد..

ما زال أبوك مريضًا لا أعلم متى ستتحسن صحته، أشعر بالشفقة عليه.. هل تعتقد فعلاً أن النساء أكثر قدرة على التعايش مع الهلاوس؟ أم أنني مررت بمرحلة الذعر ذاتها حتى تأقلمت مع الوضع؟

كنت مشغولة بين بيع بطاقات عيد الأم ودمى الدببة الصغيرة حين دخل رمزي ابن السيدة سكينة من الباب..

كانت الساعة الثالثة تقريبًا ويبدو من ملابسه أنه خرج من المدرسة حيث يعمل لتوّه. لا أعلم في أي مدرسة يعمل، و لم أره من يوم أن ذهبت إلى منزل والدته

إلا لمامًا، لكنني لاحظت أنه يتسكع حول المكتبة كثيرًا، وكما حكيت لك فقد قابلناه - أنا وأنت - ((صدفة؟)) في السوق مرة، وعند السوبر ماركت الكبير الذي أنزهك فيه مرة أخرى. لقد أبدى يومها اهتمامًا خاصًا بك وأنت تركب عربة انتقاء البضائع الشبكية هناك وتصفق وتضحك كلما دفعتك بها. أعرب عن دهشته لذكائك، لكنك كنت محايدًا تمامًا تجاهه. لم يغب عن عيناي لحظة يا بني ما فعله مع تلك الفتاة رشا ولا أعلم إلامَ يشير..

اليوم دخل المكتبة وفي يده كيس بلاستيكي تتصاعد منه رائحة شهية. ابتسم وألقى السلام.. كان يبدو لطيفًا بريئًا عاديًا وليس من النوع الذي يلفّ الخيوط الدخانية حول أعناق الأطفال..

- ك ك ك كيف حالك يا م م مدام رنا؟ لقد شعرت بجوع ش ش شديد في طريقي إلى المنزل، وكنت أعلم أنه لا غداء لي اليوم..

لم أكن أعلم أن به عيب في نطق الحروف إلا حين قابلته أول مرة خارج منزله في السوق.. لعثمة واضحة برغم أنه كان يتكلم بطلاقة مع الطلبة، ربما هو الارتباك؟ بدأ في فك كيس الشطائر وأذناه محمرتان. كتمت ضحكة داخلي تلحّ علي كلما رأيت شابًا مازال يملك حمرة الخجل.. ليست سخرية يا بني وإنما نفس الضحكة التي أطلقها كلما رأيت في التلفاز كائنًا منقرضًا!

- أ أ أمي في المقابر اليوم تزور ق ق قبر والدتها.. عادة سخيفة تحرص عليها في عيد الأم لا يصيبني م م منها إلا الجوع!

ويمد يده لي بشطيرة دجاج مقلي. أتناولها منه شاكرة وأنا بعد مشغولة باحمرار أذنيه والعرق المتصبب منه..

- هاهاها.. أحيانًا أتصور أ أ أن أمي هي بداية الجنس الأنثوي ولا أتخيل لها أ أ أمًا أبدًا.. هاهاها..

ارتباك واضح في كلامه قرر بعدها أن يملأ فمه من شطيرته كي يكّف عن الهراء. تذكر أنني لا آكل فشجعني..

- بسم الله! هناك المزيد! لقد ابتعت لك ش ش شطائر، ولن تأكلي نصيبي إذا أكلتيها!

بدأت في الأكل فقد كنت جائعة ومنظر الطعام ورائحته شهية جدًا.. خلال خمس دقائق ابتلع ثلاث شطائر على عجل وتجشأ في كفه ثم جلس ينظر إلي من طرف عينه.. أحيانًا كان يمد يدًا مداعبة لك لكنني أشعر أن الهدف هو رؤيتي أنا.. ماذا يريد؟ هل لذلك علاقة بما حدث في منزله؟ لكنه يبدو لي مختلفًا جدًا عن ذلك الشاب المخيف الذي رمقني من باب حجرة السفرة يومها.. شاب عادي أميل إلى البراءة..
اخذ يبحث في جيوبه في توتر للحظات ثم تناول حقيبته وأخذ يبحث فيها.. بدا عليه القلق..

- هل تبحث عن شيء يا أستاذ رمزي؟

-ها ها هاتفي المحمول.. هل نسيته في المدرسة أم سقط؟ لقد أجريت منه مكالمة عند محل الشطائر.. س س سرق؟! ! أأأ.. هل يوجد هاتف هنا؟

أعلم أنه يعلم أنه لا يوجد هنا هاتف مباشر. مجرد سماعة أتحدث بها مع السيدة سكينة إذا أرادت شيئًا وهي في شقتها.. بحث بعينيه قليلاً ثم أشار إلى هاتفي المحمول..

- هل.. احم.. هل به را را رصيد؟ هل أستطيع أن أتصل برقمي منه؟

كدت أرفض لكن شيئًا دفع رأسي لهزها موافقة.. مد يده وضغط الأزرار في سرعة.. ثوانٍ وكان هاتفه يرن في جيب سترته الخفيفة..

أعطاني هاتفي وأخرج هاتفه من جيبه في ارتباك ولم يعلق.. لست ابنة البارحة يا بني، وامرأة في الثانية والثلاثين لن تبتلع حيلة مراهقة كتلك.. حيلة لمعرفة رقم هاتفي وإعطائي رقمه.. لكن لأي غرض؟

أخذت أبحث حولي عن الطفل الغامض؛ فوجوده يعني خطرًا عليك، لكنني لم أجده.. هل الخطر عليّ أنا إذن أم أنه لا خطر هناك؟ مجرد معجب؟!

قام ولملم أشياءه واستودعني الله وخرج في سرعة خفيض الرأس..

هل تعلم يا بني ما معنى هذا؟!

******

٢٧ مارس ٢٠١٠

لا أعلم حتى إلى أين ستنتهي تلك الزيارات من رمزي في .... المكتبة وأنا لا أعرف ماذا يريد من أحاديثه المبعثرة، أو متى سيبدأ في استعمال رقمي الذي أخذه بالخدعة.. يا ليته يفعل فأجد ذريعة لنهره أو سؤاله بشكل واضح عما يريد مباشرة..

تعلم يا بني أن المطلقة هي أنثى من الدرجة الثانية يفترض فيها الناس البغي قبل أن يفترضوا الشرف.. هو لن يحبني بالتأكيد؛ فالعالم مليء بالعذراوات اللاتي يفترض فيهن الناس الشرف قبل أن يفترضوا البغي.. وإن أحبني، هل سيتزوجني؟ من رابع المستحيلات أن توافق أمه أو أي ممن حوله أن يتزوج مطلقة معها طفل، بل وأكبر منه بعدة أعوام، هذا بالإضافة إلى أنني لست مطلقة فعليًا!

ترى يا بني أن حياة المرأة محفوفة بالشراك على كل جانب، وأفضل وضع للمرأة هو أن تظل عذراء بين السادسة عشرة والعشرين، وهو وضع لا يمر

بالمرأة إلا مرة واحدة كما تعلم ومن المستحيل الاحتفاظ به..

إن تزوجت المرأة وطُلقت فهي آثمة، أو ضبطها زوجها مع عشيقها ثلاث مرات على الأقل حتى طلقها، فلا ينبغي لأحد أن يتزوجها مرة أخرى، حتى ذلك الرجل الذي ضبطته زوجته مع عشيقاته الثلاث عشرة مرة..

وإن تزوجت المرأة ومات عنها زوجها فلن يتزوجها أحد أيضًا؛ لأنها ربما قتلت زوجها، أو تسببت له في جلطة، أو على اقل تقدير فإنها نحس (قصفت) عمره مبكرًا عن عمر لم يتعدَّ السبعين، وبذلك فإن الرجل اللطيف الأرمل الذي ماتت عنه زوجته عن عمر لم يتعدَّ العشرين لا بد لنا من الوقوف بجانبه في فاجعته وتزويجه فتاة عذراء أصغر منها (هنبقى إحنا والزمن عليه؟!)!

حسنًا يا حبيبي ليس الوضع بهذا السوء فلا تبتئس، لكنه قريب جدًّا من ذلك!..

فقط حاول أن تكون مختلفًا ولا تحمل أحكامًا مسبقة ضد الآخرين..

لقد بدأت في أن أطعمك اليوم بعضًا من الـ.......................

******

١ أبريل ٢٠١٠

أنا مريضة جدًّا.... لا أستطيع الحركة ولا التنفس...

******

٢ أبريل ٢٠١٠

أكاد لا أرى الصفحة أمامي لكنني أود أن أكتب لك أنني أعتذر إن توقفت الآن عن إطعامك والـ... تسبب في أي... منال.... كارت شحن....

******

١٠ أبريل ٢٠١٠

اليوم أكاد أتنفس بطريقة طبيعية.. أجلس على فراشي في مستشفى الحميات وقد أخذتك منال عندها بعد إصابتي بفيروس أنفلونزا شديد.. لا ليس أنفلونزا طيور أو خنازير لكنه شيء ما مما يحمله طلبة المدارس يوميًا إلى المكتبة الصغيرة السيئة التهوية..

في اليوم التالي لإصابتي بالفيروس اللعين حاولت التحامل على نفسي والذهاب لجارتي بثينة لكنني سقطت بعد أن حاولت الاتصال بمنال فلم أجد لديّ رصيد..

كنت أعلم أنك تكاد تهلك جوعًا لكنك كنت جالسًا بجواري واضعًا خدك الصغير فوق خدي وتداعب رأسي بكفك.. عندما سقطت كدت أموت خشية عليك؛ إذ ربما تحاول النزول من سريرك العالي لتلحق بي.. لكن كل ما فعلته أنت هو الانبطاح على بطنك والتلويح لي من خلف سور سفينة القراصنة فشعرت - مع حرارة الحمى - أنني أغرق تاركة إياك على متن سفينة قراصنة.. كنت أختنق من العدوى الشديدة، لكنني كنت أشعر أنني أغرق من مياه البحر.. أرى السرير يهتز ويتأرجح، وأتخيل أشرعته تتطاير ويعلو الموج.. الموج المغطى بالسيراميك!

أرى طفلاً ما يهتز تواجده في عينيّ فلا أدري إن كان موجودًا أم لا، لكنه كان معي في البحر الهائج.. وبعيدًا عن ذراعي الممدودة أرى هاتفي المحمول ينير ثم قائمة الأسماء تظهر.. تجرى الأسماء إلى الأعلى والأسفل ثم تثبت ويجرى الاتصال بأحدهم.. ثم أغيب عن الوعي اختناقًا..

افتح عيناي لأجد منال ورمزي والسيدة سكينة يحيطونني في المستشفي وهم يرتدون الكمامات.. الآن أنا أفضل لكنني عرفت أن منال تلقت مكالمة مني لم

ترد عليها لأنها كانت نائمة ورأتها صباحًا ((مكالمة من هاتف بلا رصيد هه؟!))، ثم جاءت مكالمة أخرى على رقم رمزي ((لماذا رقم رمزي وليست والدته؟!)) فسمع ذلك الأخير صوت بكائك، وعندما عاود الاتصال لم يرد أحد.. يوم كامل لم يرد أحد عليه ولم آتِ أنا إلى العمل ولم أعتذر.. توجه هو ووالدته إلى منزلي وكسروا الباب فوجدوني ملقاة على وجهي زرقاء اللون، والباقي أنت تعرفه..

اشتقت لك يا بني.. لكنني لن أخاطر بنقل العدوى لك خصوصًا أنك لم تلتقطها برغم ملاصقتك لي يومين كاملين..

******

٢٢ أبريل ٢٠١٠

يا إلهي.. لا أعلم إلامَ سيفضي بنا ما يحدث.. يزداد الوضع سوءًا وعدائية، وأموت أنا قلقًا عليك.. ماذا يريد هذا الطفل اللعين منك؟ لماذا لا يريد شفاءك؟ ماذا يستفيد من الإبقاء عليك مزدوج الجنس هكذا؟ من هو أصلاً؟ ولِمَ وهبني هذه الموهبة التي أحالت حياتي وحياة كل من حولنا جحيمًا؟

بعد عودتي من العمل اتصل بي والدك وأخبرني أنه في الإسكندرية وقد استقرت حالته.. هيأتك لقدومه، ونظفت البيت على عجل، وفي السابعة تمامًا وجدته يطرق الباب..

لم أعرفه لأول وهلة، كان نحيلاً حتى اتسعت ملابسه التي أعرفها عليه، وبدا ذراعه يطل من الكم القصير المتسع كالجرس.. يداري عينيه بالنظارة السوداء المعتادة.. خلعها فوجدت عينيه غائرتين يحيطهما السواد والتجاعيد.. أدخلته في ترحاب، وحاولت أنت الوقوف على السرير متمسكا بالأشرعة وأنت

تضحك وتشير له.. تسقط، فيهرول إليك ويحملك بجهد أظنه واضحًا.. خلع والدك حذاءيه وتربع إلى جوارك على السرير ناسيًا كل شيء.. دخلت لصنع الشاي مستمتعة بضحكاتك والأصوات الهزلية التي يصنعها زين لإضحاكك.. لقد أصبح والدك أطيب بشكل ما بعد تلك الفترة من الغياب..

أخذت أقلب السكر في الأكواب حين انقطعت ضحكات أبيك فجأة إلا أنك كنت تواصل حثه على المزيد من اللعب..

تركت الصينية حيث هي وخرجت لأجد زين يحتضنك ويخبئ وجهك في صدره وهو ينظر إلى ركن الحجرة في ذعر وغضب.. نعم.. في الركن كان الطفل الأزرق اللعين وقد اكتسى باللون الأحمر، وأخذ يطرق مؤخرة رأسه مرارًا في الجدار خلفه ويبعث الشرر تجاهك أنت وأبيك..

تأكدت الآن من صحة ظني؛ فزين يراه، وهو من سبب له المرض كل تلك الفترة..

هل أصارحه أنني أيضًا أرى الطفل الغريب؟ وهل سيلحق الضرر بك إذا أعلنت ذلك لزين؟ حسبتها في سرعة وقررت أن احتفظ بمعلوماتي لنفسي الآن وأتظاهر أنني لا أنظر إلى ذلك الركن.. عدت وأحضرت الصينية بما عليها، وباعدت بين الأكواب حتى لا تصطدم ببعضها فتكشف ارتجافي وتوتري..

جلست على السرير أمامه حاجبة عنه رؤية الطفل الغامض فنظر أرضًا في ارتباك ووضعك بجانبه فوق ما لا يقل عن عشرة ألعاب وعشرات من قطع الملابس الخارجية منها والداخلية، وكلها من ماركات معروفة كدت أنسى مرآها..

- كيف حالك يا رنا؟.. تعلمين.. أفتقدك أحيانًا.. و.. وأفتقد ابننا.. لقد كبر الآن! انظري إليه؟!

- هاهاها.. نعم.. لقد كبر.. مرت فترة طويلة منذ أن رأيته في الحديقة.. لكنها ليست بالطول الذي يجعلك تفقد كل هذا الوزن.. ماذا حدث لك؟

شرع يحكي لي لكنه لم يذكر عم كانت هلاوسه بالتحديد.. لقد وجدوا ورمًا في مخه لكن ما كان يحير الأطباء هو عدم ثبات حجمه ومكانه، فضلاً عن أنهم أحيانًا لا يجدون شيئًا في الأشعة على الإطلاق! قلة النوم والأدوية العشوائية والاكتئاب هو ما حوّله إلى ذلك الشيء..

أكاد أرى يا بني ذلك الطفل الغامض يتشكل على صورة الأشعة دافعًا الأطباء إلى الجنون بالشكل المتغير للورم.. حيلة سخيفة لا أدري مغزاها، وكنت أتمنى أن أخبره بأن يترك كل هذا وراءه ولا يكترث لشيء..

- زين.. اترك كل هذا وراءك ولا تكترث لشيء! إن كان ورمًا لثبت في مكانه على الأقل.. وإن كان شيئًا آخر مما يعرفه الأطباء لعرفوه! أما إن كان شيئًا (ما) فاتركه حيث هو فلربما يتأثر سلبًا بالفحص أو الأدوية الخاطئة..

- تعلمين يا رنا.. أفتقد تقبلك البسيط للكوارث ولأي شيء غامض.. أحيانًا يصبح من المفيد أن يتعلم المرء أسلوب دفن الرأس في الرمال.. لا أقصد الإهانة ويعلم الله! فقط أنا أعجب لطريقة تفكيرك المسالمة..

تكلمنا قليلاً وأعطاني بعض المال لشراء أي شيء ينقصنا.. أعلم أن ذلك المال لي أنا؛ فقد كان ينظر بإلحاح إلى حالة ثيابي المزرية واتساعها عليّ.. أخذت المال وهو يكاد يحرقني في كفي إلا أنني أحتاجه فعلاً.. أحتاجه كي أعالجك أولاً، إلا أنه قاطع أفكاري..

- أما بالنسبة لفحوص آسر فقد أتيت خصيصًا لهذا.. لنصحبه إلى المستشفى غدًا ونجري له كل ما يحتاج..

كاد قلبي يثب سعادة لكنه وثب لشيء آخر، ترى هل يتركنا الطفل الغامض لنعالج ابننا؟ ماذا سيفعل بنا؟

اختلست نظرة إلى الجدار خلفي فلم أجد الطفل.. مازلت غير مطمئنة.. دق الباب فارتديت حجابي - لا تنس أنني ما زلت متزوجة من أبيك ويمكنني فك شعري طلبًا (للطراوة) في تلك الشقة الخانقة - وذهبت لأفتح الباب.. كان هذا هو أسوأ توقيت لأن يأتي رمزي حاملاً كيسًا من الموز! همست له إنه من غير اللائق أن يأتي إلى بيتي وحده.. كنت أهمس فضاع الحزم من صوتي.. رمق رمزي حذاء زين وابتسم ابتسامة صفراء، ونظر إليّ متفحصًا ملابسي ورحل دون تعليق!!

أتراه يظن أن هناك رجلاً غريبًا في بيتي؟! همسي وحذاء زين وعلمه أنني مطلقة.. ربما يجتمع كل هذا لإثبات التهمة الجاهزة للمطلقات..

أغلقت الباب وتنفست عميقًا و لم أخلع حجابي ليداري احمرار أذني..

- من؟

- جامع القمامة.. أتى لأخذ شهريته..

- أعطيتيه؟

- قلت له إننا مازلنا لم نبلغ أول الشهر..

لم يعلق زين، ولعب معك قليلاً، ثم قام مرتديًا نظارته وحذاءه.. مدّ يده إلى مقبض الباب ثم توقف والتفت إليّ وأنا أحملك..

- رنا.. أما زلت مصممة على الحياة هنا؟ يمكنك العودة والبقاء في القاهرة وأعدك أنني لن أقترب منك إلا إذا طلبت أنت ذلك..

- لا يا زين.. لقد انتهى كل شيء وأنا سعيدة هنا.. آسر ابنك ويمكنك رؤيته متى شئت..

رحل زين فمددت ذراعك الصغيرة ناحية الشرفة.. أخذتك هناك فصحت أنت بصوت عال "أيين" تعني زين! التفت إليك مبتسمًا وملوحًا بذراعه حين لاحظت أنا عدة أمور في أقل من خمس ثوان..

١- أنت تناديه ولا تبتسم بل تناديه كي يحذر شيئًا..

٢- زين يلوح لك وهو مستمر في عبور الشارع الضيق الهادئ ليركب سيارته..

٣- صوت محرك سيارة مسرع جدًا يأتي من ناحية المدرسة..

٤- الطفل اللعين يركب على بطنه فوق سقف السيارة المسرعة ويمد ذراعيه عبر سقفها ليغطي عيني السائق وهو يضحك في جنون..

٥- رمزي يقف تحت المنزل..

وفي أقل من ثوان اصطدمت السيارة بزين فطار خلفها مصطدمًا بسيارته، ثم سقط أرضًا بلا حراك، بينما تحطمت مقدمة السيارة التي صدمته حين انحرفت محتضنة شجرة سميكة هناك..

نزلت مهرولة وأنا أصرخ ولا أجرؤ على لمس زين، عبر رمزي الشارع إليّ في هدوء والمارة يتزاحمون.. وقف بجانبي وهمس..

- اتركي كل شيء كما هو.. لا تتدخلي..

ورحل، بينما اجتمع الناس محوقلين.. وفي شرفتي أرى الطفل الغامض ممسكا بالأوراق المالية التي أعطانيها زين.. يشعلها بين كفيه وتتساقط رمادًا يحمله الهواء فوق الرؤوس..

******

من مجموعة صور
للطفل آسر
ملتقطة بهاتف رنا المحمول المتوسط الجودة
في أعوام متفرقة..

- صورة للطفل آسر في مستشفى فاخر يجلس بجانب والده المضمد بلفافات الشاش ودعامات الكسور.
يبدو في جانب الصورة ظهر إيناس زكريا تفعل شيئًا ما كي لا تظهر في الصورة.
١٠-٥-٢٠١٠

******

- آسر مع زين يمسك بعكاز الأخير في فضول أمام بوابة المستشفى الفاخر. زين يخفي وجهه عن الكاميرا ويضحك..
١٢-٨-٢٠١٠

******

- آسر يحتفل بعيد مولده الأول مع زين ورنا في أحد مطاعم الوجبات السريعة. آسر يرتدي زيًا تنكريًا ما غير واضح، ويبدو زين هزيلاً شاحبًا..
٣٠-٨-٢٠١٠

******

- آسر يلعب مع بعض الشخصيات التنكرية التي يوفرها المطعم الشهير في أعياد الميلاد..
٣٠-٨-٢٠١٠

******

- المهرج العملاق شعار المطعم الشهير يحمل آسر ملوحًا للكاميرا، وآسر يحاول الإمساك بالأنف الأحمر للمهرج في فضول..
٣٠-٨-٢٠١٠

******

- آسر يلتقط الصور مع دبابات الجيش يحمله جندي مبتسمًا ويرفعه عاليًا..

٢٠-٢-٢٠١١

******

- آسر يرفع أصبعه الملون بأحمر الشفاة بجوار أصبع رنا الملون بحبر الاستفتاء الوردي ويبتسمان..

١٩-٣-٢٠١١

******

- آسر مغطى بدهان برتقالي وهو ممسك ببكرة دهان إسفنجية وخلفه حائط برتقالي في شارع ما..

٢٢-٥-٢٠١١

******

- آسر يحمله مجموعة شباب ينظفون الشوارع ويقومون بدهان الحوائط والأسوار في منطقة سيدي بشر بالإسكندرية..

٨-٦-٢٠١١

******

- صورة نهارية باستخدام خاصية التصوير الليلي لآسر مع بعض أطفال الجيران.. بعضهم في المرحلة الابتدائية ويبدو عليهم الوجوم.. إشارة بقلم أحمر حول رأس أحدهم يبدو خلفه ما يشبه خيط دخاني ملتف حول عنقه لكنه غير مرئي..

١٢-٩-٢٠١١

******

- صور لمجموعة طلبة مع رمزي في المدرسة بنفس التقنية السابقة.. إشارات بالقلم الأحمر حول رؤوسهم ودائرة كبيرة حول كفي رمزي حيث يلتف حولها خيوط دخانية.. يبدو آسر في مقدمة الصورة عن طريق الخطأ..

٢٠-١٠-٢٠١١

******

- مجموعة من رسومات لآسر ويبدو فيها أطفال ملونون باللونين الأزرق والأحمر في أوضاع ثابتة وملامح جامدة.. رسم لطفل أحمر اللون يقف داخل أسوار مدرسة..

من مجموعة صور لم تلتقطها رنا مهنى..

- رسم لأطفال يخرج من رؤوسهم وأيديهم وأرجلهم خطوط متعرجة طفولية تتجمع خارج الكادر.

******

- صورة أشعة يبدو فيها رأس مفصل الفخذ مهشم تمامًا.. الأشعة مطبوع عليها اسم Zain Al-abedeen Roushdy Al-Gammal

٢٠١٢-٢-٢٢

******

- صور لأطفال في مدارس مختلفة التقطها بعض أولياء الأمور.. حفل تخرج للصف الخامس الابتدائي في حديقة ليلاً.. الأطفال ينظرون للكاميرا في جمود بينما تتصاعد من رؤوسهم خيوط دخانية غير مرئية إلا لمن يعرف وجودها، تتجمع الخيوط في يد مديرة المدرسة رمادية الشعر..

٢٠١-٢-٢٢

******

- صور لاحتفال بعيد المعلم.. المدرسون المكرمون يقفون في صف يتسلمون شهادات تقدير، ويتصاعد من أيديهم وأرجلهم ورؤوسهم خيوط دخانية تتجمع خارج الكادر..

٢٠١٣-٧-٢٧

******

- بعض الصور لأحداث ومظاهرات بعد ثورة يناير يبدو فيها مجموعات من الشباب تتصاعد منهم الخيوط الدخانية ذاتها ويبدو عليهم الوجوم..

٢٠١٤-١-٢٥

******

- صور لجثة قديمة لطفل مخاط الفم مسدود الأذنين بما يبدو أنه قطعتي صلصال.

٢٣-١٢-٢٠١٥

******

- صور لجثمان الطفل آسر زين العابدين..

٢٣-١٢-٢٠١٥

******

من يوميات متفرقة كتبتها **رنا مهنى** الى ابنها آسر في
الفترة من يناير ٢٠١١ الى فبراير ٢٠١١

١ يناير ٢٠١٠

لم أذهب للعمل اليوم.. لم أذهب حتى لغسل وجهي.. حتى إفطارك لم أعدّه؛ إذ لم أتركك من بين ذراعي من ساعة عودتنا من الخارج البارحة.

يدي ترتعش وأنا أكتب.. أريد أن أحكي.. أريد أن أخرج ذلك الشيء من داخلي.. تلك اللعنة التي أصابتك فيما يبدو كما أصابتني..

لوقت قريب حسبت أنني سوف أعيش حياة طبيعية معك.. بضعة أشهر بعد حادث والدك لم يحدث فيها شيء ما ورائي..

أعتقد أنني إذا نفّذت ما قاله رمزي يوم الحادث وتركت كل شيء لشأنه، نلت الراحة وارتاح خاطري.. لكن هيهات!

أراك قادمًا من المطبخ الآن مترنحًا حاملاً علبة الجبن والخبز.. مشيتك مضحكة لكني لست في مزاج لأي تغيير نفسي، حتى الضحك لم أعد قادرة عليه.. تلقي أنت الطعام على السرير ثم تتسلق صاعدًا..

فلتنتظر يا بني دقائق ريثما أنتهي مما أكتبه..

البارحه نزلت أنا وأنت كعادتنا كل رأس سنة.. تمشينا على البحر وأكلنا الشطائر التي أعددتها منزليًا لنا.. كنت تضحك وتصفق كلما رأيت زينة رأس السنة والأنوار المتراقصة..

اتصل بي زين وطلب أن يكلمك.. هنأك بالعام الجديد واعتذر لي عن عدم قدومه بسبب حفله السنوي الذي يقيمه في شركته..

ذكرى تلك الحفلات تبدت لي من مؤخرة ذاكرتي، وشعرت أنها ذكريات امرأة أخرى.. أرى الماضي بعيدًا وكأنه لم يحدث..

أصارحك أن تلك الذكرى قد عكّرت صفو يومي إلى حد ما مع إلحاح عقلي على تصور إيناس في ذلك اليوم.. هل ستلاحظ عينه المتعلقة بالنساء الأخريات؟ أم أنه قد أقلع عن هذه العادة؟ إن أقلع عنها، فهل ذلك بسبب كونها زوجة أفضل مني أم بسبب ما حدث له مؤخرًا من حوادث وأمور ظننت أنها ستؤثر على سلامة عقله إلى الأبد..؟

أشعر أنه زين آخر الآن.. زين لمت نفسي مرارًا على قراري الانفصال عنه.. ربما إن كنت قد صبرت فترة أطول لكان قد تغير إلى ما هو عليه الآن.. ربما كنا تشارك موهبتنا السوداء سويًا فلا يتهم أحدنا الآخر بالجنون..

في الساعة الثامنة أمسكت كفك الصغيرة وأخبرتك أن علينا العودة إلى المنزل لكنك رفضت.. جذبتك برفق لكنني شعرت بأنك مثبت إلى المقعد بشكل ما..

طلبت أنت مني أن نجلس قليلاً وأن تلعب بالمكعبات التي اشتريتها لك اليوم هنا..

لم أستطع الرفض أمام براءة لغتك الوليدة وابتسامتك الآسرة..

جلسنا على المقعد الخشبي مرة أخرى وتركتك تلعب وسرحت أنا......

هاهاها! أنت الآن تمد يدك نحوي بشطيرة صنعتها لي! كفاك مختفيتان وراء طبقة من الجبن والشطيرة ممتلئة عن آخرها بربع كيلو الجبن كاملاً كما وضعته فيها!

لطالما شعرت يا بني أنك أنت من يعطيني الحنان ولست أنا، لطالما شعرت أن ما بداخلك أكبر من أن يسعه جسدك الصغير..

أبتسم وأصلح الشطيرة وأعطيها لك.. تأكلها وأنت تلعب على السرير

بكراتك الملونة.. ليس لي أي شهية للطعام بعد كمية الدماء والأوصال المتناثرة التي رأيتها أمس..

ظللت أنت تلعب بالأمس وتصنع أشكالاً لا أعلم كيف تخيلتها.. كنت بارعًا حقًا وشديد السرعة..

أخرجت هاتفي وعدّلته إلى خاصية التصوير الليلي والتقطت لك بعض الصور وأنت تصنع أشكالك.. في إحدي الصور ظهرت في خلفية صورتك ساقي فتاة شابة عابرة خلفك.. من مقدمة حذائها أرى ظلا دخانيًا أبيض اللون يمتد إلى أعلى..

ظننت أنه عيب في الكاميرا أو في الصورة، لكن الأمر معي يختلف.. لا بد أنني أرى ما أراه فعلاً..

وجهت كاميرا هاتفي إلى ذات الفتاة مرة أخرى وحاولت أن تظهر في الصورة كاملة.. التقطتها بعد أن ضبطت زر التصوير الليلي مرة أخرى..

أرى الخيوط الدخانية اللعينة في الصورة تمتد من أيديها وأرجلها ورأسها إلى الفراغ خلفها ثم يختفي طرفها تدريجيًا في الهواء..

إذن فالكاميرا ترى من الموهبة السوداء ما لا أراه أنا بعيني.. لا أرى سوى الأطفال بينما تستطيع الكاميرا أن ترى خيوط الكبار أيضًا..

شرعت أصوّب كاميرتي كالمجنونة نحو المارّين فكانت الصور مهتزة قليلاً بفعل خاصية التصوير الليلي لكن بعض الناس كانوا بلا خيوط على الإطلاق..

إذن فما أراه صحيحًا إذ ليس كل البشر بخيوط دخانية..
صوّبت الكاميرا نحو وجهي وأنا أرتجف.. ضغطت على الزر وانتظرت ثواني مثبتة الكاميرا نحوي حتى أحصل على أفضل صورة..

نظرت فوجدتني بلا خيوط.. تنفست الصعداء وأمرتك أن تجمع حاجياتك.. رجوتني أن نمكث أكثر فجمعت أنا لعبك وحملتك حملاً وأنت تحرك ساقيك رافضًا في الهواء..

توجهت رأسًا إلى معمل تحميض ونزعت شريحة الذاكرة من هاتفي وطلبت تحميض تلك الصور.. الآن..

طلب مني الموظف أن أنتظر ساعتين على الأقل..

عدت بك إلى مكاننا على الشاطئ ولا أعلم كيف نمت أنت على ساقي وأنا بعد شاردة لا أذكر مما شردت فيه شيئًا..

في الساعة الحادية عشرة عدت إلى معمل التصوير فناولني الموظف ظرفًا به الصور واعتذر لي عن عدم جودتها إذ يبدو أن الكاميرا ضعيفة بعض الشيء..

فتحت الظرف بيد واحدة وأنا أحملك بالأخرى فوجدت الصور كما التقطها الهاتف تمامًا..

ناديت على الموظف مبتسمة وأنا أشعر بجانبي فمي يهتزان..

- آ.. لو سمحت.. هل ترى تلك الخيوط البيضاء؟

وأشرت له إلى الخيوط الدخانية كما أراها..

- لا أدري بالضبط إلامَ تشيرين.. لا أراها بوضوح.. ربما كانت موجودة لأن التصوير الليلي يقلل من جودة الصور..

فردت الصور أمامه على الكاونتر في عصبية وأخذت أعدد له مواضعها في الصور..

حك عنقه وابتسم في حرج..

– عفوًا سيدتي.. لا أرى شيئًا واضحًا..

وهز رأسه وانصرف إلى زبون آخر..

حملتك نائمًا وسرنا في بطء متجهين إلى المنزل..

استيقظتَ فجأة وأنت تلفت حولك في قلق.. كنا بالقرب من شارع خليل حمادة.. ظللت تشير إلى ذلك الشارع وتكرر "من هنا يا ماما.. من هنا.."..
ابتسمت وسرت بك فيه؛ فلم تكن المرة الأولى التي نسير فيها في ذلك الشارع معًا، إضافة إلى أنه يؤدي بنا إلى شارعنا أيضًا..

من بعيد سمعت صوت صواريخ احتفالاً برأس السنة.. نظرت إليها أنت واجمًا ثم أمسكت رأسي بكلتا كفيك وقلت..

– ماما.. كنبلة!

– كنبلة؟ هاهاها.. ليست قنبلة يا حبيبي، هذه صواريخ ملونة وجميلة انظر..

– ماما.. لا.. كنبلة.. كنبلة!

مشيت أنا عدة خطوات ثم ثبت أنت جسدك فدفعني ونزلت إلى الأرض حاملاً كيس المكعبات.. أخذت تلفت حولك وتمسك رأسك من حين إلى آخر ثم مشيت في الشارع وحدك دون أن تنظر إليّ.. هرولتُ خلفك فعدت لي جريًا واحتضنت ساقيّ..

شعرت ببرودة غريبة فيهما، وحين تركتهما وجريت لم أستطع أن أنقلهما من الأرض!

ظللت أنادي عليك.. سيبتك.. لكنك ظللت تجري كما لم تجرِ من قبل..
ظللت أشير إلى الناس من حولي وأناشدهم أن يمسك بك أحدهم لكنهم ظلوا يرمقونني في فضول ولم يتوقف أحد..

ظللت أصرخ وتتعالى أصوات الصواريخ وهرج الناس.. فجأة لم أعد أسمع شيئًا.. لم أعد أرى شيئًا إلاكَ.. تقف في منتصف الشارع بين المسجد والكنيسة.. تلفت حولك وتقطب جبينك..

أسمع صوتي بطيئًا واهنًا ينادي عليك.. أسمع صوتك بعيدًا في ذهني وأرى شفتيك تتحركان ببطء وكأنك تهمس..

- ماما.. لا تخافي!

أرى هالة بيضاء تتكون حولك.. تنمو منها ما يشبه الأشعة البيضاء.. تتوجه الأشعة إلى جميع المارين من حولك.. أرى أجسادًا تلفظها بعيدًا دون أن تدرك وجودها.. أراها تلتف حول الأطفال.. يتجمدون لحظات وينظرون نحوك..

أشاهد سيارة تنفجر هناك..

موجة تضاغطية عارمة أسقطتني أرضًا وأنا أبعد عن مكانها أكثر من ثلاثين مترًا.. تتوهج هالتك وتلفظ بعيدًا مئات الشظايا المعدنية عمن هم بداخلها..
أرى أشلاء تتطاير.. أبوابًا تقلع.. زجاجًا يتهشم.. صراخًا يبتر..
ثوانٍ معدودة كانت كفيلة بنسف كل من كان بالمسجد والكنيسة وما بينهما..
الصراخ يعلو وما زالت قدماي ملتصقتان بالأسفلت..

أرى هالتك تضعف وتتذبذب.. يقوم الأطفال الذي حمتهم هالتك وينظرون حولهم في ذعر..

أراك تسقط.. تمسك رأسك.. تحاول صنع هالة أخرى.. لم أدر وقتها أن الانفجارات لم تنته بعد.. سقط قلبي في قدمي حين وجدت الطفل الأزرق يتجسد بجانبك.. يتكون من رمال تنبت من الأرض ثم تتساقط عنه تدريجيًا إلى أن يتضح لي بالكامل.. يجثم فوقك وأنت متكور حول نفسك على الأرض.. يسحب الهالات البيض المحيطة بالأطفال الآخرين والتي صنعتها أنت لهم.. تتوهج الهالة حولكما ثم يدوي الانفجار الثاني..

يارب.. ساعدني كي أنسى ما رأيت.. لقد نسف الانفجار الأطفال الباقين.. أغطي وجهي بكفي وأصرخ.. أبكي..

تنفك عقدة ساقيّ فأهرول على أربع إليك.. أتحاشى أن يدوسني الناس.. أجدك مازلت في وضع يشبه السجود وقد التصق شعرك على جبينك وعينيك.. أحمل وجهك الصغير وأضمه لي، وأرى الدماء تسيل من أنفك وتغطي فمك..

مكعباتك متناثرة في كل صوب..

******

باقي ما كتبته رنا مهنى إلى ابنها آسر في ١ يناير ٢٠١١

أحملك وأجري...

يستوقفني البعض لكنني لن أقف..

من بين ذراعي أجدك تلفّ ذراعيك حول رقبتي وتهمس..

– لِمَ أتى؟.. الأطفال ماتوا.. كلهم..

كنت أبكي وقد ضاعت الاتجاهات مني.. لا أدري أين أذهب بك..

جلست على الرصيف واحتضنتك.. لم يولني أحد أي اهتمام؛ فقد كانت الانفجارات هي شغل الناس الشاغل.. الكل يهرع للمساعدة..

خاطر سخيف يخطر لي.. لمَ تحدث لي الكوارث في رأس السنة..؟! أضحك وأبكي.. تقوم أنت ماسحًا الدماء في كمك ثم تقبّلني.. تهمس لي أنك بخير وأنك تريد العودة للمنزل..

لا أدري أأحزن على من استحالوا أشلاء أمام عيني؟ أم أحزن على ما اكتشفته من مواهب سوداء دفينة فيك..؟

كيف عرفت أنه سيكون هناك انفجار؟ وما تلك الهالة التي حميت بها البعض ورفضها البعض الآخر؟ لمَ لَمْ يحمك الطفل الغامض منذ البداية؟ هل عرف أن هالتك لم تصمد للانفجَار التالي؟ لِمَ لَمْ يحمِ الأطفال الآخرين وقرر سحب حمايتك لهم لتحمِ نفسك بها؟!

لماذا يحافظ هذا الطفل على حياتك أنت تحديدًا؟! ماذا يخبئه لنا الغد؟!!

******

٥ يناير ٢٠١١

ابني الحبيب.. لقد أصاب الجميع الجنون مؤخرًا بعد حادث تفجير الكنيسة.. الكل يتحدث ويستنتج دون أي دلائل، ثم يأمر الجميع بالحياة وفقًا لاستنتاجاته..

لم أصادف أحدًا منذ سنوات يسمعني كلمة "لا أدري" أو "لا أعلم".. صرنا جميعًا خبراء في كل شيء والحمد لله.. هكذا ركدت بحيرة المعرفة؛ إذ لم يعدْ أحد راغبًا في الارتشاف منها.. من لا يعلم صار مصدر معلوماته هم "الفتائين" العظام.. ولا حول ولا قوة إلا بالله!

٢٠ يناير ٢٠١١

الوضع مقلق وينذر بعض الشباب في موقع الفيس بوك بقيام ثورة في مصر أسوة بما حدث في تونس، ويخطط البعض الآخر لقيامها فعلاً يوم ٢٥ يناير!!

يقول الفتاوزون في التلفاز إن مصر ليست تونس ولن يحدث شيء، إن هي إلا مظاهرة سويعات قليلة وتفرقهم عصيّ الأمن المركزي إن تفاقم الأمر..

لا أعلم إن كان من يرغبون في الثورة قد نظموا الأمر جيدًا أم هو الارتجال؟.. الأوضاع لا تحتمل ارتجالاً لكن من يسمع كلام أم شمطاء مثلي؟!! دع الفتيا للفتائين، والثورة للثوريين، وآسر لأمه الحبيبة كي تلتهم خديه الناضجين!!

******

٢١ يناير ٢٠١١

مرت أسابيع ثلاثة على اليوم المشؤوم.. لم ينته الحديث عنه إلا أن الأنظار الآن قد أهملته وتوجهت إلى الاضطرابات السياسية الوشيكة..

لا أفقه شيئًا في السياسة لذا لن أكتب إليك ما من شأنه تشويش رؤيتك المستقبلية للأحداث عند قراءة هذه السطور إن شاء الله، ولكنني أكتفي بالاحتفاظ بما أراه مهمًا من الأخبار في الجرائد وأضعها لك في ملف تقرؤه أنت عندما يشاء الله..

لكنني أرى تبدلاً واضحًا في شخصيتك من يوم الحادث.. قلّ كلامك وإن كنت مازلت بشوشًا عندما أنظر إليك فقط.. وعندما أراقبك من بعيد أجدك منهمكًا في الرسم..

ترسم ما يبدو أنهم أطفال ذوي أجنحة.. ترسم مربعًا فوقه مستطيل عمودي

عليه وآخر مثله عليه علامة زائد صغيرة.. تقول لي إن هذا جامع وذاك كنيسة!

أتمنى أن أجد من يضع لك اختبارًا علميا في الذكاء، فأنا لم أرَ قط أو أسمع عن طفل في ذكائك وقوة ملاحظتك بل وقدراتك اللغوية.. أنت لم تكمل العامين بعد!!!

كيف تمشي هكذا وتفهم وتتحدث.. أي قدرات ستملك حين تصبح شابًا؟!!

كم أود لو أشارك أي شخص حيرتي، لكن اتهامي بالجنون والتزوير في سنك الحقيقي هو أقرب رد فعل لما سأقول...

أشعر بتحسن الآن.. أريد أن أضمك إليّ وأنام مرة أخرى...

******

٢٦ يناير ٢٠١١

الأوضاع مقلقة فعلاً.. يبدو أنها ثورة فعلاً وليست مظاهرات!

******

١١ فبراير ٢٠١١

مازلت أرتجف كلما سمعت عن بلطجية يقتحمون المباني المجاورة.. نقف معًا في الشرفة نرمق اللجان الشعبية والشباب المسلحين كيفما اتفق هنا وهناك.. يقف أهالي الشارع معًا، وأتعجب من الظرف الذي جمع بين أولئك جميعًا.. أناس لم يكونوا ليلقوا السلام على بعضهم إذا تقابلوا..

سكان الأبراج وسكان المنازل وسكان المساكن البسيطة المتهدمة.. طلبة وعمال وأطباء.. ذابت بينهم الطبقات، فجلس الجميع يتسامرون مستعينين على طول الليل وبرودته بالشاي والحديث عن السياسة..

يدوزون الليل متوترين كذيول القطط.. يهرعون من أول الشارع إلى آخره إذا سمعوا أي صوت.. تمضي ساعة تلو الأخرى، وتتثاقل الخطى فيجلس البعض ويتمشى البعض الآخر رائحًا غاديًا على طول الشارع..

يداعب النعاس جفوني فأعدّ كوبًا من القهوة وأجلس في الشرفة.. أخاف أن يتسلل أحدهم إلينا في غفلة من الرجال في الشارع..

أعود فأجد أن البعض قد نام فعلاً والبعض قد اتخذ من مداخل البيوت حصونًا دافئة.. يدور صاحب المقهى الصغير عليهم بأكواب الشاي الساخنة ثم يجلس معهم رافعًا صوته بالغناء..

صوت خشن متآكل لكن صداه في الشارع الخالي والبرد ملأني شجنًا..
أدندن بصوت هامس وأنا أداعب شعرك إذ غفوت على صدري متدثرًا ببطانية صغيرة..

-.... ليه تسكتي للزمن.. اتكلمي.. ليه تدفعي وحدك الثمن.. اتكلمي..
يمر عزت زوج أخت جارتي بثينة من تحت الشرفة فيلمحني.. يخفض وجهه إلى الأرض صائحًا..

- السلام عليكم يا آسر... ادخلوا لتناموا.. لا تخشوا شيئًا..

لم ينتظر الرد وانعطف يمينًا بجانب المدرسة هو والشابان المرافقان وهو ما زال يخبط بعصاه الغليظة الأرض..

-.... أنا ابن كل اللي صانك.. رمسيس وأحمس ومينا.. كل اللي زرعوا في

وادينا.. حكمة تضلل علينا..

تطل بثينة من شرفتها المجاورة وتسألني..

– لماذا لم تنامي يا أختي؟ الجو بارد على الولد.. أكان هذا عزت؟

– نعم... سأدخل الآن..

وأقوم حاملة إياك.. الجو بارد بالداخل كما هو بالخارج.. لا شيء يمنح الدفء قدر الصحبة البشرية..

أضعك على السرير وأمسك هاتفي المحمول.. أتصل بزين ثم أقطع المكالمة قبل أن يرن الجرس.. الساعة الآن الثانية صباحًا.. لا يصِحّ أن أتصل به الآن.. منال نائمة بالطبع.. أقف أمام رقم رمزي لوهلة..

قابلته اليوم صباحًا في المكتبة.. لا توجد دراسة الآن وأنا أذهب إلى المكتبة وأعود قبل ميعاد حظر التجوال بوقت كاف..

كان لا يذكر شيئًا عن يوم حادث أبيك، ولا يذكر إلا أنه ذهب إلى داري وأنني طردته لكنه لم يغضب؛ لأنه كان تصرفًا غير لائق منه من البداية، ولا يعلم حتى كيف واتته الجرأة للقيام به..

تبادلنا بضع كلمات عن الأحوال الجارية ثم رحل..

أصارحك أنني أستعيد أحيانًا طريقة كلامه المتلعثمة وأتمنى سماعها مرة أخرى.. لكنني أعلم أنني بحاجة لأي بشري.. لأي رجل.. هناك عدة أنواع من الحنان، منها حنان وحدهم الرجال قادرون على إعطائه للمرأة.. حنان يشعرها أنها بأمان ولن تحمل هم شيء بعد اليوم..
صوت القرآن من المسجد يشعرني بالاطمئنان.. يمكنني أن أنال قسطًا من الراحة الآن..

******

١٥ فبراير ٢٠١١

الضغط العصبي يمزقني.. ما عدت أستطيع النوم أو التركيز في عملي.. لم أعد أستطيع اللعب معك وأنت أيضًا فقدت مرحك القديم، وصرت أكبر من عمرك بثلاثين عامًا على الأقل..

لا أستطيع إلا التفكير في الحادث والصور والوحدة.. والخطر المحدق بنا من كل الجوانب.. سواء الفيزيقي منه أو الميتافيزيقي..

أشعر بضعف شديد.. منذ ساعات أتت منال لرؤيتي في المكتبة، وقد لاحظت نحولي حتى كدت أختفي فلا يتبق مني إلا رأس يتدلى منه ملابس..

في شرود أخرجت مظروف الصور من حقيبتي وناولتها إياه طالبة منها أن ترى إن كان هناك شيء غير طبيعي..

كما كتبت لك أمس إنني أصبحت مهووسة بالتصوير.. أقف في الشرفة وأصور أي شخص يمر حتى ليحسبني الناس جاسوسة إسرائيلية ممن امتلأت بهم البلاد كما يزعمون في الجرائد..

لاحظت أن خاصية التصوير الليلي فقط هي التي تستطيع التقاط تلك الخيوط الدخانية، لاحظت أيضًا أن الأطفال فقط دون سن المدرسة أو أكبر قليلاً هم من يمتلكون هالات ملونة تبين انفعالاتهم.. عزوت ذلك إلى كونهم أطفالاً لم يسيطر أحد على مشاعرهم بشكل كامل بعد، بل وأغلب البالغين مربوطون إلى شيء خفي بتلك الخيوط، وأنهم بالفعل استحالوا دمى في.. في يد من؟ لاحظت كذلك أن كبار السن لا تربطهم أي خيوط.. أذن هي لعنة جيل معين؟ أم أن كبر السن يحرر المرء من تلك الخيوط ؟ تُرى كبار السن لم يعد لهم دورا في المجتمع ويود الجميع الخلاص منهم، وتلك فكرة ترد مؤخرًا بشكل مكثف على ألسنة بعض "الثورجية" وممن يركبون الموجة من صحفيين

وإعلاميين، متناسين أنهم هم شخصيًا فوق السن الذي ينادون بمحوه من على وجه البسيطة..

هل هو مخطط لقلع جذور نبتة جافة الفروع من الأصل؟! جيل لا جذر له ولا فرع هو جيل تذروه هبة هواء واحدة..

أخذت منال تبحث في الصور عن شيء غريب لكنها لم تجد..

– رنا.. لا أجد شيئًا.. لماذا تستخدمين خاصية التصوير الليلي نهارا؟! هل ستتوجهين إلى التصوير التأثيري؟!

كانت مريم ابنتها تجول بين معروضات المكتبة في غير فضول وترمق أمها من حين لآخر بنظرة لا أفهمها..

خطر لي أن أصور منال نفسها..

– لا أعلم يا منال.. فقط أجد الصور أجمل وأغرب بهذا الشكل.. ربما.. ربما تريني ما لا تظهره الصور العادية.. أعني من ألوان وظلال وما إلى ذلك.. ربما أتجه للتصوير كما قلت.. لم لا؟!

ضحكت منال وشرعت تحكي لي عن البنات وعن رشدي و..

– منال.. أريد أن ألتقط لك صورة "تأثيرية"! لنر كيف ستبدين!

وصوبت هاتفي نحوها دون أن أنتظر ردًا وأنا أحاول الضحك كي لا تشك في شيء.. ظهرت الصورة وكانت تغطي وجهها بكفيها، لكن ما يهمني في وجهها؟!

في الصورة تظهر منال تتصاعد منها ذات الخيوط اللعينة، لكن.....

الخيوط تتجه في يد مريم التي ترمقها في نظرة شيطانية، بينما يلتف أحد تلك

الخيوط حول عيني منال من تحت كفيها!

- هل جننت يا رنا؟!! أريني الصورة! يا ساتر.. !

وتختطف الهاتف من يدي وهي تضحك وتقوم بمحو الصورة ثم تعيده لي..
- حسنًا.. أخبريني الآن ما بك؟!! أنت لست طبيعية بالمرة.. وموضوع التصوير هذا..

نظرت إلى ساعتي فوجدتها الواحدة.. اعتذرت لها لأنني لا بد من أن أغلق المكتبة الآن لأعود للمنزل قبل حظر التجوال بوقت كاف فلا أريد أن أعود لأجد أنني قد نسيت شيئًا واضطر إلى النزول لشرائه في وقت الحظر..
كلام لا معنى له تقريبا لكنها وجدتني أهم بغلق بوابة المكتبة وهي مازالت في الداخل..

أظنها غضبت مني أو ظنت بعقلي الظنون.. سحبت ابنتها وأشارت لي أن "إلى اللقاء"، وسارت متجهة إلى الشارع الرئيسي لتركب إلى منزلها..
ظللت واقفة أحملك حتى غابت عن ناظري.. تذكرت أنني تركت الصور متناثرة بالداخل فعدت لآخذها واستدرت لأجد رمزي الذي أصابه الذعر من ذعري عندما فوجئت بوجوده.. سقطت الصور من يدي وتناثرت على الأرض..

-.. ر.. ر.. رنا! آ.. آ.. آسف إن كنت قد فاجأتك!

- لا.. لا شيء..

وانحنى يجمع الصور فوضعتك أرضًا لأجمعها معه.. لففت أنت يديك حوله كي تحتضنه فابتسم ولف ذراعه حولك وكانت بيده إحدى الصور. وقع نظره عليها فتغيرت ملامحه..

******

باقي ما كتبته رنا مهنى إلى ابنها آسر في ١٥ فبراير ٢٠١١

أطلق رمزي سراحك وركع على الأرض يقارن صورة بأخرى..

- ما هذا؟ م.. م.. ما هذه الصور؟! هذه.. هذه الخطوط البيضاء.. هل هو عيب في الكاميرا؟

طفق قلبي يدق كإيقاع موسيقى أفريقية وتصاعد الدم إلى رأسي..

- هل.. هل تراها؟!

- نعم.. لكن ماهي؟ لا.. ليس عيب كاميرا.. لديك صور هنا بلا خطوط.. ب.. ب.. بل.. انظري.. إنها ليست عشوائية.. يبدو أنها تنمو من.....

- من رؤوس وأيدي وأرجل الناس..

- نعم بالضبط! كأنها خيوط دمى ماريونيت!

جمعنا الصور ووقفنا أمام الكاونتر ننظر إلى بعضنا لدقائق..

لم أكن أريد الوقوف أمامه أكثر.. أحتاجه بشدة وخصوصًا أنه رأى ما أراه.. هل لهذا علاقة بعناقك له خاصة وأنك لم تفعلها من قبل؟!!

جمعت صوري ودون حرف واحد حملتك وانطلقت جريًا إلى المنزل..

أتذكر الآن ما حدث ولا أدري حقيقة ما أشعر به تجاه أي شيء.. هل تعرف أنت؟!!

******

١٦ فبراير ٢٠١١ (الأوراق منتزعة من المفكرة ومطوية بداخلها)

ابني الحبيب.. لا ادري كيف سمحت لنفسي أن يحدث ما حدث.. توقفت كثيرًا قبل أن أكتب إليك.. ربما أمزق تلك الصفحة لاحقًا إذا ندمت على إخبارك بما حدث..

لقد أصبحت الكتابة عادة لدي لأخفف من عبء وحدتي، وأشعر كثيرًا بالراحة بعد سكب ما في رأسي على الورق.. شعور قديم كنت أشعر به بعد انتهاء أدائي لامتحان مادة أمقتها.. بعد انتهاء الامتحان كنت أشعر بخفة غير عادية وكأني تخلصت من عبء المادة على الورق وصار الآن من حقي أن أنسى كل شيء عنها.. كل شيء..

بالأمس في حوالي الساعة الرابعة وبعد عودتي من المكتبة وجدت من يقرع الباب.. نظرت من العين السحرية فوجدته رمزي وقد صارت جبهته مواجهة للعدسة فغدت كصحراء صفراء ممتدة..

ارتديت إسدالاً على عجل وفتحت الباب قبل أن أفكر..

وجدته واقفًا هناك يتسم في حرج وفي يده كيس به شطائر! لا أعلم ما سبب ولع هذا الرجل بحمل الطعام إلي كلما رآني! هل لنحولي سبب في هذا، أم أنه يدفن توتره عند ملاقاتي في الطعام..؟

– كيف أتيت؟ حظر ال..

– ا.. ا.. أسير في ش.. ش.. شوارع جانبية فلا يجدني أحد.. ال.. ك ك.. كل يفعل ذلك.. من الصعب تواجد الأمن في الأزقة..

ثم مد يده لي بالصورة التي كان يمسكها عندما كنا في المكتبة..

– نه.. نه.. نسيتي هذه في فرارك..

تناولت منه الصورة شاكرة وأفسحت له الطريق كي يدخل..

دخل بضع خطوات ونظره مصوب إلى الأرض.. أتيت له بالكرسي الوحيد ليجلس حيث يقف بعيدًا عن السرير.. لف الكرسي ووجهه إلى الباب ثم جلس محرجًا.. مدّ إليّ كيس الشطائر وهمس..

- لقمة خفيفة..!

أخذت الشطائر ووضعتها في طبق كبير وأنزلتك من على السرير لتأكل معنا.. حملك رمزي وأجلسك على فخذه وأعطاك قطعة من الشطيرة، بينما ارتكنت أنا على منضدة الكومبيوتر نصف جالسة فانزلقت عجلات المنضدة لأسقط أرضًا في وضع مخزٍ!!

هرع رمزي مادًا يده إليّ فأمسكتها للحظة دون تفكير، ثم قدّرت أنني أستطيع النهوض دون مساعدة..

- ارتاحي أنت هنا ولأحضر جريدة نفترشها ونجلس جميعًا على الأرض.. لا مشاكل..

وفتح حقيبته وأخرج جريدة اليوم.. تفحص وريقة منها ثم قطع منها جزءًا صغيرًا ووضعه في جيبه..

- لفظ الجلالة.. أبحث عنه قبل افتراش أي جريدة.. هاهاها.. عادة ورثتها عن أمي..

ابتسمت لتصرفه المهذب المتدين وجلسنا نأكل في صمت..

أثناء تناولنا الشاي أخذ رمزي ينظر في شرود إلى الصورة التي أخذتها منه حين أتى ووضعتها على منضدة الكومبيوتر خلفي فانزلقت أرضًا حين سقطتُ.. سمحت لنفسي أن أتأمل ملامحه في الضوء الخافت القادم من خصاص النافذة

المغلق..

كان شعره مجعدًا لكنه ليس خشنًا وقد تراجع للخلف من جانبي رأسه قليلاً رغم سنه الصغيرة.. عيناه ضيقتان كثيفتا الرموش تجعلهما النظارة الطبية تبدوان أصغر من حجمهما مع إخفاء لونهما الحقيقي الذي لا أدري ما هو.. أنفه عظمية طويلة تذكّرني بأنف تمثال الإسكندر في مدخل مكتبة الإسكندرية..

شفتاه ممتلئتان في توازن، وذقنه النصف نامية ترسل أشواكها في كل اتجاه.. ملامحه تعطيني انطباعًا بأنني أعرفه منذ زمن.. ملامح مألوفة عند أغلب المصريين، إلا أنني لا أجد من ملامح أمه في وجهه شيئًا..

نظر نحوي ثم قطب، فأدركت أنه شعر بتحديقي في وجهه فأطرقت أرضًا..

- هـ.. هـ.. هل من الممكن أن أرى باقي الصور.. ا.. ا.. إن لم يكن فيها صور لشيء خاص..

نهضت وجلبت باقي الصور من حقيبتي وجلست أتأمله وهو يتفحصها ويقارنها ببعضها البعض.. قمت لأضيء المصباح علّه يرى بشكل أفضل فطلب مني أن أجلس..

- لا أحب النور.. أعني.. أعني أنني أستطيع الكلام بحرية أكبر عندما لا يحدق أحد في وجهي.. اعذريني.. لكنني بحاجة للكلام معك.. يمكنك إضاءة نور الحمام أو المطبخ لكن لا إضاءة مباشرة أرجوك..

فتحت نور الحمام المواجه له وواربته، فطلب مني أن أغلق بابه تمامًا..

أغلقته وابتسمت في تفهم وإن لم أفهم رغبته تلك كلية، وأضأت الحجرة

المقابلة فأتي ضوؤها من خلفه مخفيًا عني ملامحه كلها..

كنت أنت تغفو على سريرك فأحكمت حولك الغطاء، وجلست إلى جوارك طالبة العون من وجودك.. والقوة..

-.. رنا.. هل من الممكن أن تلتقطي لي صورة بهاتفك.. أريد أن أرى نفسي..

لم يتحرك من مكانه أو ينظر إليّ وأنا أصوّب كاميرتي نحوه وأضغط الزر..

-.. ماذا ترين في الصورة؟ لا أريد أن أراها.. صفيها لي..

كانت الصورة جيدة إذ ساعد الظلام على وضوح التصوير الليلي.. إلا أن ما رأيته لم يكن مثل ما رأيت على أحد من قبل..

- أراك.. أراك جالسًا.. يتصاعد من أطرافك الدخان الأبيض ذاته، وتختفي أطرافه خلفك في الهواء، إلا أن أطرافه مشدودة وليست مرتخية كباقي الناس في الصور..

و... أرى.. عددًا لا نهائيًا من الخيوط تقبض عليها يدك اليسرى وأطرافها تختفي أيضًا في الهواء إلا أنها مرتخية نوعًا..

صمت قليلاً وهز رأسه.. وجّه وجهه لي في بطء فكشف الضوء نصف وجهه وغرق الآخر في الظلام..

-.... لم تفارق الصور التي رأيتها معك مخيلتي.. لم أر شيئًا مثلها من قبل، إلا أنني أشعر بها منذ طفولتي..

كنت أنا الابن الأصغر كما تعلمين، وتوفي والدي وأنا بعد لم أكمل عامي الأول.. أخوتي الكبار متقاربون في السن نوعًا، وقد أتيت إلى الدنيا وأصغرهم في العاشرة من عمره..

امسك رمزي الشاي بكلتا كفيه ورشف رشفة منه وصمت حتى ظننته لن يكمل أبدًا..

- كنت "خطئًا" كما اعتادت أمي أن تذكر لي.. أتيت وقد تعدّت الأربعين من العمر وصار الحمل خطرًا بالنسبة لها.. حاولت الخلاص مني.. لكنني أتيت رغمًا عنها.. توفي والدي فالتصقت بي تهمة الشؤم وأنا بعد لا أعرف معناها..

صارت أمي عصبية لا تكف عن الصراخ فيّ وفي إخوتي، لكن إخوتي كانوا عصبة وكانوا يستعينون ببعضهم على تحمل عصبيتها وأوامرها التي لا ينفذون منها شيئًا فتزداد هي عصبية.. وتفرغ عصبيتها في.. في لومي على أنني جئت إلى الدنيا وركلت بقدمي زوجها منها..

لم يكن من المسموح لي أن أصرخ أو أبكي إذا استشعرت ألمًا أو رغبة لم تلبّها لي.. لم يكن هناك إلا جملة واحدة منها.. "ولد.. اصمت!"..

أحتضنك يا بني إذ أتخيل رمزي صغيرًا لا يجد من يحتضنه.. لا يجد من يمكث بجانبه حتى ينام.. لا يجد من يضحك على زلاته الصغيرة ويعلمه الصواب من الخطأ.. أحتضنك فأشعر أنني أحتضن رمزي الصغير..

- كنت أخاف أن أنام معها في سريرها الواسع بعكس كل الأطفال.. لم يكن لي مكان في حجرات إخوتي، وما كانوا ليطيقوا طفلاً يستكشف أدراجهم وكنوزهم المخبأة..

كنت أنام على طرف السرير بعيدًا عنها حتى لا أوقظها إن تقلبت.. أصحو كل خمس دقائق مذعورًا من أن أبول على سريرها، كما كنت أفعل في الليالي الماضية.. أحبس البول حتى لا أوقظها لتضيء لي الممر إلى الحمام..

من فرجة باب الغرفة كنت أرى طرف باب الحمام الموارب.. يا ليتهم يغلقونه أو يفتحونه على مصراعيه! أرى في ظلامه يد بيضاء تمتد من جانب الحمام إلى الجانب الآخر.. تمتد وكأن طولها يتعدى المترين.. يتبع اليد جسدًا أبيض محنيًا عاريًا.. أرى منه ثديًا متدليًا مجعدًا يتبعه آخر أطول منه.. ثم أرى الرأس.. الرأس مشعثة الشعر لامرأة أعرفها جيدًا... ((أمي؟!))... تنظر لي للحظة ثم تتابع مرورها إلى جانب الحمام الآخر.. عيناها فجوتان وفمها مفتوح أحمر كنصف ثمرة طماطم مجوفة تالفة..

أرتعد يابني من كلماته.. تتجمد الأحرف على لساني فلا أستطيع إلا أن أصدر صوتًا مرتجفًا متأوهًا.. أضم رأسك إلى جسدي وأسد أذنيك وكأنهما أذناي..

- أغمض عيناي وألف جسدي بسرعة.. تستيقظ أمي وتنقلب على ظهرها وهي تصدر صوتًا مزمجرًا مولولاً.. أرى نصف وجهها الأبيض وفجوة عينها.. تواجهني فأرى نصف ثمرة الطماطم.. و.... يبتل الفراش من تحتي!

لا أجدني قادرًا على تمييز الهلاوس من الحقيقة إلا عندما تفتح أمي النور وتسحب الغطاء عني كاشفة البقعة غامقة اللون من تحتي..

لن أحكي لك عن اللوم.. لن أحكي عن الإهانة.. فقط أريدك أن تعرفي شعورًا آخر لطفل بذل جهده كي لا يتبول في فراشه.. شعورًا بأنني لست رجلاً.. الرجل الذي لا يستطيع التحكم في جهازه البولي لن يستطع التحكم في حياته مطلقًا..

أصبحت رحلاتي للحمام قبل النوم وفي الساعة الرابعة فجرًا من مهام أمي التي تقوم بها مصحوبة بالسباب.. تحكمتْ في بلل الفراش، وامتدّ تحكمها إلى ما هو أبعد في حياتي.. مواعيد استيقاظي ونومي.. استذكاري.. هواياتي..

رغباتي.. وتركت أنا نفسي لها لتقودني وقد ظلت عبارة "الرجل الذي لا يستطيع التحكم في جهازه البولي لن يستطع التحكم في حياته مطلقًا.." هي مبرري لذلك الاستسلام..

أحيانًا كنت أشعر شعور الدمية المنقادة بلا إرادة منها، لكنها تعلم أنه إذا انقطعت خيوطها فسيحكم عليها بالشلل..

مد رمزي قدميه أمامه وفركهما.. خلع نظارته ومسح عينيه.. يداه مبتلتان.. سأتظاهر أنني لم أر دموعه..

- تولد بيني وبين أمي حب غير معتاد.. حب الدمية لمحركها الذي يهبها الحياة.. وحب صانع الدمية لصنيعة يديه.. كانت دائمًا تفخر بأنني أكثر إخوتي هدوءًا وطاعة لها.. وهل للدمية من اختيار؟!

عندما رأيت صورك عادت لي كل تلك الذكريات فجأة.. أدركت أن الوضع يختلف كثيرًا عن مجرد جمل فلسفية نصف بها أنفسنا بالـ"دمى" في يد آخرين.. إننا نستحيل دمى بالفعل يا رنا ولا يرى أحدنا خيوطه ولا خيوط الآخرين! هل تدركين أن ما نظنه حرية هو مجرد انتقال الخيوط من يد إلى يد أخرى؟!! هل يوجد مفر من عبوديتنا تلك؟!

كان صوته يعلو وقد خفت أن يسمعه أحد الجيران.. فقمت من جانبك وجلست على ركبتي على الأرض أمامه وأخذت من يده الصور وفردتها أمامنا..

- رمزي.. ليس الوضع كما تظن.. دعني أخبرك شيئين: الشيء الأول هو أن هناك من يتحكم في فئات معينة من الشباب.. ومن الأطفال أيضًا، يمكنني أن أرى من خلال موهب... ا.. أقصد الصور.. إن الأطفال يبدأ التحكم في أكثرهم في سن المدرسة، وإن الشباب بعد سن الدراسة يكونون تحت التحكم

أيضًا بشكل ما.. هنا انتقل إلى الشيء الثاني.. أريد أن أخبرك سرًا وأرجو أن تفهمه.. أظن أنك ستتفهمه بعد ما رأيت الصور..

وشرعت أحكي له عن موهبتي السوداء منذ أن حملت بك حتى يوم أن اكتشفت الصور، لكنني ادخرت يوم أن رأيته يتحكم في الطفلة أثناء الدرس في منزله إلى النهاية..

كان ينصت إليّ وعيناه تتسعان.. لم يقاطعني قطّ إلا حين ذكرت له ما كان منه مع الطفلة..

– أنا؟!!! أنا فعلت ذلك؟! أنا فعلاً لا أذكر تفاصيل دروسي في المدرسة أو خارجها، لكنني كنت أعزو ذلك إلى كوني محملاً أكثر مما يجب بالهموم والمشاغل..

– لاحظت أيضًا أنك تتحدث بطلاقة أثناء الدروس و.. وتصبح شخصيتك مختلفة قليلاً.. أشرس نوعًا..

قطب جبينه ولم يدر ماذا يقول.. أنا أيضًا كنت مشوشة، وتتزاحم الكلمات والتفاسير على لساني فيدوس بعضها بعضًا..

–.. حسنا.. نستطيع أن نرتب أفكارنا بشكل عملي.. بالنسبة للأطفال.. إلى جانب مشاعرهم التي ترينها بموهبتك، ينقسم الأطفال إلى ثلاثة أقسام: أطفال يتحكم فيهم مدرسوهم فقط، وأطفال يتحكم فيهم أولياء أمورهم ومدرسوهم، وأطفال يتحكمون في أولياء أمورهم ويتحكم مدرسوهم فيهم.. ربما كانت سلطة المدرسة تمتد عبر الأطفال إلى أولياء الأمور..

أومأت برأسي موافقة وأنا أبحث عن ثغرات في كلامه فلم أجد إلا..

– هناك قسم رابع.. أطفال لا يتحكم فيهم أحد.. مثل آسر..

- ربما هو في سن أصغر من أن يقوده أحد فيها؟

- ربما....

- بالنسبة للشباب.. قسم يتحكم فيه سلطة ما.. ربما كانت الحكومة أو الآباء أو أي سلطة دنيوية عليا.. وقسم لا يتحكم فيه أحد وهم نادرون.. مثلك..

- إذن هناك فئة لا يتحكم فيها أحد! أعني ربما يكون آسر منهم!

- ربما.. وربما أنهم قد تخلصوا ممن يتحكم فيهم..

- لكن.. أترى أن هناك عدة سلطات تتحكم في البشر وليست سلطة واحدة؟

- شيء بديهي.. لكنني لن ألوم من يتحكم.. اللوم على من تركهم يتحكمون فيه.. نوع مما كان يحدث لي وأنا صغير.. أعترف بضعفي رغم كل شيء..

- وهل كنت أنت المخطئ الوحيد؟ من تسبب أولاً في ضعف قدرتك على المقاومة.. ؟ أليست والدتك؟

- أتعلمين.. ربما يتسبب آباؤنا دون أن يدروا في تسهيل مهمة الفئة المسيطرة..

- لن نعرف أبدًا من هي تلك الفئة.. الأمر أشبه بأخطبوط له مائة يد..

- لكن له رأس واحدة.. هدف واحد..

صمتنا قليلاً وكل منا يلوك كلمات الآخر في عقله.. لكنني لم أعرف بعد.. ماذا عليّ أن أفعل؟!

نظرت إلى رمزي ووجدته ينظر لي..

- رنا.. لم أكن أعلم أنك تخبئين كل تلك الـ... ماذا أسميها؟! هموم؟! كيف استطعت الحياة وسط كل تلك الضغوط؟! أنت قوية حقًا.. وأنا الذي كنت أعتبر نفسي بائسًا!

- يعطينا الله القوة قدر ما يعطينا من ابتلاء.. أنت أيضًا لست بالضعف الذي تحسب نفسك به.. أن تبوح بتلك الذكريات هو أمر جيد في سبيل الخلاص من وطأتها..

- لكنني أعتبر البوح تصرف غير رجولي.. نوع من الضعف أن أترك باب عقلي الباطن مواربًا في وجود من يطلّ برأسه داخله..

- هاها.. اعتبرني إذن لم أسمع شيئًا.. فعلاً.. يمكنني أن أنسى كل ما قلته.. لا تقلق..

-.. لا.. لست نادمًا على إخبارك.. أعتبرك.. أعتبرك أحكم من أن تعتبري اعترافي ضعفًا..

كنت أريد أن أستغل وجوده وأتحدث أكثر عن مخاوفي.. عن همومي الخاصة.. عن آسر والطفل الغامض..

- هل المدرسة المجاورة للمنزل تعمل؟

- لا أدري.. بوابتها مهدمة..

- أسمع فيها ضوضاء كلما مررت بها..

- ربما كانت تعمل أو لها باب آخر.. لمَ تسألين؟

- أرى ذلك الطفل الغامض يخرج منها في أحيان كثيرة.. كما أن آسر لا ينقل بصره عنها كلما مررنا أمامها..

- يمكنني أن أسأل إن شئت...... رنا..

- نعم؟

- هل تريدين حقًا الطلاق من زوجك؟ أعني.. وضعك معلق وأرى أنه من الحكمة أن تفكري في الطلاق مرة أخرى.. أو ربما العودة..

- ماذا أفعل بالطلاق وقد نذرت نفسي لابني ولا أخطط للزواج مرة أخرى؟ ثم إن العودة مستحيلة مع وجود زوجة أخرى.. وجودي على ذمته يعطيه حرية أكبر في رؤية آسر على كل حال..

- أتعجب أحيانًا من حب المرأة لأولادها.. أمر معقد فعلاً..

- مشاعر المرأة معقدة.. حتى إنها هي نفسها لا تفهمها في كثير من الأحيان..

- كنت لأتمنى أمًا مثلك..

- أم مجنونة مثلي! لست أمًا مثالية على أية حال.. ربما كنت مخطئة في قراراتي من الأساس..

لا أذكر عم تحدثنا طيلة الساعات التالية.. أذكر أنه مد ساقيه وتحدث.. ثم قام معانيًا من إحساس تنميل ألمّ بقدميه فأخذ في الذهاب والإياب أمامي وهو ينصت.. أذكر أني صنعت كوبي شاي وأنا أستمع إلى ضحكاتك وحديثه معك إذ أيقظك حديثنا.. ثم عدت فوجدته جالسًا على السرير يلاعبك وأنت تضحك وتصفق.. تضحك بتلك الطريقة الهستيرية التي تسبق موعد نومك..

جلست على طرف الفراش الآخر وضممتك إليّ لتنام وأنت تعاني من الفواق من أثر ضحكاتك..

طفقنا نتحدث في الضوء الخافت وأنت نائم بيننا حتى انتصف الليل.. أشعر بخلفية باهتة من الشعور بالذنب والشعور بالمراقبة إزاء سماحي لرمزي بالمكوث كل تلك الفترة، بل والتغاضي عن جلوسه بجانبي على الفراش بهذا الشكل.. مجرد إحساس خافت أعترف بوأده كلما لاحت عليه مظاهر الحياة.. تصرف غريب مني، لكنني وسط تلك الإضاءة وذلك الشعور بوجود آدمي ناضج بجانبي قادر على حمايتي، أشعر أنني مسلوبة الإرادة بشكل ما.. هشة وبحاجة للكلام والاحتواء.. أخشى من أن أترك نفسي لأستيقظ من تلك الغيبوبة فلا أجد رمزي بجانبي حقًا..

لا أدري ما هي تلك الترهات التي أتفوه بها.. للظلام والوحدة مفعول الخمر في رأسي.. لكن.. متى سينتهي مفعولها.. وكيف؟!

نظر رمزي إلى ساعته ثم نظر لي.. لم تكن لي حاجة بأن أعرف الوقت تحديدًا.. لقد تأخر الوقت وكفى.. ما حدث قد حدث ولا يمكن محوه.. لا ضرر من الاستمرار فيه إذن.... ((تأثير الخمر؟!))..

نظر لي ثم همس..

– لا أريد أن أرحل...

ثم مد يده لهاتفه المحمول وأغلقه.. لم يتوقف الهاتف عن الرنين منذ أن تعدت الساعة الرابعة ولا أحتاج لذكاء كي أعرف من المتصل..

((... ما حدث قد حدث ولا يمكن محوه.. لا ضرر من الاستمرار فيه إذن.... (تأثير الخمر؟!)..))!!!

همست وأنا أتحاشى النظر إلى عينيه..

– لا تفعل إذن..

صاحب كلمتي تلك شعور جسدي لم أشعر به منذ.. منذ ليلة دفن جدك؟! شعور لم أشعر به إلا مرات معدودة رغم كوني كنت متزوجة لمدة ستة أعوام..

ذاك شعور يا بني يستشعره الرجال بلا توقف لدى أي إثارة حسية أو معنوية.. ربما يستشعرونه بلا أي سبب أيضًا، لكنه شعور نادر عند المرأة.. شعور ملخصه أن من يستطيع منحي الحماية والأمان لهو رجل قادر على منحي كل شيء.. رغم هشاشة شخصية رمزي وشكي في كونه قادرًا على منحي أي شيء..
((" الرجل الذي لا يستطيع التحكم في جهازة البولي لن يستطع التحكم في حياته مطلقًا.. ")).

إلا أن شعوري بأنه يحتاجني قدر ما أحتاجه هو ما دفع غرائزي في هذا الاتجاه..

يحتاج مني ما حرمته أمه منه.. وأحتاج منه ما تعجز أنت عن إعطائه لي يا بني.. أحتاج أن.. أن أعطيه.. ! شعورًا أموميًا أنثويًا لا أستطيع فهمه أو تبريره.. ألم أقل لك إننا– نحن النساء – لا نفهم أنفسنا في كثير من الأحيان! ظللنا صامتين لوهلة.. ننتظر أن نستفيق من "التنميل" الذي أصاب ذهنينا.. لكننا لم نفق...

خلع حذاءيه وتكوّر حرفيًا في وضع الجنين على طرف الفراش حتى كاد يسقط.. ضم ذراعيه حول ركبتيه وأغمض عينيه..

– أشعر بالبرد..

تمتم بها وأكاد أقسم أنني أسمع من فمه صوت طفل لم يكمل عامه السادس.. تغير بسيط في طبقة صوته لكنني استشعرته بوضوح..

فردت الغطاء الذي كنت أغطيك به وأكوم طرفه بجانبك على رمزي فلم

يتحرك رغم أن الغطاء قد غطى وجهه.. أزلت الغطاء من على وجهه ودفنته بين كتفه وذقنه كما أفعل معك دومًا.. لمست ذراعي شفتاه فقبلها قبلة سريعة أرسلت القشعريرة في جسدي..

سحبت يدي وأنا أنظر إليه متسعة العينين.. لم يفتح عينيه و لم يتحرك.. دقائق وانتظم تنفسه.. لقد نام إذن..

ظل ذلك الشعور الجسدي يزلمني.. ماذا أريد حقًّا؟!! ظللت أحدق في وجهه الهادئ والنظارة قد مالت على قصبة أنفه فصارت إحدى عدساتها مغروسة في خده والأخرى تغطي حاجبه..

لم أجرؤ على أن أمد يدي وأنزعها عنه.. كلما أغمضت عينيّ وأنا جالسة، أشعر بيده تتلمس جسدي هنا وهناك.. أفتح عيني فزعة فأجده نائمًا وإن كان قد انقلب على جانبه الآخر موليًا إياي ظهره..

أغوص في نومي وأصحو مذعورة كل خمس دقائق وما زال الشعور يزداد سخونة ولزوجة..

أقوم مترنحة إلى الحمام، وأغلق المزلاج من الداخل.. أخلع ملابسي وأقف تحت الماء الساخن وصوت هدير سخان الغاز يهدّئ من ارتجافي..

تنهمر المياه على جسدي وتتلمس كل موضع اشتاق للمس.. أتذكر الآن أنني امرأة.. أتذكر تحرري من قيد زوجي وقيد أنوثتي.. إلا أن موضع القيود قد حُفر للأبد وصار ملتهبًا.. حساسًا للمس.. صار عدم التقيد هو القيد بعينه..

إلى متى سأستمر بالتظاهر بأنني لم أفقد أي شيء؟ إلى متى يستطيع الأعمى إنكار الظلمات من حوله.. إلى متى؟؟!!!

******

باقي ما كتبته رنا مهنى في ١٦ فبراير ٢٠١١

نمت على الكرسي في الحجرة الخالية حتى الصباح.. نوم ساعتين متواصلتين جعلني أستيقظ بعقل جديد لا يدري عن أحداث الأمس شيئًا..

بشكل ما تفاجأت برمزي في سريري واحتاج الأمر إلى بضع دقائق لتذكر ما حدث، فالثورة علي وعلى ضعفي وجنوني..
تصيح الأنثى أنه لم يحدث شيء، ويصيح عقلي بأن "الموت للعاهرة"!
وقفت بجانب السرير ألهث وأنا أنظر لرمزي في غضب وحقد.. أمسك زجاجة المياه في يدي وأخز بها جانبه ليستيقظ..

- أنت.. أنت.... ليس هذا فندقًا.. قم.. !

يستيقظ الرجل ويعدل من وضع نظارته على أنفه..

- ماما؟!.. رنا.. رنا!؟؟؟ م... م.. ماذا ت.. ت.. تفعلين؟!!!
أرى في عينيه نظرة طفل مذعور قد اكتشف لتوّه أنه بلل فراشه رغم محاولاته المستميتة كي لا يفعل..

- أنت.. ماذا تظن نفسك؟ هه؟ كيف.. كيف تسمح لنفسك بالنوم هنا؟! بل كيف تسمح لنفسك بأن تدخل منزلي؟!!

- ا.. ا.. أنت.. أنت.. سمحت لي.. لم يحدث شيء!

- و.. وكيف سمحت أنت لنفسك؟!

أجذبه من ملابسه فيقوم وهو يلقي نظرة على السرير من خلفه.. ((يتأكد من أنه لم يفعلها في سنه هذه؟! !))..

- انظر.. ما هذا على رأسي؟!!

-.. ا.. ا.. حجاب؟!

- نعم.. حجاب.. لا ترتدي المرأة حجابًا في الغالب إلا لسببين: إما أن تكون صلعاء، وإما أن تكون متدينة..

((وإما أن تكون دمية دفعوها لتبدو صلعاء أو متدينة؟!))

- وأنت لن تحب أن تعبث مع امرأة صلعاء أو متدينة.. في كل الحالات.. اخرج من بيتي.. اخرج!

لملم ثيابه وهو ينظر إليّ في عدم فهم.. أن يطرد المرء "على الريق" هكذا لهو أمر عسير الابتلاع على معدة خاوية..!!

أدفعه دفعًا وأصفع خلفه الباب وهو لم يزل حافيًا وقد أمسك إحدى فردتي الحذاء في يد ودسّ مقدمة قدمه في الأخرى..

أقف خلف الباب وأبكي.. لا أعلم ماذا دهاني.. لقد تذكرت أنني أنثى فجأة، وقد خلتني نسيت..

صوته خلف الباب يترجاني كي أهدأ لكن صوتي يعلو وأجهش بالبكاء..

- رمزي.. يكفي هذا.. ارحل.. ارحل قبل أن يراك أحد..

ويرحل رمزي....

******

صندوق الدمى

..نوح راح لحاله والطوفان استمر
..مركبنا تايهة لسه مش لاقيالها بر
..آه من الطوفان وآهين يا بر الأمان
..إزاي تبان والدنيا غرقانة شر

صلاح جاهين

ما يلي هو ملخص لما حدث
من فبراير ٢٠١١ إلى أواخر عام ٢٠١٥،
وهو وجهة نظر الراوي الخاصة
ولا دخل لرنا مهتى بها..

ما حدث..

رغم عدم وجود طريقة للتأكد من كوني أحد تلكم الدمى التي ذكرتها رنا في مذكراتها إلا أنني متأكد من كوننا جميعًا دمى بشكل أو بآخر، شئنا أم أبينا..

فكّر وأخبرني.. كم بالمائة من تصرفاتك نابعة منك وحدك؟! بلا تأثير من أي نوع؟ تكذب إن تعدّت النسبة الخمسة بالمائة، وكلها بالمناسبة قرارات غير مصيرية!

إن لم يقيدك طبيبك بغذاء معين أو يقيدك مرتبك الهزيل فأنت تأكل ما تشاء.. قرار غير مصيري..

يمكنك قضاء حاجتك وقتما تشاء إن وجدت مكانًا لذلك.. قرار غير مصيري..

مممم.. ماذا أيضًا؟!!! لا شيء؟! أحيانًا نظن أننا نختار في حين أنه لا يوجد إلا خيار واحد من الأساس.. عندما تركن سيارتك فأنت تظن أنك وجدت لها مكانًا مناسبًا؟ في حين أنك لم تجد إلا هذا المكان.. خذه أو اتركه.. فتقنع نفسك إنه المكان المناسب للرجل المناسب..

تختار زوجتك وتعدد محاسنها فقط كي لا تتذكر أنها هي الوحيدة التي صادف

أن قبل بها أهلك وقبلت هي بك، فلا أنت اخترت ولا هي اختارت.. فقط كانت موجودة وأنت كنت مستعدًا لتأخذها..

تعمل لأنه لا وظيفة إلا تلك.. تسكن لأنه لا بديل إلا ذلك..
لكنني لا أعتقد أن رنا كانت ترى ذلك الجانب من الانقياد من خلال موهبتها السوداء كما كانت تسميها.. أظنها كانت تقصد تلك القوى البشرية التي تتحكم في طريقة تفكيرنا لتقودنا إلى هوّة لا نراها..

أظن أيضًا أن الأحداث التي شهدتها هي خير دليل على أن ما رأته رنا لم يكن هلاوس، وبالتأكيد كانت بعيدة كل البعد عن التفسيرات الفلسفية الملتفة التي تنطبق على أي شيء..

لقد عاشت رنا مع ابنها آسر فترة قصيرة ظنت من خلالها أنها عرفت ما يجب عليها أن تقوم به وقامت به فعلاً.. انتابتها نوبات من الندم من وقت لآخر وخصوصًا بعد تلك الليلة التي ألقت فيها نظرة على العقل الباطن لرجل ظنته لفترة ممن يتحكمون في الآخرين..

لم تخلُ لياليها بعدها من زلازل في نفسها تبعها "تسونامي" من الغرائز التي ظنت أنها قد ألقتها وراءها مع زين وشقتها في القاهرة وماضيها بأكمله.. غرائز أشبه بالفحم المنطفئ الذي حركه – فقط حركه – زين مرة أو مرتين ثم تركه يلتهم نفسه تحت مظهره الهادي حتى أتى من كشفه للهواء مرة أخرى فغدا من المستحيل تجاهله..

ظنت رنا أن أمومتها قد منعت الهواء تمامًا عن الفحم فخمد، لكن اكتشافها الصغير الأخير قد أضرم النار في ثقتها بنفسها.. في ثقتها بأنها تحولت إلى تمثال أخيرًا..

أعلم كما تعلم هي أن رمزي ليس الرجل الذي يستطيع إعطاءها– نفسيًا

وجسديًا - ما تريد.. ليس من تسعى من أجله إلى الطلاق، أو من تهدم معبد تدينها على رأسها من أجل ليلة أو ليالٍ بين ذراعيه..

لم يكن رمزي رجلاً فعلاً.. كان طفلاً تعجلوا ووضعوه في وعاء كبير ذي شارب ولحية وأعضاء تناسلية ناضجة.. كان يهرول في جسده الكبير هنا وهناك، يحاول التحكم في عقله فتفلت قدماه.. يمسك في هاتين فلا تصل يداه إلى لسانه.. فيتلعثم ويتعثر ويتخبط.. ويزداد الطفل تضاؤلاً فيه.. وتزداد قيوده..

دومًا ما يعتبر الشرقيون أن أي رجل أو امرأة مكتملين جسديًا هم رجل وامرأة قادرين على بناء علاقة ناجحة..

هكذا اعتبرت رنا رمزي رجلاً، وتخيلها هو بديلاً عاقلاً لأمه.. توجهه لكن لا تفرض توجيهاتها عليه.. هو من يفرضها على نفسه!!

كيف عادت تكلمه بعد أن طردته؟! لقد توقفت رنا عن الكتابة لآسر في ذلك اليوم وقد شعرت أن الأمر قد بدأ يفلت منها، وأن المذكرات لم تعد صالحة كي يطلع عليها طفل أو مراهق أو شاب هو في النهاية ابنها! إلا أنها واصلت كتابة مذكراتها لابنها بطريقة أكثر جفافًا عن ذي قبل من حين إلى آخر.. لم تعد قادرة على تدوين تخبطاتها أو حتى الكذب.. كانت تتحدث عن نمو ابنها وانبهارها بقدراته.. تكتب عن تلك المدرسة الغريبة التي قادتها الأقدار كي تلحق ابنها بها.. تكتب في آخر صفحاتها عن انتوائها اقتحام تلك المدرسة واستعادة ابنها مهما كان الثمن..

أما بالنسبة لموضوع عودة رنا للحديث مع رمزي، فإن رنا قد اتصلت برمزي مرة أخرى واعتذرت له بعد أن باءت محاولاتها - المخزية من وجهة نظري - لاستمالة زين مرة أخرى بالفشل..

لقد زهدها زين كزوجة بعد أن أنجبت له إيناس بنتًا.. كان يزور آسر ويتحدث معها لكنه لم يعد أبدًا راغبًا فيها كامرأة.. وإن سألته الطلاق جديًا مرة أخرى لكان قد طلقها.. لم يكرهها بعد لكنها لم تعد مصدر قلق بالنسبة له.. لم تختطف ابنه ولم تحرمه رؤيته.. هكذا تلاشت ذكراها كامرأة من عقله، وصارت محاولاتها معه مثيرة للشفقة..

بعض من رنا أراد الانتقام من زين.. أراد الانتقام من الأنثى الثائرة بداخلها.. أراد الانتقام من تدينها والسخرية منه.. لذا.. لم تجد إلا رمزي لتعاقب نفسها به وهي تظن أنها تحررت أخيرًا من زين وصار من حقها الاختيار.. ((الاختيار بين رمزي ومن؟!!))

أذكر أيضًا أن رمزي قد شعر أحيانًا بعدم جدوى علاقته برنا.. فمع إحكام أمه المراقبة عليه لشكها في علاقته برنا، صار من الصعب الاستمرار في الحديث معها ومداعبة ابنها.. و.. فقط! كان ينتظر أولى تجاربه الجنسية التي تصور أنها ستكون أسهل مع امرأة لها تجربة في هذا الصدد.. امرأة تقوده إلى ما يجب أن يفعله، وفي الوقت نفسه امرأة لن تسخر منه.. امرأة تشبه أمه إلى حد كبير..
لكن تلك التجربة المثيرة لم تحدث قط! سئم رمزي رنا بعد عدة أشهر كما سئم حديثها عن الموهبة السوداء إلا أن انجذابه لأمومتها كان يدفعه لمعاودة الاتصال بها من وقت لآخر..

انشغال رنا بحياتها الخاصة جعل من زيارات الطفل الغامض لها حدثًا نادرًا، إلا أن ذعرها من عودة تدخلاته السافرة جعلها تتحاشى حتى التفكير في موضوع إجراء عملية ابنها..

كذبت على زين يومها في الهاتف وأخبرته أنها أجرت التحاليل اللازمة للصبي واتضح خطأ الطبيب.. ابنهما ذكر ولا يحتاج إلى أي شيء..

هكذا استمرت حياة رنا.. هادئة.. مملة.. لا يملؤها شيء إلا حب آسر ونموه أمامها الذي أعطاها في كثير من الأحيان القوة للاستمرار، والأمل في غد أكثر حيوية وحياة..

قيود قديمة ..

امتدت سطوة السيدة سكينة على رمزي منذ صباه.. لا أرى ما سيمنع السيدة عن سطوتها إلا موت رمزي ذاته. فحتى في موتها هي، لن تترك ذكراها خيوط دميتها أبدًا..

هي من اختارت التدريس مهنة لرمزي ولم يمانع.. لا توجد مهنة أخرى يتشبث بها على أية حال..

في صباح اليوم الثاني عشر من يوم تخرجه، اصطحبت السيدة سكينة ابنها ذي الواحد والعشرين عامًا إلى فرع مجاور لمنزلهم لإحدى المدارس الشهيرة..

سلسلة مدارس بدأت في الانتشار في منتصف السبعينيات وتزعم تميزها وتفردها في التربية قبل التعليم..

الطاعة من أهم السمات المميزة لخريجيها المتفوقين.. الطاعة وتسطح الشخصية.. تستطيع تمييزهم صباحًا من الوجه الخالي من التعبير في انتظار المواصلات لتقلهم إلى أعمالهم.. يسيرون كمستطيل بشري واحد.. نفس الخطوة.. نفس الوجوه.. ولكنني لا أزعم أن لهم نفس العقول؛ إذ لا عقول أصلاً في جماجم لا تحوي إلا علمًا سطحيًا وإرادة مندثرة..

انتشرت تلك المدارس التي تحذو حذو المدرسة الأصلية في كل أنحاء مصر

بأسماء مختلفة.. تعددت الأسماء والأصل واحد..

ربما كنت أنت نفسك خريج إحدى تلك المدارس، لكنك لن تذكر مهما فعلت المقابلة الأولى لك مع والديك وإدارة المدرسة.. لن تذكر – ولن يتذكر أبواك أيضًا – عينة الدم التي أخذوها منك ومن أحد والديك حسب نوعك إن كنت ذكرًا أم أنثى..

لن تذكر مهما حاولت فترات معينة في حياتك الدراسية.. مواقف قرر عقلك تعطيتها فصارت كأثاث قديم مغطى بملاءة تخفي ماهيته..

فجوات في ذاكرتك هنا وهناك يقسم آباؤك وأجدادك على عدم وجودها في ذاكرتهم.. يعزون ذلك إلى ضعف ذاكرة هذا الجيل شحيح التغذية.. وأعزوها أنا إلى شيء مختلف تمامًا اتضح لي بعد ما حدث مع رنا وغيرها في تلك المدارس..

عندما دخل رمزي مع والدته لمقابلة المديرة، كانت السيدة جالسة خلف مكتبها ممسكة بجريدة.. تبدى من خلف الجريدة شعرها الرمادي الناعم المعقوص خلف رأسها.. لم ير رمزي من خلف الجريدة تجاعيد وجهها المفرودة رغمًا عنها بحشوات البوتوكس والكولاجين و"الفيلرز"..

لم ير تلك الأهداب الرمادية التي تنمو من مقلتي عينيها وتتراقص في بطء في حركة شبيهة بحركة بعض أنواع الشعاب المرجانية. يستطيل بعضها عن الآخر ويتلمس سطور الجريدة وكأنها تقرأ بطريقة "برايل" خاصة بها..

تنتبه السيدة لنحنحة رمزي فتغلق عينيها لثوانٍ وتنزل الجريدة.. تفتح عينيها كاشفة عن قزحيتين زرقاوين أعطيتا لوجهها مظهرًا أرستقراطيًا وجاذبية لا يمكن تجاهلها..

لم تسأل السيدة "خوشيار" عن مؤهلات رمزي قدر أسئلتها الشخصية عنه

والتي أجابت عنها كلها أمه بزهو وفخر..

كانت خوشيار تهز رأسها استحسانًا بعد كل كلمة من السيدة سكينة عن طاعة وهدوء رمزي، خاصة حين ختمت السيدة سكينة أقوالها بأن رمزي "من إيدك دي لإيدك دي"..

طلبت السيدة خوشيار من رمزي عينة من دمه أخذتها بنفسها بطريقة غريبة بعض الشيء.. أخرجت من درج مكتبها سكينًا رفيعًا فضيًّا مزدوج الطرف وغرسته برفق في بنصر رمزي وأخذت قطرة واحدة على طرف السكين، ثم استدارت ومسحتها في لفافة من خيوط الكتان فتلوّت الأخيرة كحزمة ديدان ثم سكنت..

لن يذكر رمزي أو والدته أيًا من تلك التفاصيل بمجرد خروجهم من مكتب المديرة.. وإن كنت مدرسًا عزيزي القارئ فأنا أرجح مرورك بتجربة مشابهة لن تذكر منها شيئًا.. هذا طبعًا إن لم تكن من الفئة النادرة التي رحمها الله..
منذ ذلك اليوم وحتى بداية الدراسة، لم ينم رمزي.. كان يصاب بنوبات هياج وارتفاع درجة الحرارة.. للحظات كان يكره أمه وفكر مرة او اثنتين في شج رأسها او استبدال دوائها بسم ما.. لكن قبل دخول مخططاته حيز التنفيذ، يجد نفسه يبكي وينهار ويقضي ما تبقى من اليوم في الاستعاذة بالله من الشيطان وهمزه ونفثه..

كان يستفيق ليلاً من نومه على شعور حارق حول معصميه وكاحليه و لم يمتد من داخل جمجمته إلى سقف غرفته..

كانت الأعراض تقلّ تدريجيًا وإن لم يجد طبيبه سببًا لها أو سببًا لزوالها.. لقد زالت من تلقاء نفسها تمامًا في أول يوم له في التدريس..

ارتعدت مفاصله حين دخل الصف لأول مرة وامتلأت رئتاه بعبق الأحذية الجديدة ورائحة الأوراق وبلاستيك الحقائب الملونة..

ظل يرمق الأرضية وأحذية الطلبة.. يستطيع أن يعرف حقائب الفتية من حقائب الفتيات بسهولة.. فحقائب الفتية زرقاء يعلوها صور لسبايدر مان، أما حقائب الفتيات فوردية مزدانة بصور الدمية باربي أو نسختها (المتأسلمة) "فلة"..

يستطيع ان يعدّ من الطلبة اثنان لا تحمل حقائبهما صورًا مماثلة.. رفع عينيه إلى وجهيهما.. يحدق الطلبة فيه بوجوه خاملة إلا هذين الطالبين.. تلمع أعينهما في ذكاء وتحدٍّ.. يتوقعان منه شيئًا لا يملكه..

تُصدر معدته صوتًا مشوّمًا ويشعر برغبة عارمة في إفراغ أمعائه.. يعلم أنه سيتلعثم ويتهته مع أول محاولة له لإلقاء تحية الصباح..

يفتح فمه مع انفتاح باب الفصل ودخول السيدة خوشبار.. تلت تحية الصباح فرد عليها التلاميذ بطريقتهم الممطوطة المقطوعة الأنفاس.. يلقي الطالبان المختلفان التحية بطريقتهم العادية فينتهيان من الكلام قبل الحشد بثوانٍ..
ترمقهم خوشبار بنظرة طويلة، تمسحهم مسحًا كالأشعة المقطعية..
تسلم لرمزي عصا.. عصا كالتي يحملها كل المدرسين، لكنها ملفوفة بشريط بلاستيكي أسود.. شعر رمزي بعد استلامها بشيء يسري إليه.. ويسري منه.. ومن يومها تخلص رمزي من لثغته ومن خوفه، وصار يعلم من تلقاء نفسه طريقه التعامل مع الطلبة المختلفين.. ذلك ما رأته رنا منه مع الطفلة رشا في الدرس..

إلا أن رمزي لم يكذب عليها حين أخبرها أنه لا يذكر شيئًا من دروسه.. لا يذكر معاملته للطلبة.. فقط عندما يغادر رمزي بوابة المدرسة.. تعود له لعثمته

واضطراب أعصابه..

وإذا نظرنا بعين الموهبة السوداء، نرى خيوطًا دخانية تمتد من التلاميذ إليه في المدرسة، وأخرى تمتد منه إلى مكان غامض..
فقط عندما يغادر رمزي بوابة المدرسة.. تعود له لعثمته واضطراب أعصابه..
وتعود خيوطه إلى أمه مرة أخرى..

و قيود جديدة..

تقول رنا مهنى في مذكراتها الخاصة التي واظبت على كتابتها على جهاز الكومبيوتر الخاص بها منذ أواخر عام ٢٠١١ :

"أعلم أنني أعبث في مصدر رزقي من أجل شيء لا يستحق تلك التضحية.. يقول المثل الأمريكي الوقح بعض الشيء !don't shit where you eat وإنني لأفعل ذلك بجدارة تلك الأيام! أعرف أن السيدة سكينة تعلم بعلاقتي "العائمة" بابنها، وهي تحاول الآن إبعادي عنه بكل الطرق.. لقد باتت تقيم في المكتبة ولا تتركها إلا في موعد انتهاء اليوم الدراسي، فتهرول بخطوة البطة المميزة لها لتصحب رمزي إلى المنزل.. رمزي لا يعطي دروسًا خارج المنزل أبدًا، وبهذا فإنه سيظل حبيسًا حتى إشعار آخر.. تخشى المرأة طردي من المكتبة حتى لا أبتعد عن ناظريها، وإنني لأشعر أحيانا برغبة تطل من عينيها لقتلي..

لست متمسكة برمزي إلى هذا الحد، وهي لن تعطي نفسها فرصة كي تراني أبتعد عنه..

رمزي نفسه أصبح محيرًا.. أحيانًا أجده مستسلمًا لأمه وكأنه لا يعرفني حتى وإن تلاقت عينانا.. وأحيانا أخرى – وهي أحيان نادرة – أجده يتحداها علانية ويأتي لرؤيتي رغمًا عنها. لا أعلم ما هي نهاية هذا الموقف، وإنني لأتوق لإنهائه..

أعلم أنه لا فرصة لي في التعرف إلى أي رجل آخر.. رجل كامل، خاصة وأن مشكلتي لم تعد فقط كوني متزوجة أو أما.. مشكلتي الأكبر هي كاميرا الموبايل التي صارت تعطيني نسبًا لا تصدق عن أعداد الرجال الدمى من حولي..
مع مرور الأيام ورؤيتي لآسر يكبر أمامي، أرى مستقبلي البارد الخالي.. أراني سكينة أخرى تحكم قيودها على ابنها مستعيضة عنه بالزوج والحبيب..
هل أطلب من زين أن أعود له صراحة؟!................"

رنا لا تختلف كثيرًا عن أغلب النساء.. رغم كونها كانت تعتبر نفسها من "غريبي الأطوار" كما ذكرت من قبل، إلا أنها امرأة شرقية لم تتعلم أصول الحياة بلا رجل، ولم تتعلم أيضًا أصول الحياة مع رجل.. امرأة ترى نفسها ضحية في كل الأوقات، وبالتالي فلن تسعى أبدًا للتغير..

ليس الحل في العودة لأقرب رجل ممكن، ولا الارتماء في أي علاقة مع أي رجل آخر.. السؤال هو: لم أريد هذا الرجل؟ ولم هذا الرجل دون سواه؟؟ ماذا أستطيع أن أقدم له قبل أن أتساءل ماذا يستطيع أن يقدم لي..؟؟

للأسف فإن رنا دمية من نوع خاص، دمية بلا قيود.. يحركها – أو لا يحركها – عدم التقيد.. عدم وضوح الرؤية وعدم تحديد الهدف..

كل الطرق تؤدي إلى مكان ما.. المهم، أين تريد أن تذهب أنت؟!

خطط مزدوجة..

لم يستطع زين قطّ أن ينسى تأنيب ضميره كلما ضم ابنته الصغيرة "لي لي" أو أسدل عليها الغطاء عندما تغطّ في النوم..

كان يشعر أن جزءًا منه في الإسكندرية دون أن يبذل قصارى جهده في استرداده..

بالفعل لم يفعل زين أكثر من الاطمئنان على آسر، و لم يسعَ قطّ إلى أخذ الولد.. هو يعلم أن إيناس لن تقبل بتربية طفل ليس طفلها، وعودة رنا له صارت شبه مستحيلة.. أصبحت لا تمثل له الآن إلا أم ابنه.. لا يستطيع تذكر كيف كان ينام إلى جوارها ويلمسها حتى.. يشعر بشفقة عليها، لكنه أعطاها من الفرص ما يكفي، وقد اختارت هي طريقها..

لكن زين لم تزل تراوده الشكوك حول حياتها وحيدة.. شكوك تدور حول اي مطلقة عربية لكنها أولاً ليست مطلقة، هي زوجته، والأهم.. آسر مازال معها..

******

لم ير زين الطفل الأزرق من يوم حادث السيارة وحتى أواخر عام ٢٠١٣.. كان يعلم أن منال قد تم إبعادها من حياة رنا بإرادة رنا شخصيًا.. تحدثت منال

أولاً عن غرابة أطوار رنا، ثم بُعدها التدريجي عنها.. لم تعد تتصل بها بشكل مستمر رغم محاولات منال التحدث إليها أو حتى إرغامها على الحكي..
زين لم يكن ابن البارحة، وكان متأكدًا من شيء واحد.. لا تكف المرأة عن الحكي لصديقاتها ما لم يكن في حياتها رجل تحكي له.. ولا تبتعد المرأة عن صديقتها الوحيدة بلا مبرر ما لم تكن ثمة علاقة غير شرعية بهذا الرجل..

إن مشاطرة المرأة للمرأة همومها هو من باب الفضفضة، فلا تملك المرأة لمثيلتها إلا الدعم المعنوي.. أما ما يُغني المرأة حقًا عن الحكي لصديقاتها فهو رجل يستمع ويعطي حلولاً، ثم يحتوي جسديًا ومعنويًا، وهي أشياء - كما يراها زين - غير منصفة مقارنة بما تمنحه المرأة لأخرى..

جلس يدخن في شرفة حجرة نومه وهو يرمق إيناس الغافية في هدوء..

يفكر بشكل ضبابي في علاقاته المتعددة السابقة.. مهما اختلفت النساء، فلن تستطيع إحدهن مهما حاولت أن تنسى جسدها الأنثوي الكثير التفاصيل والعميق الرغبات.. يقولون إن النساء في الأمازون قد أصبحن أنصاف رجال.. يقطعن أثداءهن كي لا تعيقهن عن الرمي بالقوس، ولا تتعاملن مع الرجال إلا للتكاثر فقط..

حتى وإن كان موضوع قطع الثدي هذا غير منطقي، فهو يراه رمزًا قويًا للمرأة (المسترجلة).. يراهن منكوشات الشعر يدخن التبغ والنارجيلة ويتحدثن في السياسة بصوت أجش مرتفع.. يراهن أمازونيات تخلصن من رمز أنوثتهن الظاهر ويغطين ما تبقى بدخان التبغ.. ولكن.. من يستطيع تحديد ما تشعر به الأمازونية حقًا دون مكابرة؟ وهل علاقتها المؤقتة بأي ذكر لهدف التكاثر هي حقًا علاقة عملية لا شهوة فيها أم هو نوع من الدعارة المبررة؟!

لن تصبح رنا أمازونية أبدًا مهما حاولت، كذلك لن تصبح أي امرأة.. دعهن

يسترجلن ويدخن.. دعهن يصبحن أمازونيات أو راهبات أو سحاقيات.. لكنهن لن يخدعنه أبدًا.. ولن تخدعه رنا..

تقلبت إيناس في فراشها رفعت غطاءها عاليًا وتركته ينزلق فوقها كي يغطي ما تكشف منها أثناء تقلبها.. يهبط الغطاء الناعم الخفيف في بطء.. ببطء حولها محددًا منحنيات جسدها، لكنه لم يهبط بالكامل ليلامس السرير الخالي بجانبها.. هبط فوق ما يشبه الكرة الصغيرة بالقرب من أسفل قدميها..

ترتفع الكرة من تحت الغطاء وكان هناك ما "يبت" من الخشبة الإسفنجية للسرير.. ينزلق الغطاء تدريجيًا ليكشف طفلاً أزرق اللون مخاط الفم مسدود الأذنين.. يبتسم في خبث ويحدق في زين بعينيه البيضاوين.

يهبط من على السرير ويسير بتؤده نحو زين في الشرفة..

لاول مرة يلحظ زين ما يرتديه الطفل وقد بدا متسخًا كأنما غُمر في رمال مبتلة.. يبدو مثل... مثل زي ما لا يستطيع تجميع تفاصيله..

يحرق رماد السيجارة أنامله فيلقيها على الأرض.. يسمع صوت تنفس الطفل العالي كأنما من أنف مسدود يجاهد كي يتنفس..

يتراجع زين بظهره إلى سور الشرفة بينما يتقدم الطفل أكثر نحوه في ثقة.. يعلم أن الخيارين المتاحين لزين في صالحه..

إما أن يقفز من الشرفة ويصبح الخلاص من رمزي مهمته هو شخصيًا، وإما أن يقف زين مكانه وبذلك يضرب عصفورين بحجر......

******

طلبت رنا من رمزي أن يسأل عن مدرسة قريبة بها حضانة كي تلحق بها آسر.. سألته تحديدًا عن المدرسة المجاورة لمنزلها بعد إلحاح آسر بأنه يريد الذهاب إليها بالذات.. لم تكن تعلم لها مدخلاً إلا ذلك المتهدم، لكنها كانت تسمع ضوضاء أطفال منبعثة منها أثناء اليوم الدراسي وإن لم تر أحدهم في الفناء الخلفي..

رحب رمزي بالفكرة وخاصة أن فكرة تسلط المدرسة على الطلبة استنادًا إلى صور رنا لم تفارق ذهنه طوال الفترة المنقضية.. سمح لرنا بالتقاط بعض الصور له مع الطلبة، وأكثر من مرة ضبط نفسه يصور أناسًا عشوائيين مكونًا نسبة تقريبية لعدد "المصابين" فكانت النسبة مخيفة فعلاً..

تطوع رمزي بالسير محاذيًا السور القديم والفناء المبعثر فيه عدة لعب قديمة ودمى بلاستيكية ودفاتر تلوين محتها الشمس وجعدتها الأمطار فصارت أقرب إلى رؤوس الكرنب المتربة...

((لِمَ لَمْ ينظف أحدهم الفناء الخلفي حتى أو يخليه من القمامة.. بل السؤال الأوقع.. لِمَ لا يلقي فيه الأهالي قمامتهم من فوق السور كسلوك مصري معتاد؟!))

مر بعدة مبان لا تختلف في شيء عن مثيلاتها.. لكنه مازال يسمع صوت ضوضاء الأطفال إلا أنه قد خفت قليلاً..

مر بشارعين جانبيين ألقى في أولهما نظرة خاطفة، ثم مشى في الثالث لدقائق فاختفى عنه تدريجيًا صوت الأطفال..

سأل عن مدرسة في هذا الشارع أو الذي يليه فلم يجد..

سار في طريقه المعتاد عازما على الانحراف يمينًا ثم العودة إلى البوابة القديمة ليسأل أحد الأهالي عنها..

أمام عينيه رأى بوابة مدرسة مطابقة للبوابة القديمة إلا أنها نظيفة أنيقة تشبه بوابات القصور القديمة، يعلوها في المنتصف حفر دقيق بارع لرمز يعرفه جيدًا ويراه فوق معظم بوابات المدارس وإن اختلف اسم المدرسة..

الشعار هو مثلث يخرج من منتصفه خيوط كالأشعة مختلفة الطول والسمك يتصل الأطول منها إلى أجنحة حصان مجنح من منظور أمامي، أما الأشعة الاقصر فتبدو وكأنها في طريقها إلى الاتصال.. الحصان معصوب العينين وقدماه الأماميتان مربوطتان بقيد يكاد يتمزق.. محفور بحروف شديدة الزخرفة بلغة لا يعرفها..

((Truces in solis ardentis eius anima scientia))

شعار مألوف وهو شعار المدرسة التي يعمل فيها أيضًا.. يحمله الطلبة منقوشًا على جيوب قمصانهم المدرسية في بعض المدارس..

كانت الساعة الرابعة تقريبًا والأبواب مغلقة.. يسمع صوت ضوضاء طلبة خافت جدًّا كأنه يأتي من عالم آخر..

يدور حول المدرسة محاولاً رؤية الفصول من الداخل بعد أن فشل في العثور على بواب أو مشرف هنا أو هناك..

رأى على مدخل المدرسة سيدة مهندمة ذات شعر فضي تخرج من الظلام في الداخل إلى نور الفناء.. تتحدث السيدة إلى أخرى أصغر منها تبدو وكأنها مدرّسة..

تخرج السيدة إلى النور فيراها رمزي جيدًا.. يعلم من هي.. يمد يده إلى جيب سرواله بلا وعي تقريبًا.. يخرج هاتفه المحمول.. يرفعه إلى مستوى عينيه وقبل أن ينظر في شاشته، يضغط زر التصوير..

******

يقترب الطفل الأزرق من زين فيظن الأخير أن الطفل سيدفعه من الشرفة.. إلا أن الطفل يقترب ثم يخترق جسد زين ويظل هناك..

يشعر زين كأنما اخترقته المئات من بلورات الرمال المبتلة.. يتغير لونه إلى الأزرق الوهاج للحظات..

يرى زين رمزي ممسكًا بمسطرة مثلثة يخرج منها أشعة تتلوى وتتجعد مستحيلة إلى لون بني مماثل للون شعر رنا..

يمسك رمزي بشعر رنا ويقبلها.. قبلة وحشية يستحيل فيها رمزي حصانًا أبيض مجنحًا تمطيه رنا..

شيء في ما مضى يذكّره بشيء آخر يتعلق بثياب الطفل إلا أن هذا لا يهم..
لقد علم زين ما تفعله رنا.. ومع من..

وحين ترنح زين عائدًا إلى فراشه، لم يغمض له جفن حتى الصباح.. ولم يغمض جفناه طيلة رحلته إلى الإسكندرية..

******

رأى رمزي في الصورة السيدة خوشيار.. تنظر إليه، لكنه لم يستطع التدقيق في الصورة أكثر من ثانية واحدة وألقى الهاتف بعدها في ذعر..

يعلم أن هذا الأزيز المتصل في عقله يعني النهاية.. يهرول بلا هدى متجهًا إلى منزل رنا..

يريد أن يخبرها بما رأى وليكن ما يكون..

لا تلقي بابنك يا رنا في ذلك الجحيم.. لقد أحيط بنا ولا فرار.. اقتليه يا رنا

فسيجدوه ما دام كان على قيد الحياة..

يلهث وتكاد يداه تحترقان حول المعصمين.. يعلم أنه قد عرف أكثر من اللازم.. أكثر بكثير مما رأته رنا.. وقد علموا أنه يعلم..

((من يطل النظر لشمس المعرفة تحترق روحه))

كلمات منقوشة باللاتينية حول مثلث لم يفكر قط في البحث عن معناها.. لقد عرفه الآن بلا مترجم وقد احترقت روحه.. من يُطل النظر إلى شمس المعرفة دون أن تحترق روحه.. لا روح له..

******

نزل زين من سيارته أمام المكتبة التي تعمل فيها رنا.. متخشب الحركة، لا تطرف عيناه من خلف نظارته السوداء..

يدفع الباب ويواجه السيدة سكينة التي جلست ملصقة الجريدة بوجهها تتصفحها بلا اهتمام..

– أين رنا..

– رحلت.. من انت؟!

انتظرت السيدة سكينة أن يكون هذا هو الرجل الذي تخون ابنها معه.. أو هو أحد الرجال الذين تجمعهم كطوابع البريد لتصلقهم على جسدها.. العاهرة!

– أنا زوجها..

– زوجها؟! ! طليقها تعني؟

-هل قالت لك إنها مطلقة إذن؟! !

هكذا ازداد يقينًا على يقينه من سلوكها المعوج.... العاهرة!!!

لم تكذب السيدة سكينة خبرًا وشرعت تحكي له عن سوء سلوك زوجته وكيف أنها التفت حول ابنها الغر البريء.. كلما زهدها الولد، أشعلت حبه بألاعيبها النجسة حتى صار كـ"اليويو" في يدها.. صار لا يعرف أمه التي كسرت شبابها عليه..

ثم صمتت.... شعرت أنها تكلمت أكثر من اللازم، وأن ملامح وجه زين لا تعني العقاب أبدًا.. تعني فقط القتل..

لكنها لن تستطع أبدًا سحب ما قالته أو التظاهر أنها لا تعنيه.. لن تستطع إخباره أن زوجته عاهرة لكن ليس بالشكل الذي يتصوره! خائنة وكاذبة لكن ليس بالدرجة العظيمة! ألاعيبها النجسة يمكن أن تنظف بقليل من الغسيل والكلور إذا لزم الأمر!

خرج زين مندفعًا من المكتبة و لم يُلقِ بالاً إلى نداء السيدة.. رجحت أنه متوجه إلى منزل زوجته فأجدت السير خلفه دقائق ثم توقفت ممسكة بقلبها.. لن تستطيع اللحاق به سيرًا وهو يهرول - رغم وجود عرج بسيط في مشيته - بهذه الطريقة المجنونة..

ظلت تسب لسانها السليط وهي تبحث بعينيها عن سيارة أجرة علها تلحق به أو تسبقه..

لم تتوقف أي سيارة أشارت لها لسبب بسيط هو أن معظمها كان محملاً بالركاب.. انتظرت عشر دقائق كي تجد سيارة خالية وعشر دقائق أخرى كي تصل إلى منزل رنا..

عشرون دقيقة كانت أكثر من كافية كي تصل بعد فوات الأوان.. إلا أن الأوان قد فات من قبل ذلك بكثير..

******

لم يشعر زين بخطواته إذ هرول إلى منزل رنا دون تفكير..

لقد خدمت الصدفة أغراض الطفل الغامض بشكل كبير.. كان يريد أن يتخلص زين من رمزي قبل تنفيذ رمزي طلب رنا بالبحث حول تلك المدرسة..

لو لم تكن رنا أشركت رمزي في أفكارها وصورها وموهبتها لكان من الآمن أن يسأل رمزي عن المدرسة، بل ويجدها ممتازة أيضًا وينصح رنا بضرورة إلحاق آسر بها. أما وقد ألقى رمزي نظرة أعمق على ما لا يسمح له برؤيته، فلم تصبح عملية البحث وراء المدرسة مأمونة تمامًا..

إلا أن ما رآه رمزي من خلال هاتفه زاد من خطورته، وصار من الأفضل أن يتم التخلص من رمزي بأسرع وقت ممكن.. وكان هذا هو الوقت الذي هرول فيه زين إلى منزل رنا بينما يصعد رمزي درجاته - لاهثًا زائغ البصر - وقد صار محمومًا مكفهر اللون..

إن الخلاص من زين لم يكن في مخططات الطفل الأزرق، على الأقل الآن.. إلا أن شكه في علاقة رنا برمزي سيجعله يتخلص من رمزي، وهو شيء محمود.. لكن سيجعله في الوقت نفسه يقتل رنا وهذا شيء مرفوض الآن، أو يضيق الخناق عليها ويعيدها إلى القاهرة معه وهو شيء يستوجب الخلاص من زين ولو لفترة.. مجرد عامين آخرين ويمكنه العودة أو اللا عودة.. لن يهتم أحد بهذا الشأن وقتها..

أخذ رمزي يطرق الباب كالمطارد وهو لا يكف عن اللهاث والتشبث بخشب الباب حتى لا يسقط..

فتحت رنا الباب مذعورة فكاد رمزي أن يسقط لولا أن تلقته بين ذراعيها في ذعر.. سحبته لداخل الشقة وكادت أن تغلق الباب لولا أن تلاقت عيناها بعيني زين المحتقنتين... ومسدسه الأسود البارد..

******

من أكثر الصفات السيئة لشوارع مدينة الأسكندرية هو خط القطار الذي يفصل المنطقة البحرية عن المنطقة القبلية..

لا بد لك من عبور الشريط الحديدي الذي يؤدي إليه في معظم الأماكن عدة سلالم متآكلة تشي بسقوطك من فوقها في أي لحظة.. هذا إن كنت راجلاً.. أما إن كنت راكبًا فالمشكلة تصبح أكثر عسرًا.. إذ لا بد لك من الالتفاف حول نفسك في الشوارع الجانبية حتى تجد مزلقانًا تستطيع العبور منه من بحري المدينة إلى قبليها أو بالعكس. وككل المزلقانات في مصر، يختلط القادم بالآتي، وتقف السيارات في مواجهة بعضها، يتصارع سائقوها بأيهم يظفر بالعبور قبل الآخر ببضع ثوان..

لكن من أين للسيدة سكينة أن تعلم أن انقباض قلبها وهي تقف عند إشارة القطار ليس مصدره الخوف على رنا، أو حتى وجود المسدس الذي لم تره مع زين؟ من أين لها أن تعلم أن ابنها الحبيب المطيع قد أطال النظر إلى الشمس فاحترقت خلايا مخه ولن تعود أبدًا كما كانت..

إن الموت يصير أمنية غالية أحيانًا إذا ما قورن بالجنون..

******

سقط رمزي أرضًا بعد أن أفلت من بين ذراعي رنا حيث تسمرت مكانها، وشعرت بذلك السائل الدافئ ينساب ليبلل فخذيها ويتساقط بين ساقيها على الأرض..

كان رمزي يرهف بكلام لا رأس لا ولا ذيل.. بينما يخطو زين إلى داخل المنزل وناظراه مثبتان إلى عيني رنا المتسعتين كطبقي فنجان...

من أعلى السرير القرصاني قفز آسر الذي يخطو في بداية عامه الخامس وجرى نحو والده وهو يبتسم، ثم تغير وجهه وأسدل ذراعيه جانبه إذ نقل بصره إلى المسدس المصوب إلى رمزي..

التفت آسر خلفه فجأة ليجد الطفل الغامض يقف مستندًا إلى السرير وهو يحرك رأسه يمنة ويسرة ببطء وكأنه يقول "لا" لآسر.. يعرف آسر أن الطفل ينظر إليه حتى وإن كان الأخير بلا حدقة عين على الإطلاق..

يصيح آسر

-.. ارحل.. ارحل..

لا يبدو أن الطفل الغامض سيستجيب، لكن صيحة آسر شتت تركيز زين الذي التفت إلى حيث يوجه آسر كلامه ليبصر الطفل الغامض..

- آسر! أنت تراه؟!! أنت تراه؟!!!

يجري آسر نحو ساقي والده الطويلتين ويصطدم بهما بعنف فيسقطا أرضًا ومن المسدس تنطلق طلقة مكتومة بفعل كاتم صوت..

يقوم زين من سقطته سريعًا ليجد رنا وقد أمسكت ذراعه المتشبثة بالمسدس، فتنطلق طلقة أخرى وتصيب قدم رنا فتصرخ وتسقط أرضًا..

يصرخ آسر مناديًا أمه ثم يتشبث بكف زين الممسكة بالمسدس.. الفوهة الطويلة مغروسة في صدر الطفل الصغير وهو يبكي ويغمض عينيه..

لا يرى زين آسر فقط، وإنما يرى من خلفه رمزي الجالس أرضًا وقد سقطت نظارته وتهشمت.. عيناه ذاهلتان لا تثبتان على شيء..

تدخل السيدة سكينة لاهثة لترى زين جاثيًا على ركبتيه موجهًا مسدسه المشؤوم نحو رمزي..

تلقي السيدة بجسدها فوق ابنها بينما يضغط زين الزناد وعيناه لا تطرفان.. نظرة شيطانية قد تلبستهما وتأبى أن تفارقهما حتى ترتويا بالدماء..

وتنطلق الرصاصة.. مباشرة نحو صدر آسر.. لا تفصلها عنه إلا نسيج ملابسه...

رصاصات صائبة..

((Truces in solis ardentis eius anima scientia))

عبارة حفروها على شعارهم منذ قرون.. مثلث هو كمال الهندسة الكونية بالنسبة لهم.. على قمة الهرم الدنيوي نصبوا أنفسهم له مهندسين ومحركين..

تنساب من بين أيديهم خيوط هفهافة رقراقة لا يشعر بها أحد، بل ويتلذذ بها كل من غلوه بقيدها، ويأبى تركها.. فهي الحرية ذاتها في عينيه..

قد وُهِبت البشرية نقاء أبيض وقوة فرس نبيل وجناحي حالم طموح..

تطلعت البشرية إلى كسر قيودها والتحليق إلى أعلى.. نحو شمس المعرفة، كما لا بد أن يكون مكان البشرية الذي خلقت من أجله..

إلا أنهم لم يروا في الجنس البشري الأهلية لتلك المعرفة برغم كونهم بشرًا في الأساس.. أو الأدق أن نقول إنهم لم يريدوا لهذا الجنس أن يكتمل وأن يستقل وأن يصبح حرًا كامل المعرفة..

هنالك تربعوا وأوثقوا قيودهم تدريجيًا.. قيدوا البشرية بعضها ببعض، ثم قيدوا الجميع إلى مصالحهم وإلى المعرفة الدنيا التي سمحوا للبشرية بها بقدر ما يخدم سيادتهم عليها..

بخداع ودهاء، ظن البشر أنهم أحرار وأنهم أصحاب القرار.. ساروا دروبا في طريق حرية زائفة انتظرتهم في آخرها المزيد من الشراك..

مرت القرون ونسي من تم تقييدهم قيودهم، بل وجاهدوا من أجل الاحتفاظ بها.. يتحررون من قيد إلى قيد أكبر..

وازداد ماسكي القيود سطوة..

تسطحت المعرفة، وتشابه البشر، وبدا أن بئر الجهل - التي حفروها بعناية عبر مئات السنين - لا قاع لها..

نرشف منها مالئين منها العقول، فقط كي "لا تحترق أرواحنا بشمس المعرفة"!!

هراء؟! ومن قال إنه ليس كذلك؟!

خدعة الشيطان الكبرى هي أن يجعل البشر يظنون أنه لا وجود له..

وخدعة المحركين الكبرى هي أن يظن الناس أنهم يسيرون بإرادتهم بينما هم لا إرادة لهم!

خدعتهم أن ترى الحقيقة هراء ولا تكترث له.. هكذا يستمرون..

... وهكذا نتحرر من قيد إلى قيد أكبر..

******

انطلقت الرصاصة وارتطمت بصدر آسر ثم ارتدت عنه وسقطت أرضًا!
فتحت رنا عينيها لترى الطفل الغامض يمتص الحماية البيضاء التي بثها آسر

حول رمزي وأمه ويحيلها إلى هالة حامية حول آسر نفسه..

سقط آسر أرضًا لم يمسه سوء، بينما بدا أن الطفل الغامض يحترق غيظًا ويتذبذب بلون أحمر كريه، وصوت تنفسه يعلو في أذني رنا وزين كما لم يسمعاه من قبل..

جرت رنا نحو آسر راسمة أثرًا سميكًا من الدماء وراءها، واحتضنته مخفية وجهه في صدرها، فدفعها آسر برفق وانطلق جاريًا إلى الحجرة الخالية وجلس هناك في الركن.. يبكي، موليًا ظهره للجميع..

كانت السيدة سكينة تبكي هي الأخرى وتتساءل عما حدث لابنها..

كان رمزي صامتًا لا تتحرك عيناه ولا يعي شيئًا مما حدث حوله.. بينما رنا تخمش وجهها في جنون وقد فقدت السيطرة على ما تبقى لها من عقل وهي تصرخ في الطفل الغامض وتحاول إمساكه بلا فائدة..

- أنت أيها الحقير الصغير.. ماذا تريد مني.. لم تظهر؟ لم تحميه؟ ماذا تريد منا؟ هه؟ تريدنا جميعًا صرعى؟! لأي سبب.. تعال هنا.. دعني أهرس وجهك بقدمي.. د..

ما زال زين على الأرض ينظر إلى رنا في ذهول.. ينظر إلى المسدس بين يديه وينظر إلى رمزي وأمه..

- رنا.. أنت ترينه؟!

- أراه.. أراه.. وأعلم أنك تراه.. دعني أفقأ عيني حتى لا أراه ثانية.. دعني أقتل نفسي فلا أرى أحدًا ثانية..

يختفي الطفل الغامض تاركًا خلفه دخانًا أسود سرعان ما تلاشى هو الآخر.. يقوم زين مترنحًا ويحمل آسر الذي لم يكف عن البكاء ولم تعد له إرادة في

قبول أو رفض أي شيء..

تجرّ رنا ساقها الدامية وهي تصرخ..

- آسر.. آسر.. زين.. لا تأخذه!!! زيـين!!!

- اسمعي يا... لقد كان كل هذا خاطئًا.. آسر ابني وسوف آخذه الآن، ولن تستطيعي رؤيته ثانية.. أستطيع إثبات سوء سمعتك بسهولة الآن، وقد أعمتني تصرفاتك غير المسؤولة وكدت أزج بنفسي في السجن.. استمتعي بحياتك.. أنت طالق..

وحمل زين آسر الباكي وخرج من الباب دافعًا بثينة الواقفة هناك وقد بدا على وجهها نظرة غير مصدقة..

لقد سمعت ما قاله زين وما ترهف به السيدة سكينة متصعبة على حال ولدها وما أصابه من جراء معرفته بتلك العاهرة.. لقد كاد زوجها أن يقتله..

- رنا.. لا أصدق ما أراه وأسمعه.. أنت.. أنت كذلك؟!! كيف أثق بأي شخص بعد ذلك..؟!!!

- بثينة.. بثينة.. يا حمقاء.. افهمي... زيـين!!!!!!!!!

ولمدة ربع ساعة ظلت رنا تصرخ باسم ابنها.. سقطت في دمائها وهي تلطم وتخمش خديها.. تسب وتلعن الجميع، ثم تنادي ابنها حتى فقدت الوعي..

******

لم تستطع منال تبين ما حدث تمامًا من خلال الحديث غير المفهوم في الهاتف..

كانت رنا تبكي وتصرخ في صوت مجنون واهن ثم سمعت منال صوت الهاتف يسقط، حين وصلت منال وقرعت الباب لعدة دقائق لم تجد أحدًا في المنزل.. طرقت باب الجارة الوحيدة التي ذكرتها لها رنا، فتحت بثينة الباب مبتسمة، ثم تغير وجهها وصفقت الباب في وجه منال عندما سألتها عن رنا..

اتصلت منال بزوجها مذعورة وطلبت منه المجيء.. دقائق وكسر رشدي الباب ثم توارى عن الفتحة في أدب واقفًا في بئر السلم..

كانت رنا ساقطة والدماء المتجلطة تكسو قدمها والأرض من تحتها.. الهاتف ملقى أرضًا، وعلى بعد خطوات منه طلقة رصاص متدحرجة وأخرى مغروسة في الأرضية، بينما الثقب في الجدار يشي بثالثة..

صرخت منال ونادت زوجها الذي حمل رنا ورفعها على السرير توطئة للاتصال بالإسعاف.. أمسكت رنا كفه في وهن ورجته ألا يتصل بأحد فجلس في الشرفة، بينما حكت رنا لمنال حقيقة ما حدث طيلة الأعوام الماضية - بلا ذكر للمواهب السوداء - وما كذبت عليها بشأنه..

كانت منال تفكر ولا تدري بمَ ترد.. صديقة عمرها تمر بكل هذا ولا تحكي لها.. ممَّ كانت تخشى؟ اللوم؟ أم تخشى أن يصارحها أحد أنها مخطئة فتصبح مضطرَّة إلى التوقف عما تفعله؟!

كان رشدي أيضًا من المستمعين وإن تظاهر بأنه لا يسمع.. قرر في نفسه أن يمنع منال عن زيارة رنا مرة أخرى، ثم توقف لحظات.. توقف ليتذكر رنا التي ساعدها بنفسه في الفرار إلى الإسكندرية.. رنا الطيبة الساذجة التي ركلت

كل شيء بقدمها بعد أن ظفرت بطفل تمنته طيلة حياتها..

شعر بشفقة نحوها، إلا أنه قد تفاجأ حقًا بكون رنا مازالت امرأة!

هناك أشخاص معينون يصعب أن تتخيلهم يخطؤون أو يتحامقون أو حتى يتغوطون! وكانت رنا من هؤلاء الأشخاص بالنسبة لرشدي، إلا أن شعوره بإمكانية أن تلتقط زوجته عدوى الخيانة أو مرافقة الرجال من رنا جعله يفضل أن تبتعد المرأتان لفترة..

لم لا تريد رنا أن تذهب إلى المستشفى؟ إن قدمها مصابة بطلق ناري، ربما أخطأت الرصاصة قدمها ببضعة مليمترات إلا أنها مصابة وقد نزفت الكثير.. هل تخاف الفضائح؟! لقد ضبطها زوجها بصحبة رجل غريب، فمن الوارد أن لا يعاقب زين وتصبح الفضيحة كلها من نصيبها..

المشكلة الكبرى بالنسبة لرنا كانت اصطحاب زين لآسر معه.. كانت تريد ابنها و لم تكن تستطيع الاحتفاظ بتماسك كلماتها كلما تطرق الكلام إليه.. دخلت منال الشرفة إلى زوجها وقد علمت أنه سمع من نظرات عينيه الحيرى..

- أريد أن أصطحب رنا معنا إلى المنزل..

- لا أدري.. أشعر أنها ليست رنا القديمة التي أعرفها.. من هذا الرجل؟ و لم تستقبله في منزلها؟.. منال.. لا بد أن علاقتها به تعدّت ما روته هي كي يعلم زين بشأنها ويقرر أن يأتي ل.. لقتلهما! هل تفهمين؟! لا يقتل المرء زوجته لمجرد شك.. لقد تأكد الرجل واصطحب مسدسه معه من القاهرة لهذا الغرض..

- رشدي.. ليست رنا بهذا السوء وأنت تعلم.. إن الناس يكرهون ال...

– من تتعدى سمعتها المائتي كيلو متر وتعبر المحافظات هي بالتأكيد بهذا السوء.. أنت نفسك قد شككت في الأمر بعد ما قطعت علاقتها بك بلا مبرر.. منال.. لا أريدها في بيتي مع زوجتي وبناتي.. ولا أريدك هنا معها أيضًا.. سوي أمورك وسأنتظرك في السيارة..

علمت رنا قرار رشدي وحكمه النهائي عليها عندما عبر إلى باب الشقة من أمامها و لم يلق عليها حتى السلام..

أجهشت بالبكاء وقد أيقنت أنها أصبحت وحيدة.. وحيدة بلا طفلها الأعز الذي... الذي تركته يتسرب من بين أناملها كالرمال بحماقتها واندفاعها.. بكت حتى فقدت الوعي مرة أخرى..

******

لطالما تساءل ذلك السائق عن حظه العجيب الذي يوقعه هو بالذات في مثل هؤلاء الزبائن..

أخذ يعزي نفسه بأن طيبة قلبه هي ما تقوده لتلك المواقف التي يحتسب أجرتها عند الله.

فمن يركبون معه الآن ليسوا بأغرب من السيدة الموشكة على الوضع والتي أبت أن تنقل ردفيها من مقعد السيارة إلى المقعد المتحرك الخاص بالمستشفى أمام باب السيارة كي لا يسقط الطفل من أحشائها في الشارع ووضعت مولودتها في المقعد الخلفي للسيارة وقد لوثت المقعد إلى الأبد. الأمر الذي اضطره لتغيير تنجيده بالكامل على نفقته بعد أن وقف وحيدًا أمام المستشفى و لم يعد إليه أحدهم كي ينقده ماله أو يعرض عليه العوض..

أما تلك السيدة وابنها الشاب فتقتصر غرابتهما على مظهرهما فقط ولن تمتد تلك الغرابة على الأرجح إلى السيارة نفسها..

كانت سيدة عجوز ترتدي جلبابًا مطرزًا فوقه شال صوفي، وابنها الشاب منكوش الشعر تبدو على جانبي قصبه أنفه علامتان حمراوان تشيان بأن ثمة نظارة مفقودة..

كان الشاب يهذي بكلمات غير مفهومة إلا أن ملامحه لا تدل على أنه مصاب بأي عته أو بله مرضي..

ربما أصابه "لطف" ما من جراء ما نسمع ونرى يوميًا في الشوارع..

خذ عندك مجموعات الشباب بالشعر المنكوش والأعلام والرموز الوطنية مطبوعة على ملابسهم، يغنون أغاني على موسيقى ضعيفة مكسورة النغمات يعزفها أحدهم على جيتار..

أغان أرادوا لها أن تكون وطنية منذ بضع سنوات لكنها بدت ممسوخة خاوية غريبة الألحان..

ظهرت في الفترة الأخيرة فرق موسيقية كاملة تتصنع الأسماء الغربية لها ويكتبون أسماء فرقهم بتلك الطريقة التي هي خليط من العربية المزخرفة والإنجليزية حتى غدت تلك الطريقة هي طريقة الكتابة الوحيدة الراقية الآن..

ذكّره مظهرهم بالهيبيين وإن لم يعاصرهم لكنه يعرفهم من الأفلام، ويعرف أن هذه المجموعات من الشباب بلا أهل، بلا مراقب، يتخذون الوطنية ستارًا يخفون وراءه خواءهم..

ركبت معه إحدى تلك الفتيات الأسبوع الماضي وكانت ترتدي أسمالاً هي

في الواقع موضة الحجاب هذه الأيام..

سألها إن كان لها منزل تعود إليه أو عمل أو دراسة بدلاً من الوقوف في الشوارع والميادين بلا هدف.

أجابته بكبرياء الفيلسوف وحجه العالم إن ما تفعله هو روح التغيير والثورة على المعتقدات والمألوفات وعقول المتحجرين من الآباء..

أجابته إن الغناء هو التعبير الأرقى عن الرأي، وان الوقوف في الشوارع هو أفضل طريقة لتذكير الناس بالثورة التي وأدوها في مهدها، والتي لم يصبروا حتى تكبر وتتعلم المشي والكلام وإنما ضاقوا ببكائها وصراخها وتخلصوا منها، وإن ما يحدث الآن هو عقاب لكل من اشترك في هذه الجريمة..

سألها إن كانت تعمل أو تدرس فأجابته بشمم الحكماء وفخر الجيوش المنتصرة أنها هي وزملاءها قد تركوا الدراسة والعمل وتفرغوا الوعظ الغافلين.. أخبرته أنه لا بد أن يضحي أحدهم بمستقبله من أجل مستقبل الآخرين، وقد قبلت هي وزملاؤها تلك التضحية..

صمت السائق وصار ضغط دمه يحتاج إلى بارومتر لقياسه ولبس جهازًا طبيًا.. إذن فهؤلاء الشباب يضحون؟ يبدو أن التضحية رائعة؛ لأن معظم الشباب يضحي الآن و لم يبق أحد ليضحوا من أجله!

لم يعلق أكثر حيث إن من يحدثها هي واحدة من آلاف المجموعات المنتشرة في العالم العربي كالأوراق الجافة في الخريف.. إن من نعت الثورات العربية في ٢٠١١ بالربيع العربي قد فاته وصف لخريفها الآن...

لم يتعجب من هلاوس الراكب ذي النظارة المفقودة عن مثلثات وخيوط وقيود.. لا بد أنه ترزي أو شيء من هذا القبيل.. لن يسأل أو يبدي تعجبًا؛

إذ من الممكن أن يكون الشاب من سياسيي هذا الزمن، ويتهم جهله بالمثلث القومي والقيد العربي والخيط السلفي بأنه سبب تأخر البلد، وسبب وأد الثورة في مهدها والتي لم يصبر حتى تكبر وتتعلم المشي والكلام وإنما ضاق ببكائها وصراخها وتخلص منها، وأن ما يحدث الآن هو عقاب لكل من اشترك في هذه الجريمة.. !!!!

صار يسمع كل تلك الكلمات المكررة - وكأنهم يصقوها في أفواه بعضهم بعضًا - ولا يعلق؛ فهو يريد أجرته كي يأكل عيشًا.. وصل سعر الرغيف المدعم منه إلى ٣٠ قرشًا شاملة الدمغات والضرائب والحشرات المتحجرة... أيقظته السيدة العجوز من أفكاره وطلبت منه أن يقف.. نقدته ماله ونزلت وشرعت تجذب ابنها ثقيل الوزن مرخي العضلات.. أخذت تلهث وتعتصر صدرها..

اضطر السائق إلى النزول ومساعدتها.. كان الشاب ثقيلاً حقًا لكن ارتخاء جسده هو ما جعل إخراجه من السيارة عسيرًا..

وحين لف ذراع الشاب حول عنقه ليتمكن من حمله إلى منزله، تشبث الشاب به بقوة وألصق وجهه في وجهه ففاحت من فمه رائحة معدنية قوية..

- يا... احذر.. هه.. لا تتزوج.. لا تنجب.. إن كان لك أولاد فاقتلهم.. لا تتكاثر بأي ثمن.. إن انقراض البشرية هو السبيل الأوحد لقطع خيوطهم.. إنهم.. إنهم في كل مكان.. قيودهم حول كل رقبة، وقد صرنا نسخًا يا صديقي.. إنهم هناك.. في الأعلى.

وأخذ يضحك ويضم أطراف أصابعه معًا صانعًا شكل المثلث..

كانت العجوز تبكي وهي تتقدمهم صاعدة السلم إلى شقتها.. دخل السائق وأجلس الشاب على اقرب مقعد ونزل مهرولاً..

قد يكون كلام الشاب مجرد هلوسة لكنها أرسلت القشعريرة في عموده الفقري.. يشعر بشيء من.. من النبوءة في كلماته.. يشعر من تلك الهلاوس أنها هي الكلمات الوحيدة المنطقية في هذا العالم..

بين عالمين..

طوال الطريق إلى القاهرة، لم ينطق آسر بحرف.. لم يغمض عينيه.. لم يغير تعبير وجهه..

كان زين يحدجه بنظراته كل بضع دقائق وقد ملأه الذعر.. لِمَ لا يبكي؟ لم لا يصرخ ويركل؟ بل والأغرب.. لم يبدو أكبر من عمره بعشرة أعوام على الأقل.. ؟!

وفي الفترات بين النظرة والأخرى، كان يفكر.. ماذا سيفعل بآسر الآن؟ هل خرج صباحًا وحده ليعود مساءً إلى زوجته بطفل ويخبرها أن عليها أن تربيه.. ؟ كان واثقًا أنه قد فعل الشيء الصحيح بصدد أخذه من رنا، لكنه لم يحسب حسبته بدقة بصدد من سيرعاه..

ربما استأجر له مربية متخصصة كي يخفف عبؤه من على كاهل إيناس.. يكفيها أنه ليس ابنها..

توقف عند السوبر ماركت الشهير بعد بوابات القاهرة وحمل آسر معه إلى الداخل بعد ما فشل في جعله يسير على قدميه..

اشترى له ملابس وألعابًا وحلوى ثم وقف في منتصف المتجر حائرًا.. ماذا عسى طفل في عمره أن يحتاج أيضًا؟

- آسر... هل تريد شيئًا من هنا؟ أي شيء..

لكن الطفل ظل يحملق في الفراغ أمامه كالأعمى و لم يعلق..

زفر زين ودفع ثمن ما اشتراه ثم عاد إلى منزله. ركن السيارة في الموضع الخاص بها في الجراج أسفل البرج الفخم وجلس فيها يفكر في الضوء الخافت. أمسك هاتفه المحمول وطلب إيناس وقبل أن ترد أغلق الخط..

ماذا سيقول لها.. كان يودّ لو مهد لها مفاجأته الصغيرة المزعجة وأراح نفسه من عناء رؤية رد فعلها وجهًا لوجه..

أخذ الهاتف المحمول يضيء وينطفئ وعلى الشاشه اسم إيناس..

- ألو.. لا شيء.. لقد قطع الخط.. أ.. إيناس.. لقد كنت في الإسكندرية اليوم وتشاجرت مع رنا وآخذت آسر.. لا.. سيمكث معنا للأبد.. إيناس.. لا أسمعك، الشبكة سيئة.. سلام..

وأغلق الخط.. لم تكن الشبكة سيئة لكنه لم يكن على استعداد لسماع أي استفسارات منها..

نزل من السيارة وحمل آسر الذي لم يُبد رغبة في السير ثم خرج من الجراج وأمر فرد الأمن الخاص بالبرج بحمل مشترياته من السيارة وتوصيلها إلى شقته..

فتح باب الشقة ليجد إيناس مازالت واقفة أمام الشرفة والهاتف في يدها.. لم يَبْدُ انها قد سمعت باب الشقة يفتح..

ناداها وأغلق الباب.. التفتت إيناس في ذعر ثم توقف بصرها على آسر..

- هذا ابن رنا؟ أعني ابنك؟

- نعم..

تقدمت في بطء وكأنها على وشك الدخول في جحر ثعابين.. ضمت طرف الروب على صدرها ثم مدت يدها نحو شعر آسر..

ابتسم آسر في براءة آسرة! مدت إيناس كلتا يديها وضمته.. مد يده ولفهما حول عنقها.. تركه زين وابتسم.. ثم قهقه عاليًا.. لقد انزاح العبء من على كاهله، ومرت أول مقابلة بسلام..

******

لم تخرج رنا من منزلها طوال الأيام العشرة التالية.. ظلت قابعة في سريرها تنام ولا يقطع نومها إلا بذهابها مترنحة إلى الحمام ثم النظر إلى وجهها في المرآة المعلقة هناك.. شعرها مشوش منكوش وعيناها حمراوان غائرتان.. تغترف الماء من الصنبور بيدها.. تشرب.. تعود مبتلة اليدين والصدر..

مع الأيام قلت رحلاتها إلى الحمام مع امتناعها عن المأكل والمشرب.. كانت تعلم أنها مقضي عليها.. لن تستطيع الخروج، فمن المؤكد أن ما رأته بثينة قد صار في الشريط الإخباري للجيرة وحديثهم الوحيد..

لن تستطع جني المال ولا شراء اي شيء.. ولم يكن لها رغبة في شراء أي شيء.. نفذ رصيد هاتفها وانقطعت عن العالم..

لم تستطع التفكير في شيء سوى آسر.. تبكي وتدفن وجهها في الوسادة.. تنام ثم تستيقظ على ضحكاته.. لا.. لم يكن هناك.. لم يكن في أي مكان تعرف عنوانه..

تفتح عيناها صباحًا ولا تقدر على رفع ذراعها.. تدير عينيها يسرة إلى باب

الشقه.. ((أين المفتاح؟)).. تدير عينيها يمنة.. الهواء القادم من النافذة يداعب أشرعة القراصنة على السرير..

خيط عنكبوت متدلٍ أمام عينيها من السقف.. تؤرجحه أنفاسها المتقطعة.. تنفخ الهواء برفق بشفتيها فيتأرجح العنكبوت بقوة.. يسحب نفسه إلى الأعلى في سرعة.. كائن صغير كل همه هو التدلي والارتفاع كلما شعر بخطورة هذا التدلي..

لقد تدلت رنا لكنها لم تستطع الارتفاع في الوقت المناسب..

يظلم العالم عن عينيها من جديد.. ومن بعيييد.. تسمع صوت مفتاح يدور في الكالون..

******

ظل رمزي محموما طيلة عشرة أيام.. لا ينفع معه أي خافض حرارة ولم يفلح أي طبيب في معرفة ما أصابه..

رجح أحد الأطباء كونه مصابًا بأحد فيروسات المخ النادرة ((القاتلة)) وطلب تحويله إلى الحجر في المستشفى لإجراء الفحوص اللازمة..

لم تكن حالته تتقدم أو تتأخر.. فقط كانت ثابتة.. وهلاوسه ثابتة..

لم تكن مؤشرات عقله تدل على شيء إلا على رجل يحلم..

لكن الأغرب وما لم يجد له الأطباء ولا في الأشعة تفسيرًا هو تلك الفجوة السوداء التي تظهر مكان مخه في الأشعة.. إلا أن أحدهم أشار إلى موضع في منتصف المخ تمامًا وحك ذقنه.. ابتسم لسخف الفكرة ثم تمتم:

- تبدو لي مثل.. مثل كرة عين هناك! ألا ترون هذا معي.. ؟!!!

ضحك الجميع في عصبية وأنزلوا الأشعة من على اللوحة الضوئية البيضاء ورحلوا..

لم يعلموا كم كانوا محقين فيما رأوا..

******

ينام آسر في حجرة أخته لي لي ريثما ينتهي زين من إعداد حجرة له.. تضع إيناس لعبه في سلة كبيرة.. طائرات.. أوناش.. مسدسات.. سيارات.. والكثير من دمى الكارتون الياباني والأمريكي..

ينظر آسر لكل ذلك بلا اهتمام.. يتوجه إلى منضدة وردية وُضع عليها دمى باربي وعرائس مختلفة الخامات والأشكال..

يجذب دمية ويجلس أرضًا يمشط شعرها بأصابعه..

- آسر.. حبيبي.. هذه ألعاب لي لي.. ألعاب فتيات.. انظر.. هناك ألعاب الأولاد الأقوياء مثلك..

وتقف هناك ممسكة بطائرة وتحركها صانعة بفمها أصواتًا طفولية كأنها صوت الطائرة..

يضحك آسر ثم يحول نظره إلى دمية أخرى على منضدة لي لي..

ترفع إيناس حاجبيها في دهشة.. تجول بعينيها على المنضدة الوردية.. تأخذ دمية خشبية ذات خيوط.. دمية ماريونيت تمثل بينوكيو..

تضعها على الأرض خلف آسر وتشد خيوطها.. تمشي الدمية التي تحركها إيناس ثم تجعل يد الدمية على كتف آسر.. تغير إيناس صوتها كأنها صوت بينوكيو الأخنف..

- آسر.. آسر.. انظر.. أنا بينوكيو.. انظر..
يلتفت آسر خلفه وهو يضحك.. تتصلب الابتسامة على ملامحه.. تتسع عيناه.. يقف ويتراجع بظهره مسرعًا وهو يصرخ.. يبكي.. يرتطم بالمنضدة الوردية فيجذب المفرش لتقع الدمى فوقه..

- آسر!
تركع إيناس وتخرج الطفل من تحت أكوام الدمى.. ما زال يبكي ويركل.. تدخل لي لي في خطواتها المتعثرة.. ترى إيناس تحتضن آسر الباكي فتصرخ هي الأخرى!

تجري نحو إيناس وتحتضنها من الخلف..

تهرول المربية صغيرة السن نهى نحو الباب وهي تحاول تفسير الموقف..

- مدام إيناس.. لا أعلم لِمَ جرت لي لي بهذا الشكل.. ربما لفت انتباهها بكاء آسر..

تهز إيناس رأسها أن لا عليكِ، ثم تنهض وتحمل الطفلين، ولا يفوتها تلك النظرة المذعورة التي صوبها آسر تجاه دمية الماريونيت على الأرض..

******

كانت رنا تعلم وإن كانت بنصف وعي، أن هناك من يأتي ويضع الطعام في فمها قسرًا.. تشعر بكبسولات لها رائحة تشبه رائحة الشيكولاتة تنزلق إلى

يلعومها مع ماء..

تشم رائحة عطر تعرفه جيدًا.. عطر كانت تستخدمه هي نفسها أيام.. أيام كانت الأربعمائة جنيه ثمن الزجاجة الصغيرة منه مجرد "فكة"..

تسمع أحيانًا صوت ضحكات آسر.. وصوت خطوات طفولية حولها عندما يطعمها من يطعمها..

بالأمس سمعت آسر يصرخ.. يصرخ ويبكي بعد أن ضحك مرتين.. أيقظها هذا فجأة وصاحت باسم ابنها ثم سقطت على الوسادة مرة أخرى..
ليتها تستطيع التركيز.. ليتها..

******

نعم.. كانت هناك عين داخل الفجوة التي كانت مخ رمزي.. عين تتحرك في كل اتجاه، بل وتقبض على الأنسجة الداكنة حولها، وتبدو وكأنها.. وكأنها ترمش!

تراقب العين روحه المحترقة.. تراقب من حوله.. ترسل برسائلها الغامضة إلى الشكل الهرمي الأعظم.. ترسل رسائلها الغامضة إلى مزيد من الأعين الخفية في أمخاخ كل من حولها.. عين لا تُرى إلا إذا تلف ما حولها.. وكان رمزي من القلائل المحظوظين بهذا التلف!

من حوله تحلق أخوته الأكبر.. تجلس أمه ممسكة رأسها طيلة اليوم.. تنظر إليه ثم تمسك برأسها مرة أخرى وتقرأ القرآن..

في أوقات صفوها تجتمع بأخوته وتطالبهم برأس المرأة المتسببة في كل هذا، ثم

تعدل عن ذلك.. تكتفي بإرهابها وجعلها تقيء ماعندها من معلومات حول ما حدث لابنها.. تعلم في داخلها أن رنا لها علاقة بحالة ابنها الغامضة لكن كيف؟ كيف تصيبه بفيروس غامض كما يقولون؟

تستعيذ بالله من الشيطان وتعزو الأمر كله إلى الصدف.. ربما هو عقاب الله لها على ظلمها لرنا..

وعندما يعود أخوته من رحلتهم إلى منزل رنا، يخبرونها أنهم لم يجدوا أحدًا هناك مهما طرقوا الباب أو عادوا في أوقات متفرقة..

تبكي على كتف الأكبر منهم ثم تجلس جلستها المعهودة.. ويعود كل منهم إلى منزله وزوجته.. وتظل هي طيلة الليل تبكي وتقرأ القرآن..

******

– إن آسر طفل انطوائي غريب..

– أعلم.. أمه كانت تضعه في "قمقم" ولا تجعله يختلط بأحد.. آن الأوان لتغيريه..

– زين.. آسر لطيف وأنا أحبه فعلاً.. لكن.. هو ليس ابني.. هل تفهم؟ لن يحبني كأمه مهما فعلت.. هذا ما يجعلني لا أستطيع فعل شيء ذا فائدة له..

رفع زين عينيه عن الجريدة ورشف آخر قطرات في فنجان قهوته الصباحي وقام واقفًا..

– إيناس.. اجعليه يحبك وينسى أمه ثم غيريه.. هل ما أطلبه مستحيل؟

– حرام أن نحرمها منه بهذا الشكل.. حرام أن أجعله ينساها.. زين.. اسمعه يتحدث في نومه إليها.. إن هذا يمزقني..

- وما فعلته رنا ليس حرامًا؟ هي من فرطت فيه..

- زين.. لقد اقتضى الأمر عامين كاملين حتى أتخلص من إحساسي بالذنب لأني أخذتك منها.. كم سيقتضي الأمر إذن كي أنسى أنني أخذت ولدها الوحيد أيضًا؟

- ياحماقة النساء.. انظري.. هي تركتني وتركت ابنها بغبائها.. إن لم تأخذينا أنت كانت غيرك ستفعلها.. حان الوقت كي تكسبي ثوابًا حقيقيًا في تربية هذا الطفل..

ثم قبلها وفتح باب الشقة متوجها إلى عمله.. توقف لحظة ثم دس رأسه من فرجة الباب..

- ولا تنسي أن تجعلي لي لي تتوقف عن الصراخ كلما رأته.. صوتها مزعج جدًا!

******

-آسر.. حبيبي.. أين أنت..؟؟

تسمع رنا صوته بعيدًا جدًا.. لكنها تعلم أن تلك الهمهمات صوته..

-آسر.. أسمعك بعيدًا.. أين أنت؟ هل أنت بخير يابني؟

- ماما...... ما.........

تتقلب في الفراش غارقة في العرق.. تسمع طرقات عصبية على الباب لكنها لن تستيقظ.. تلك هي اللحظات النادرة التي تنتظرها كل يوم.. لحظات تسمع فيها صوت آسر وتعلم أنها لا تحلم.. إن كانت تحلم لكانت رأته ولمسته

واحتضنته.. ليست الأحلام بتلك القسوة..

- ما...... ما.........

******

مازال هناك شيء كالعقل يعمل داخل كتلة الأنسجة التالفة في مخ رمزي.. يعلم أنه لن يعود.. يعلم أنه لم يمت.. بعد..

يراهم بوضوح.. يراهم هناك يضعون مخططاتهم لتحويل العالم إلى.. إلى عمال.. أحرار!

يعمل الناس ظانين انهم يعملون بارادتهم.. منذ مئات السنين وخططتهم تسير بطء.. لكن بخطوات واثقة ثابتة..

تتسارع الآن العجلة ويكثر العيد.. تتغير خططتهم وتشير شوكتهم الشيطانية إلى بداية الجنس البشري.. إلى الأطفال..

من الأسهل، والأكثر تأثيرًا.. أن نصبَّ السموم من البداية.. أن نوثق القيود ونعمي العقول..

يرى آلاف المدارس تتحول تدريجيًا إلى نظام تعليمي وتربوي عجيب.. لا يلحظ أحد التغير، ومن يلحظ يجده بعقله المنقاد، خطوة صالحة في طريق تحرير العقول!

يوهمون الناس أن ما يدرسونه الآن هو عين ما يدرسونه في أفخم مدارس الخارج..

يشترى الناس السموم ليدسّوها في عقول أبنائهم..

لقد صارت قاعدة الأتباع عريضة.. وقريبًا.. سيصير الجميع تابعين.. ومن يتملص من قيده.. يستحق مصيره..

اتصال من نوع ما..

كانت لي لي تشاهد برامج الأطفال في إحدى قنوات الرسوم المتحركة المدبلجة إلى العربية..

فمها مفتوح وعيناها واسعتان.. تدوران في فلك المخلوقات الغريبة والديناصورات والسحر.. تغوصان في محيط متغير من الفواصل الإعلانية.. ألعاب.. ألعاب.. ألعاب.. دمى تطير وأخرى تقفز.. آلات تصنع مأكولات ملونة عديمة المذاق.. مجموعات لا نهائية من الألعاب والإكسسوارات الخاصة بها.. لا بد لك من مليوني جنيه شهريًا كي تشتري لأبنائك كل ذلك الماراثون اللاهث من وسائل الترفيه..

تشير لي لي إلى الألعاب وتصيح أنها تريد هذا وهذا.. تنتظر بضعة أيام ثم تصيبها نوبة من التشنجات والصراخ إذا لم يحضروا لها ما تريد..

تتزايد الألعاب في حجرتها حتى لا تترك موضع أصبعي قدم للسائرين.. تنظر الطفلة إلى الألعاب في خواء ثم تجلس أمام التلفاز تطالب بالمزيد..

تستطيع أن تتخيل ما ستتحول إليه تلك الطفلة وشبيهاتها بعد عشرة أعوام.. لا تحتاج إلى مواهب خاصة كي ترى تلك الطفلة في معظم البيوت الآن.. ربما تكون ابنتك أيضًا..

أما آسر فقد عاد إلى لعبته العزيزة.. المكعبات.. ليست كالتي تشتريها له أمه، إنما هي أكبر وأكثر عددًا وأعظم إمكانية..

يحدق آسر في لي لي وهي تشاهد التلفاز.. يلقي نظرة سريعة غير مهتمة إلى ما تشاهده، ثم يقف خلفها.. تنظر إليه المربية بلا اكتراث ثم تكمل قراءتها لكاتالوج إحدى شركات منتجات التجميل الغربية الشهيرة..

لقد أدمنت نهى شراء تلك المنتجات وخصوصًا أن مرتبها يسمح بذلك، وبالرغم من أن كل تلك المنتجات غير مجدية إلا أنها لم تستطع الخلاص من سحر طريقتهم الدعائية وعروضهم الخاصة المغرية..

تساءلت مرة "من أين يأتون بمنتجات جديدة شهريًا؟! وأين تذهب القديمة؟!" سؤال لم يمكث في ذهنها أكثر من ثوانٍ ثم عادت تطالع كاتالوجها..

وقف آسر خلف لي لي ثم مد يده.. كان يريد الإمساك بالخيوط الدخانية البيضاء التي تربط رأس لي لي بشاشة التلفاز.. لم يكن يجرؤ على لمس الخيوط الخارجة من التلفاز وإلى الهواء فوقه كي لا تلاحظ لي لي وجوده..

ما إن لمس تلك الخيوط، ولأول مرة في حياته، حتى شعر بها تنقطع وتسري في ذراعه..

انتفضت لي لي واقفة وهي تفرك عينيها بينما سقط آسر على الأرض..

ثوانٍ قليلة ثم امتدت الخيوط ثانية إلى رأس لي لي.. بكت الطفلة وهي تشير إلى آسر.. لم تر نهى ما حدث، ولم تستطع الربط بين سقوط آسر أرضًا وبين كونه المعتدي على لي لي..

– لماذا ضربتها يا آسر؟

– لم أضربها.. كنت.. كنت أريد أن أمسك الدخان من رأسها..

- دخان؟ أي دخان؟

- الذي يربطها بالتلفاز..

- لن تكذب ثانية.. سوف أخبر الأستاذ زين عندما يعود.. اذهب إلى حجرتك.. الآن..

يعود آسر مثني الكتفين إلى حجرته.. يغلق الباب وينظر أسفل السرير..

- ذلك يؤلم فعلاً.. لكنني أستطيع أن أفعله ثانية عندما تريد ذلك..

ينظر إليه الطفل الغامض النائم على بطنه أسفل السرير في رضا ثم يبتسم..

******

جلست رنا أمام منال الجالسة على الكرسي أمامها وهي تدفن رأسها في كفيها وتبكي..

- رنا.. في حياتك عدة مشكلات لا بد من حلها.. لقد أضعت أربعة أشهر في محبسك هذا ولن أظل أتسلل إليك إلى الأبد لأطعمك.. تعلمين أن رشدي لا يريدني أن آتي إليك ولا أجد إلا بضع دقائق أختلسها معك في طريق عودتي بالبنات من المدرسة.. خذي مفتاحك واعذريني إن أخذته دون إذنك ودون أن يلحظ رشدي ذلك.. حاولي الخروج ومواجهة العالم..

- أنت لا تشعرين بشيء.. لست مكاني.. بناتك معك وزوجك معك.. سمعتك بخير وهناك من ينفق عليكِ.. بالله عليك لا تنصبي نفسك قاضيًا على أفعالي..

- حسنًا.. تريدين العيش كالديدان في الحفر. افعلي ما شئت.. يمكنني أن

أساعدك في حفر قبر ترقدين فيه حتى يحين الأجل إن أردت.. هذا آخر ما أستطيع تقديمه لك..

وقامت منال ملقية المفاتيح على حجر رنا الغاضبة الباكية واصطحبت طفلتيها وغادرت..

لم تستطع رنا إطالة النظر إلى ابنة منال الصغرى أكثر من ثوان.. لم تعد تملك حتى القدرة على التساؤل عن ذلك التعبير على طيف الطفلتان، وكيف أن وجهها المعبر سواء الحقيقي أو الطيفي قد استحال وجهًا خشبيًا بلا أي تعبير يشبه إلى أقصى حد وجه دمية خشبية..

******

حملت إيناس الصحفة التي تحوي بعض الشطائر من يد نهى المذعورة الواقفة على باب حجرة آسر وأمرتها أن تذهب الآن..

أسندت إيناس رأسها على باب الحجرة المغلق وأنصتت.. كانت تريد التأكد من صحة ما زعمت نهى أنها سمعته..

بالفعل كان آسر يتحدث ويضحك.. يرد على كلمات لا تسمعها لكنها رجحت أن الأمر ليس خطيرًا.. ربما يلعب بأحد الدمى أو يتخيل صديقًا.. إن أشياء كهذه تحدث مع الأطفال الانطوائيين مثله..

طرقت الباب ثم دخلت.. كان آسر نائمًا على بطنه فوق السرير رافعًا الملاءة ناظرًا إلى ما تحتها وهو يضحك.. رفع رأسه وابتسم لها ثم اعتدل في جلسته متربعًا..

-آسر.. لم أرد أن أوقظك لتناول العشاء معنا.. ها هو عشاؤك..

لم ترد إيناس أن توقظه لتناول العشاء معهم لأن لي لي لا تكف عن الصراخ في وجوده.. إن فصلهما هو الحل الأسهل..

تناول آسر شطيرة من الصحفة وأخذ يأكلها شاردًا. جلست إيناس بجانبه وأحاطته بذراعها.. لا تدري لم تنبعث رائحة الرمال المبتلة من هذا الطفل مهما اغتسل.. ليست رائحة سيئة، في الواقع تذكّرها برائحة الأرض الندية بعد الأمطار..

– حبيبي.. مع من كنت تتكلم..؟

– مع صديقي..

وأشار إلى أسفل الفراش..

–.. اها.. ما اسمه إذن؟

– لا أعرف.. لم يخبرني..

– ولماذا لا يجلس معك فوق الفراش؟

– لا يحب ذلك..

– ممم.. أريد أن أراه إذًا.. لا بد أنه لطيف جدًّا..

– لطيف لكن لن تحبيه.. ولن تستطيعي رؤيته أبدًا..

– لمَ؟ سوف احب كل أصدقائك.. أعدك..

– لن تستطيعي.. صديقي ميت!

انزعجت إيناس وعقدت حاجبيها.. لم تنزعج من لفظة "ميت" قدر انزعاجها من الطريقة الطفولية الهادئة التي نطقها بها آسر دون أن يغير من تعبير وجهه المبتسم، وكأنه يخبرها أن صديقه مسافر مثلاً..

- ميت؟ ما هذا الكلام.. ؟؟؟ وكيف تراه أنت إذن؟

- أراه.. وأبي وأمي يريانه أيضًا..

- زين؟!! ومن أخبرك بذلك؟

- رأيته يراه عندما كنا في منزل أمي..

- حسنا.. ل.. و... لا شيء.. هل تريد شيئًا؟

- .. لا.. آآ.. طنط.. أريد أن أذهب إلى امي..

- حسنًا.. سوف أخبر والدك وأحاول أن أسافر بك إليها..

- إنها مريضة وضعيفة وساقها مجروحة من أثر الرصاصة...

- رصاصة.. ؟ من أين أصابتها؟

- أبي كان يريد إطلاقها على رمزي لكنها أصابتها..

شعرت إيناس بدوار.. من أين للطفل بهذا الكلام؟ هل يختلق كل هذا؟ صديق ميت ورصاصة ورمزي..

- كفّ عن هذا الكلام.. إن لم تكف سوف.. سوف.. أخبر والدك..

وخرجت من الحجرة وأغلقت الباب ووقفت خلفه.. ما هذا الطفل الغريب؟ وما مدى صحة كلامه؟ ترى هل تعرف رنا رجلاً آخر وأراد زين قتله وبطريقة ما أصيبت رنا؟.. هل هذه هي المشاجرة التي أخذ على أثرها آسر منها؟ لمَ لمْ يخبرها زين بذلك؟ تعرف أنه لا شأن لها بمشكلاته التي لا يريد الحديث عنها، لكن.. هل يستطيع زين التهديد بمسدس حقيقي، بل وإطلاق النار منه أيضًا؟ ترنحت بوجه باهت وهي تتجه إلى حجرتها، وفتحت الباب ثم تمسكت بالمقبض لثوانٍ لم تستطع فيها رفع رأسها مستقيمة فوق كتفيها..

كان زين جالسًا يفعل شيئًا ما على كومبيوتر محمول، فوضعه جانبًا وقام محيطًا إياها بذراعيه..

– حبيبتي.. ماذا حدث؟ اجلسي..

– لا شيء.. دوار.. أعتقد أنني مصابة ببرد أو.. أو شيء ما..

– لا تبدين مريضة، بل.. مذعورة؟ ماذا حدث؟ هل هو شيء خاص بآسر؟ سمعت باب حجرته يغلق قبل وصولك إلى هنا.. هل كنت هناك؟

– نعم.. لا شيء.. ما زال غريب الأطوار..

لم تتحدث إيناس أكثر وقد قررت أن تفكر في الأمر وحدها أولاً قبل أن تقرر ما يقال وما لا يقال.. وحين أطفأ زين نور الحجرة وغط جوارها في النوم، مدت يدها إلى هاتفه المحمول في سلوك لم تعهده في نفسها من قبل.. بحثت في قائمة الأسماء حتى وجدت رقم رنا تحت اسم "آسر".. نقلته بسرعة إلى هاتفها ثم أعادت هاتف زين مكانه..

ظلت تتقلب في فراشها حتى شروق الشمس، ثم نامت بعد تلك الهلوسة الذهنية التي تصاحب الأرق والمحاولات الفاشلة للنوم.. هلاوس عن طفل ميت ورصاصات ورنا...

فرصة أخرى..

استيقظت رنا في الصباح التالي وقد شعرت بنشاط غريب.. كان هناك اتصال عقلي بينها وبين آسر طيلة الليلة السابقة، وقد لاحظت وضوح صوت ابنها أكثر فأكثر كل ليلة..

كانت تراه نائمًا على سرير صغير وبجانبه مكعبات جديدة... على الكومود بجواره بقايا شطيرة وكوب لبن فارغ.. لقد كان بخير وظل يخبرها أنه يفتقدها بشدة ويرجوها أن تنتظر عودته قريبًا دون أن تموت..

سألها عن ساقها وشعرت بملمس كفه الصغير على الجرح بشع الشكل الذي التأم بتشوه واضح أصابها بعرج بسيط دائم..

ولولا عناية منال به لكان قد تسبب في تسممها أو قطع قدمها على أحسن تقدير..

جلست على الفراش وهي تسترجع ذكرى الليلة الماضية وابتسمت.. عبثت في ثيابها المكومة على منضدة الكومبيوتر المكسورة التي لم تعد قادرة على حمله وبحثت عن ثياب تصلح..

كانت طبقة من الغبار قد تكونت على الكومة لكنها استطاعت أن تجد بنطالاً أسفل الكومة وجاكيت.. نفضت الغبار من عليهما ثم فردتهما بالمكواة..

بحثت عن نقود في جيوب ملابسها وفي أركان حقيبتها.. إن البطانة المقطوعة للحقيبة قد تحوي كنزًا من العملات المعدنية المنزلقة هناك..

أخرجت عشرات الأوراق الممزقة التي كانت تحوي قوائم بمشتريات الشهر والعديد من العملات المعدنية والمناديل نصف المستعملة التي تلطخت بقلم كحل صغير انخلع عنه غطاؤه فكسا كل ما احتك به بخطوطه السوداء الدهنية..

جمعت ثلاثة عشر جنيهًا وخمسًا وسبعين قرشًا دسّتهم في جيبها، وقبل أن تقوم علقت عينها بإحدى الأوراق المكومة التي كانت تحوي قائمة مشتريات منها عبوة بودرة الكاكاو التي كان يعشقها آسر.. أمسكتها ومرّت بأصبعها على اسم المنتج.. تذكرت رائحته وتذكرت الشارب الذي كان يسببه المشروب فوق الشفا العليا لآسر.. شارب بني يتناسب مع شعره البني المنسدل على جبهته.. قبضت بكفها على الوريقة وتنفست بعمق مغالبة نوبة البكاء الآتية ثم دستها في جيبها ونزلت..

وقفت دقائق داخل مدخل العمارة المظلم ودقات قلبها تسارع أكثر.. لقد نجت من رؤية بثينة وهي الآن تفكر في التراجع. هل تخرج وتتوكل على الله وتواجه بشجاعة ما سيلاقيها أم تعود وتستسلم للموت ببطء في شقتها؟
تذكرت لمسة آسر لقدمها أمس.. تذكر أن هناك من تحيا لأجله ومن ينتظرها لاستعادته..

ارتدت نظارتها السوداء التي أخفت معظم وجهها الصغير وخطت إلى الشارع..

تعرج قليلاً لكنها سارت بأسرع خطواتها ولم تنظر حولها.. سارت حتى انعطفت في آخر الشارع ثم دخلت السنترال الصغير هناك..

أخرجت هاتفها المحمول وبحثت عن رقم محمول منال.. أملت العامل الرقم بصوت مرتجف ثم رفعت السماعة داخل الكابينة..

الهاتف يرن ونصف عقلها يتمنى ألا ترد.. لقد شعرت أنها أهانت منال بشكل ما في آخر لقاءاتهما لكنها لا تملك أحدًا في العالم إلا هي..

لم يتم الرد على المكالمة.. أغلقت السماعة وأسندت رأسها إلى جدار الكابينة.. ماذا تفعل الآن؟

- يا مدام.. هل تريدين المحاولة مرة أخرى؟

أتاها صوت العامل الملول من خارج الكابينة وكأنه من عالم آخر.. خرجت وهزت رأسها له نافية.. أمسكت بهاتفها المحمول مرة أخرى أمام السنترال وراجعت قائمة الأسماء في الهاتف مرة أخرى..

دقات قلبها تتسارع ثانية وهي ترى اسم رمزي.. هل تتصل به؟ بعد كل ما حدث له بسببها؟ لكنها لا تعلم ما حدث له، كل ما تعرفه هي تلك الحالة العجيبة التي أتاها بها في يوم الحادث و لم تره بعدها..

عادت إلى السنترال وطلبت تحويل رصيد بقيمة جنيهين.. لن تنتظر لحظة الشجاعة المناسبة في الشارع، إن رصيدًا في هاتفها سيجعل اقتناص لحظة كهذه أسهل..

اشترت شطيرتي فول وجلست تأكلهما أمام المحل وهي تعلم أن الثلاثة عشر جنيهًا تتناقص، وأنه لا بد لها من إيجاد مساعدة مادية حتى تجد عملاً..
وقفت اللقيمات في حلقها جراء هذا الخاطر.. إنها وحيدة تمامًا في هذا العالم..
لن تعود المياه إلى مجاريها مع أي ممن كانت تعرفهم.. لقد انقطعت الخيوط التي كانت تربطها بالجميع في يوم واحد وعليها أن تتصرف وحدها الآن..

******

انتهى المسلسل الأجنبي الشهير الذي تابع إيناس إعادة أجزائه الست في شغف في الساعة الواحدة مساء.. شاهدت الحلقة بمفردها كالعادة، إذ يجد زين أن جميع المسلسلات "نسائية" بشكل ما.. إن فكرة مشاهدة الأحداث المتعاقبة لمسلسل ما هي من صميم الطبائع الأنثوية.. نوع من النميمة المشروعة تستطيع المرأة من خلالها الاطلاع على خصوصيات الناس ومناقشتها علنًا مع صديقاتها دون أن يتهمها أحد بسوء الأخلاق. بينما تعتبر الأفلام ذات خصائص رجولية أكثر.. مجموعة متلاحقة من الأحداث تلخص موقفًا شائقًا في أقل من ساعتين..

كان طبيب التجميل الأسمر في المسلسل يشبه زين إلى حد ما وكانت مشاهدته في المسلسل أثناء العرض الأول له في عام ٢٠٠٨ يثير خيالها تجاه زين الذي كان مجرد مدير وسيم تحلم به جميع العاملات، ولم تكن إيناس تتصور وقتها أن يتزوجها هي بالذات من بين كل العاملات في شركته، خاصة كونه متزوجًا في الأصل..

اليوم كانت تشاهد الحلقة نصف واعية. تمسك هاتفها المحمول في يدها وأصبعها الإبهام على زر الاتصال تحت رقم رنا منذ الساعة العاشرة مساء.. كلما أمسكت بضع كلمات ذات معنى لتلقيها على مسمع رنا، أفلتت منها أثناء محاولاتها لرسم خريطة حوار كامل..

كانت احتمالات أن تهينها رنا بشكل ما قائمة في ذهنها.. كانت تتمنى حقًّا أن تسبّها رنا وتنعتها بأي نعوت تطفئ نيران شعورها بالذنب كونها اختطفت زين منها.. ومن بعده آسر..

تلك النعوت ذاتها إن أطفأت نار شعورها بالذنب فستؤجج لهيب الكره بينهما، وستصير المواجهة بينهن حتمية.. سيصير على إيناس مواجهة رنا

بعيوبها التي جعلت زين يهرب منها، فقط كي تشعر أنها لم تختطفه فعلاً!
على جانب آخر، كانت إيناس لا تحمل لرنا من الكراهية أكثر مما تحمله لطفلها آسر.. من الصعب أن تكره المرأة المنتصرة غريمتها. تعلم أنها أفضل منها وأحكم وأجمل.. لن يعادل هذا كفتيهما أبدًا، لكنها كانت أيضًا تشفق على رنا.. لو كانت تزوجت مرة أخرى بعد زين، لكان شعور إيناس بالشفقة أو الحب قد تغير كثيرًا.. ستكون وقتها رنا امرأة قوية تستطيع أن تكرهها إيناس دون مراجعة نفسها مرتين!

أخيرًا أغلقت إيناس التلفاز وقامت متسللة إلى حجرة نومها.. زين نائم وقد كور الملاءات والأغطية تحت قدمية كعادته.. أغلقت الباب ومشت إلى حجرة آسر..

كانت صوت الطفل آتيًا من الداخل.. يتحدث وإن غمر صوته نبرة النوم التي تدغم الحروف بعضها البعض.. كان يكلم أمه.. يرد عليها.. يضحك.. يسألها إن كانت فعلاً لا تملك إلا عشرة جنيهات..

تفتح إيناس الحجرة فتجد آسر نائمًا على ظهره وشعره الطويل يفترش الوسادة من خلف رأسه.. يبدو كفتاة جميلة ملائكية الملامح.. تودّ لو تقص شعره بعض الشيء لكنها تشعر أنه ليس ملكها.. لا تستطيع أن تجري عليه أي تغيير..

ما كان يحيرها أكثر هو قدراته اللغوية التي تماثل طفلاً أكبر بثلاثة أعوام على الأقل.. طفل وحيد منطوٍ مثله، من أين له بطلاقة اللسان؟

لم تكن تعرف أن أمه لم تكفّ لحظة عن التحدث معه منذ أن كان مضغة في رحمها.. تتحدث وتغني وتقرأ القرآن وتقصّ القصص.. كان آسر ولا يزال جزءًا منها حتى وإن غادر أحشاءها منذ سنوات.. كانت هالتها تحيطه وتحميه

وتقوي العلاقة بينهما حتى وإن ابتعدت المسافات..

أغلقت إيناس الباب بهدوء وجلست على الأريكة وضغطت زر الاتصال أخيرًا..

******

كل ما في الموضوع هو أن أنسجة مخ رمزي سليمة ظاهريًا لكنها فعليًا احترقت تمامًا، هذا ما جعل تلك العين التي ظهرت على الأشعة تظهر، وإن شك الأطباء في أعينهم ورجحوا ببساطة – أو بإهمال – أنها عيب أشعة!

كلنا – أو معظمنا على الأقل – نملك عينًا مشابهة تراقب تصرفاتنا وترصد أي عمل تحرري أو مجرد تفكير متعمق فيما حولنا.. تلك العين تجبرنا على رؤية ما تريدنا أن نراه، ومحاربة ما غير ذلك باستماتة شديدة..

لو جادلت أحد أولئك الأطباء أو رجوته إعادة إجراء الأشعة مرة أخرى لاتهمك بالجهل والتخلف.. هل تعرف أكثر منه؟! كيف تتجرأ وتشك في مسلمات أملوها عليه في الكلية، وأملاها عليهم في الكلية من اخترع تلك المسلّمات، وغلّفها في غلاف من التشدد والتمسك بالرأي..

إن لم تصدقني يمكنك معارضة أي شخص تجده مهما بدا لك من التفتح والديموقراطية.. أو الأقرب، تخيل أن يجادلك أنت نفسك أحدهم في واحدة من تلك المسلمات المزروعة في عقلك والتي لم تتساءل قط عمن زرعها..

هل سألت نفسك يومًا أثناء بحثك على الإنترنت عن معلومة ما، هل كل المعروض أمامك في صفحات نتائج البحث هي كل المعلومات المتوافرة حقًا على الإنترنت أم أن هناك من يصدر لك معلومات معينة ويحجب ما دونها؟

هل هناك من يريدك أن ترى الأمور من جانب واحد فقط في ذلك الوقت بالذات؟!

منذ سنوات تم ترشيح رجل تحدث الجميع عن نزاهته - رغم زلاته البشرية العادية - لمنصب هام جدًا في الدولة.. قبل ترشيحه بأيام لم تكن تجد من يشكك في نزاهته أو على الأقل من لا يعتبره رجلاً يصلح لذلك المنصب الهام.. وفجأة.. تم ترشيح الرجل، وانهالت على شبكة الإنترنت من كل صوب الوثائق والفيديوهات التي تؤكد أن الرجل نصاب أفّاق عميل مصاب بالزهايمر ولا يصلح لحراسة عشة دجاج! بل أيضًا اختفى كل ما يشير إلى أي من حسنات الرجل، وصعدت الأصوات تخرس من سولت له نفسه الدفاع عنه أو مجرد مشاركة المعلومات المغايرة لما انتشر عنه..

لم يسأل أحد أين كانت تلك المعلومات والوثائق، و لِمَ ظهرت الآن بالذات.. لقد أدت العين عملها كاملاً ولن يشك أحد في شيء..

إن كان لم يزل لديك سيطرة على تفكيرك الخاص بعد، ستجد ما أخبرك به.. ستشعر بالحصار ولربما تصاب بجنون الاضطهاد أيضًا..

أحيانًا تبدو نظرية المؤامرة سخيفة، ولكن هل هناك تفسير آخر لما يحدث؟ هل نظرية المؤامرة فعلاً سخيفة أم أن هناك من وضع في عقولنا منطق سخافتها بل من منا لا يتبنى نظرية مؤامرة بشكل ما؟ تبنى ثوار يناير نظرية المؤامرة على الثورة من قبل "فلول النظام السابق"، بينما يتبنى آخرون نظرية مؤامرة من دول أجنبية لتأجيج نيران الثورات العربية، هذا إن لم تكن من المؤمنين بنظرية "الأيدي الخفية" التي تفسر كل شيء دون اتهامات أو ميل لتيار ما..

كانت العين في مخ رمزي تعمل لكنها الآن تعمل كذاكرة تعيد عرض ما أنجزته من أعمال طوال حياة رمزي القصيرة.. من اللحظة الأولى في حياته،

وكانت حياته تتم قولبتها في أشكال وطقوس لا معنى لها، وإنما الخروج عنها أو حتى مناقشتها كان تابو ممنوع الاقتراب منه..

كانت تلك القولبة بمثابة الإعداد الأول لشخصية تتقبل أي شيء دون معارضة وهي الشخصية الغالبة الآن.. وإن بدأت تطفو على السطح شخصيات أخرى براقة تعارض من أجل المعارضة، من أجل أن تشعر بأن لها الحق في الأمر والنهي والاختيار..

لقد بدأ البشر يستفيقون بعض الشيء في عصور مختلفة.. بدأوا في الإحساس بأنهم مخدوعين، منقادين بشكل ما.. بدأوا في البحث عن قيودهم.. قاموا بثورات ناجحة وتحرروا لبعض الوقت.. ثم أدرك المحركون خطورة مثل هؤلاء فبدأوا في بث الثورات الخاصة بهم في العقول فقط؛ كي يشعر البشر أنهم قادرون على الاعتراض والتحرر..

لقد أحكموا الحلقة من حولنا، وأعطونا الخيار بين أمور كلها سواء.. كلها تصبّ في مصلحتهم.. صرنا نتخبط ولا ندري، انختار ونسير في طريق رسموه لنا؟ أم لا نختار ونظل تحت إمرتهم أيضًا؟!

الحق أن عقولنا قد دُفنت تحت قرون من صدأ الجهل والعبودية والادعاء ونحتاج بالفعل إلى إعادة صقلها قبل اتخاذ أي قرار ربما يؤدي بنا إلى زنزانة أبدية..

يدفعوننا كي نتسرع ونبني ما تم هدمه خلال قرون في أيام معدودة.. مبانٍ هشة مغرية نتشبث بها من أجل سويعات أفضل تليها قرون تحت الأنقاض نلفظ أنفاسنا تحت ما بنيناه..

مجرد مكالمة..

كانت إيناس تعلم أن الوقت متأخر وربما نامت رنا، لكنها كانت قد استجمعت شجاعتها وخشيت أن تخذلها إذا انتظرت إلى الصباح..

رن الهاتف عدة مرات ثم أتاها صوت رنا ناعسًا وإن كانت تكسوه سعادة ما..

– ألو.. مدام رنا؟

– نعم.. من؟

– آسفة على الاتصال في وقت كهذا..

– لا عليك.. لكن من أنت؟

– أنا.. إيناس... زكريا.. زو......

ثم سمعت صوت رنا عاليًا منتفضًا حتى إنها أبعدت السماعة عن أذنها قليلاً..

– آسر.. هل هو معك؟ تكلمي!

– نعم.. نعم.. اهدئي.. هو معي وأنا أتصل كي أخبرك بذلك..

– وأين كنت طيلة الفترة الماضية؟ هل كان معك كل تلك الفترة؟

– نعم.. لكنني لم أكن أعرف رقمك.. صدقيني أنا كنت – وما زلت – ضد أن يأخذه زين منك.. صدقيني..

– هل هو بخير؟ هل يمكنني رؤيته؟

– لا أعرف.. أعطيني فقط مهلة كي أدبر أمري.. أنا لا أخرج مع آسر وحدنا أبدًا.. لا بد من لي لي والمربية.. سوف أفكر في طريقة، وأعدك أنني سأحضره لك في أقرب وقت..

ترددت رنا قليلاً في الرد، كانت تفكر في اتهام تتهم به إيناس ولو بخطأ ما في كلامها تلومها عليه لكنها لم تجد..

– شكرًا.. هل أستطيع التحدث إليه؟

– أخشى أن يستيقظ أبوه ويراه يحدثك.. لكن.. انتظري..

وتقوم إيناس إلى حجرة آسر وتفتح الباب فتجد آسر جالسًا على السرير ولا أثر للنوم في عينيه..

–.. ماما؟!!!

– نعم..

وتعطيه إيناس الهاتف فيتلقاه في لهفة ويتحدث إلى رنا.. يضحك ويطلب منها ألا تبكي.. يستمع إليها ثم يضحك مرة ثانية ويخبرها أنه سيعود إليها مرة أخرى قريبًا..

تأخذ إيناس الهاتف من آسر برفق وتربت على شعره، ثم تخرج وتغلق باب حجرته خلفها..

- مدام رنا.. أريد أن أتحدث معك.. وحدنا.. هل تستطيعين القدوم إلى القاهرة..

-.. يمكنك أن تأتي أنت.. في أي وقت.. لكن عمّ تريدين التحدث؟

- عن أشياء لا يصلح الحديث عنها في الهاتف.. يمكنني أن آتي إليكِ غدًا..

وتواعدت المرأتان أن تتقابلا في مكان عام، لكن رنا رفضت أن تتقابلا في كافيتريا ما؛ فهي لن تسمح أن تدفع لها إيناس ثمن ما ستشربه وإن لم تصارحها بذلك..

بعد انتهاء المكالمة دخلت إيناس غرفة آسر مرة أخرى فوجدته يتدثر بالغطاء استعدادًا لأن ينام..

جلست بجانبه وقبّلته ثم سألته..

- آسر.. هل تحلم بأمك كل يوم؟

- نعم.. لكنني أراها فعلاً.. لا أتخيلها..

- وهل أخبرتك أنها لا تملك مالاً؟

- نعم.. كنت أريدها أن تأتي كي تأخذني لكنها أخبرتني أنها لا تملك إلا عشرة جنيهات..

تمنت له أحلامًا سعيدة ثم قامت إلى شرفة غرفتها تذرعها جيئة وذهابًا.. شعور عظيم بالألم بعد أن سمعت صوتها وعرفت ما آل إليه حالها.. كانت تذكرها في حفلات الشركة التي كان زوجها يقيمها، طفولية الملامح، ترتدي حجابًا أنيقًا مثل الذي ترتديه ممثلة شهيرة محجبة تماثلها حجمًا وشكلاً.. تضع عطرًا هادئًا جدًا وفاخرًا جدًا.. نظرة انكسار واضحة في عينيها حتى قبل أن تترك زوجها، لكن انطباعًا عامًا بأنها "ابنة ناس" تخشى إيناس الآن أن ترى تبدّله عليها..

تعلم ان تانيب الضمير سيقتلها غدا وستشعر حتما بانها اخذت الطعام من فم رنا وتركتها تتضور جوعا.. لكنها تريد أن تعرف عن زوجها وعن المسدس وعن الطفل الميت.. لا بد أن تعرف..

******

استيقظت رنا في الصباح وهي تشعر كأنها كانت نائمة على سرير من الأشواك.. اليوم ستقابل إيناس.. اليوم..

جمدت الأرضية الباردة أطراف أصابعها وهي تمد قدميها بحثًا عن خفيها.. وقفت حافية أمام كومة الملابس على منضدة الكومبيوتر المكسورة. رفعت الجاكيت النظيف الوحيد من فوقهم ونظرت إليه بخواء لدقيقة ثم تركته يفلت من يدها إلى الأرض..

جرّت قدميها الحافيتين إلى الحمام.. رمقت المرآة بنصف عين ثم توقفت..

من هذه المرأة؟ منكوشة الشعر يتدلى من أسفل جفنيها كيسان عملاقان أزرقان يصلحان لإخفاء طلبة مدرسة حكومية فيهما. تجعيدتان تشبهان قدمي الغراب على جانبي كل عين، تجعيدتان على ركني فمها..

تلمس وجهها بأصابعها النحيلة البارزة المفاصل، يد عجوز في الستين..

تمرر كفيها في شعرها وتنحني باكية على الحوض..

لماذا تمادت في علاقتها برمزي من الأساس؟! هي من جلب كل هذا الوبال على رأسها.. تفكر رنا في السنوات التي تنزلق من عمرها بلا رجعة.. تراها في مرآتها تحفر في وجهها ما تحفره الأنهار في مجاريها عبر السنين.. أخاديد لن تمحى، ولن يخطئ أحد وينعتها "آنسة" مرة أخرى.. لن تجد من يسميها

"ابنته" ما لم يكن قد تجاوز السبعين..

كان آسر يكبر.. كان مقياسًا لعمرها معلقًا أمام عينيها أينما ذهبت.. الأولاد يعطون فكرة صادقة تمامًا عن أعمارنا مهما حاولنا تجاهل تلك الحقيقة.. آسر سيذهب إلى الحضانة.. بعدها المدرسة.. ولن تلبث الجامعة إلا أن تأتي مهرولة خلف الجميع..

رمزي اعتبرها جميلة رغم فارق السن.. اعتبرها جذابة.. تحدي قيود أمه من اجلها.. كان رمزي هو المؤشر الأخير لكونها ما زالت شابة.. وما زالت صالحة للاستخدام.. إن هي إلا أعوام أخرى وتفقد تاريخ صلاحيتها.. ستصبح خطرًا على صحة من يتعاطاها!

إنها تكبر أسرع مما يسمح به الوقت كي تتأقلم مع وضعها الجديد.. تقلت فرصها كامرأة يوميًا..

كزوجة.. لقد كانت زوجة و لم تعد كذلك.. هرب زوجها أو هربت هي منه.. كلاهما اتخذ طريقًا موازيًا للآخر وتمسك به.. لن يلتقيا ثانية أبدًا..
كأم إن آسر لم يعد معها حتى.. وإن ظل معها إنه يكبر وتأخذ الحياة من نصيبها فيه كل يوم.. تقل حاجته إليها كلما كبر.. وقريبًا ستصبح عبئًا عليه..
أما الرجال فيعلمون ما هم عليه.. يستطيعون إيجاد ما يفعلونه في الثلاثين أو الأربعين أو الخمسين.. تمتد فترة صلاحيتهم أطول كثيرًا، إلا أنهم دومًا يموتون مبكرًا غير راضين عن تلك الحياة القصيرة التي لم تتسع لكل ما أملوه فيها.. كأن لم يكفهم أنهم عاشوا فعلاً حياة ثلاث نساء على الأقل من العمل والمتعة وعدم الاكتراث للشيخوخة.. عدم الاكتراث لتلك المرآة اللعينة التي ترى فيها النساء التجاعيد تزدحم في وجوههن كل ثانية، كأنها فيلم تم تسريع الزمن فيه..

لم يكن هناك من مفر.. لقد إحتاجت رمزي، ومازالت الحاجة تلح عليها كجلد أجرب يلحّ كي تمزقه حكًا..

بخطواتها العرجاء تسير خارجة من الحمام، بغلّ حقيقي تضرب ملابسها أرضًا.. كل تلك الأسمال..

- ماذا أرتدي هه؟ ماذا أرتدي؟! ! أسمال.. أسمال.. أسمااااال! ماذا تريدين يا إيناس عليك اللعنة.. ؟! تريدين مباهاتي بملابسك وسيارتك وزوجي وطفلي؟!! تريدين مباهاتي ببشرتك المشدودة وقوامك ال......ه.. ه.. ماذا أرتدي؟!!!!

تجلس رنا بين ملابسها وتبكي مرة أخرى.. جاثية ترحف إلى حافة السرير وتسحب هاتفها المحمول من أسفل الوسادة.. تمسح عينيها والمخاط المتدلي من أنفها في خرقة هناك ربما كانت قميصًا يومًا ما..

- أريد ابني.. آسر.. آسر... هههه.. آه!.. رمزي.. رمزي....

ومن بين دموعها تطلب الرقم..

******

تحاول إيناس جاهدة ألا ترتدي شيئًا مميزًا.. تبحث بين ملابسها.. ربما بنطالاً من الجينز وسترة عادية.. تحاول أن ترى كيف ستراها رنا.. لا تريد أن تجرحها حقًا.. تحاول ألا تثير غيرتها، وقبل كل شيء، تحاول ألا تكون المرأة الشريرة أمام نفسها مرة أخرى..

كوم الملابس خلفها على السرير والذي فشلت في الانتقاء منه يشعرها بتحسن،

يشعرها أنها تبذل جهدًا خاصًا كي لا تجرح امرأة أخرى..

من خلفية عقلها تدندن اللحن الخاص بمسلسلها الشهير..

أربع جمل هي كل الأغنية، لكنها تلخص بشكل ما التناقض الذي تشعر به.. تلخص بشكل أكبر علاقة الرجل بالمرأة..

Make me.. beautiful..
Make me..
Perfect soul..
Perfect mind..
Perfect face ...
A perfect.. LIE!

إنها كذبة فعلاً.. تريد ألا تصبح مثيرة لغيرة رنا، لكنها لا تريد أيضًا التباهي بجمالها.. يمنعها أن تظن أنها أفضل من رنا.. إنها بعيدة جدًا عن أن تكون مكانها..

تريد وأد الشيطانة الأنثوية فيها، لكنها ما زالت لا تحكم أصابعها على عنقها.. تترك لها – عمدًا – متسعًا للتنفس..

تعلم أنها ستصبح أجمل إذا ارتدت تلك الملابس البسيطة.. تعلم أنها توجّه بهذا رسالة مباشرة لرنا "كلتينا نرتدي ثيابًا بسيطة، لكنني مازلت أجمل بما أملك في بيتي.. في سريري..".

في ذلك المسلسل، جراحان للتجميل يقومان بمساعدة النساء على تخطي محن تجميلية، بينما يحاولان أن يغطيا التشوهات في حياتيهما خارج عمليهما فيفشلان.. لكن إيناس ترى ما هو أعمق خلف تلك الأغنية وخلف ذلك المسلسل..

علاقة الرجل بالمرأة.. حقًا كل الرجال أطباء تجميل، والمرأة هي من تعطيهم أدواتهم وموهبتهم أيضًا أحيانًا كثيرة..

الحب يجعل المرأة أجمل.. تلقي متاعبها على كتفي الرجل فيمسح تجاعيدها بمبضعه السحري.. ذلك المبضع الحاد البارع الذي أعطته إياه..

أحيانًا تعطي المرأة الرجل ساطورًا صدئًا وتصيبه بالتوتر ثم تطلب منه أن يجعلها أجمل! يعمله في وجهها فتتناثر الأخاديد والشقوق.. تشيخ المرأة أو تصبح أكثر شبهًا بالرجال..

لكن.. في كلتا الحالتين هو جمال كاذب.. وكذبة بارعة.. لن تحافظ المرأة على ذلك الجمال ما لم تكن هي من تمنحه ومن تشعر به داخلها.. لن يجعلها أحد جميلة ما لم تكن لديها القدرة على أن تصبح كذلك..

ترتدي إيناس آخر ما التقطه يداها ثم تعقص شعرها في شلال أسود خلف ظهرها.. تعلم تأثير شعرها المترجح مع البلوفر العالي الرقبة.. تعلم أن هذا يحدد وجهها الأملس الخالي من التجاعيد ويعكس رشاقتها وطول قامتها.. لكن من يتهمها بالتكلف؟!

ركبت سيارتها حتى محطة الأوتوبيس وأخذت كيس الهدايا الصغير من المقعد الجانبي ثم تركتها في ساحة السيارات واستقلت الأوتوبيس المكيف المتجه إلى الإسكندرية..

******

ضغطت رنا زر الاتصال في الهاتف وطفقت تنتظر.. إن هاتف رمزي غير مغلق.. غير مشغول.. لكنه لا يرن.. لا تسمع أي شيء.. لكنها لا تسمع

صمتًا مطبقًا.. تسمع همهمات بعيدة جدًا وضوضاء تختلط بأصوات أطفال.. بكاء أم ضحك.. لا تستطيع التحديد.. كررت المحاولة عدة مرات لكن في كل مرة هذا ما كانت تسمعه..

وضعت الهاتف في جيب سروالها وارتدت ما يصلح من ملابسها متحاشية النظر في أي مرآة حتى لا تخذلها شجاعتها.. فقط على الباب مدت يدها في جيبها والتقطت وريقة قائمة المشتريات.. تمرر أصبعها على الكلمة السحرية.. "نسكويك".. شراب الشيكولاتة المفضل لدى آسر..

تكاد تسمع صوته المتراقص حين كان يرى إعلان ذلك المنتج في التلفاز فيغني "نسكويك.. نسكويك!! " كأنه عصفور صغير..

تجول بعينيها في المنزل الخالي.. تكاد تنطبق جدرانه بعضها فوق بعض بدون آسر الذي يملأ فراغه..

تخرج مسرعة وتغلق الباب خلفها.. تترك السترة مفتوحة حتى لا تبرز الانبعاجات في خصر سروالها الناتجة عن إحكام الحزام حول خصرها مع اتساع السروال ذاته...

تشعر بأنها منكمشة في ملابسها وروحها منكمشة فيها.. تشعر أنها أليس المتقزمة في بلاد العجائب في طريقها لمقابلة ملكة القلوب.. أو ملكة تحطيم القلوب..

حيوات أخرى..

كان رمزي يحيا حياة مختلفة بشكل ما.. يعلم انه هو هو.. يعلم أن عقله مصاب، لكنه واع لتلك الحياة بشكل أو بآخر.. واع لكونه ملقى أرضًا في مكان مظلم بارد.. على مسافة منه أضواء متراقصة خافتة كأنها نيران أو شموع..

يشعر بألم في كل عظام جانبه الأيمن؛ إذ يرقد بعد سقوطه من مسافة تقارب المتر.. لم يسقط بالتحديد لكنه انزلق.. تغطي جسده مادة مخاطية ما مخلوطة بدماء..

غير قادر على فتح عينيه إلا أنه يرى.. يشعر بعظامه كأنها غضاريف وليست عظامًا..

يتلقى جلده الرقيق ذبذبات من الأرضية تحته.. أرضية لامعة تزدان بمربعات سوداء وبيضاء كأنها رقعة شطرنج عملاقة.. يظهر في مجال رؤيته طرف ثوب رمادي طويل لا تبدو من تحته الأقدام التي تصدر عن وقعها تلك الذبذبات.. أقدام عملاقة ((.. أم أنه هو الصغير؟...)).. تلتف حول جسده أصابع باردة ناعمة.. يشعر بشيء خشن يلتف حول رقبته ثم يجد طرف هذا الشيء الخشن ((.. حبل؟..)) في كفه الصغيرة المدممة.. تبدو له ككف وليد.. بل هو فعلاً وليد.. يبتلع أول أنفاسه فيشعر بها كأمواس في رئتيه فيصرخ.. يصرخ

ويضحك من حوله وتتردد ضحكاتهم في المكان الفسيح..

يتسع المكان من حوله ويسقط مرة أخرى.. يرتطم بعشب ندي ويخترق أجفانه المغلقة نور الشمس..

يفتح عينيه.. يعلم أنه هو رمزي.. لكنه في مكان لم يره من قبل.. ينظر إلى يديه وقدماه.. جسد طفل لا يتجاوز أربع سنوات..

يفكر.. إنه رمزي حقًا لكنه لا يذكر شيئًا عن حياته الماضية.. يلتفت حوله وشعور غريب بالألفة يغلفه..

منازل صغيرة على الجانبين وأسطحها على هيئة المثلث الأحمر الشهير المغطى بالقرميد، يحيط كل منزل حديقة صغيرة.. يعلم أن هذا هو النموذج الوحيد للمنازل المتحضرة في مصر.. منازل كالتي يسكنها الغربيون في الأفلام.. لا بأس بكلب ضخم ذي فراء لا يعلم من أين دخل للحياة المصرية، لكنهم يفعلون ذلك في الغرب..

يعلم رمزي أن بيته واحد من أولئك.. يمشي ويعبث في جيوبه.. شيكولاتة مستوردة فاخرة يمتلئ غلافها الخلفي بكتابات شديدة الصغر.. يرى علامه حمراء لا يعلم معناها.. علامة تعني احتواء المنتج على دهن الخنزير وهي علامة موجهة للنباتيين في الغرب وبالطبع لا تعني لنا شيئًا.. الجميع أصبح لا يعبأ بجدوى كل هذا.. الخمر حين تغدو مشروبات روحية والزنا حين يصبح "مصاحبة" ولحم الخنزير حين يمسى "بيكون". من أهم أساسيات الحياة إذا كنت تريد أن تصبح متحضرًا.. كن حرًا ولا تكن عبدًا للدين أو لأخلاق..
يتناول الشيكولاتة وتتنامى إلى مسامعه أصوات شجار تنبعث من بيت مجاور لممشاه..

– لا بد لك أن تعلم أن حياتي خارج المنزل لا تخصك في شيء.. رائف

صديقي ونحن نعمل معًا.. نتناول الغداء معًا.. أشكو له ما لا تفهمه أنت.. أحيانًا تحتاج المرأة لصديق.. لقد تعاطف الرجل مع مشاكلي التي لا تعبأ أنت بها وأراد إعطائي الحماية والأمان.. مجرد أن يحتضنني، لا يعني ذلك أكثر من صداقة وشعور نبيل.. لا بد أن تُخرج من عقلك تلك الخرافات عن الخيانة..

مجرد مشادة بسيطة وكلمات تتفوه بها معظم النسوة هذه الأيام.. لقد حصلن على حريتهن كاملة وصار لكل منهن أصدقاء يستمعون لهن ويساعدون في حل مشاكلهن.. صرن يملكن حريتهن في ارتداء - أو عدم ارتداء - ما يُردن مع الاحتفاظ بحقهن كاملاً في انتقاد من ترغب في تغطية جسدها.. إنها بهذا الشكل تفرط في حريتها، وتجرح شعورهن بطريقتها غير المتحضرة في مخالفة ملابسهن..

يدفع رمزي أحد الأبواب الخلفية لمنزل بعينه.. يعلم أن هذا منزله..

مطبخ أمريكي مفتوح على غرفة متوسطة الحجم بها أريكة وثيرة بيضاء وتلفاز مسطح معلق على الحائط..

على منضدة المطبخ طبق مغطى به بطاطس مقلية وشريحة دجاج وخبز.. يبدأ رمزي في الشعور بذاكرته عن حياته الجديدة وقد بدأت تنتعش.. إنه طعام أعدته له والدته وهي في عملها الآن..

إن أمه من جيل "الآباء المنفردين" single parents وهم ينقسمون إلى قسمين: مطلقين ومطلقات تزوجوا لأسباب غير محددة، وانفصلوا لأسباب أقل تحديدًا.. اعتبروا الزواج خبرة جنسية يوافق عليها المجتمع المتحجر العقل، وصار الطلاق حتميًا حين اكتظ الزواج بالمشكلات، وصار أسهل حل لها هو الطلاق.. والدته في هذا العالم من هذا النوع.. أما القسم الثاني فهم رجال ونساء قرروا خوض التجربة الجنسية كاملة والحياة معًا لفترة حتى

يسأم بعضهم بعضًا دون زواج، وهم أناس أكثر تحديًا للمجتمع العقيم الذي يصرّ على مؤسسات فاشلة مثل الزواج، وقد نتج جيل من الأطفال يعيشون مع أمهاتهم، وأكثرهم يعيشون في ملاجئ بينما يبحث آباؤهم عن تجارب جنسية أكثر إثارة..

يجلس رمزي ويعبث في طعامه ثم يترك كل هذا ويخرج قطعة شيكولاتة أخرى يلتهمها وهو يرمق التقويم المعلق على الحائط بجوار الهاتف.. ٢٠٢٥..... لا يوجد ما يدل على أنه في مصر إلا تلك اللغة العربية الكسيحة المتوكئة على إنجليزية نخرة.. يستخدمونها الآن بديلاً عن العربية الصحيحة الثقيلة التي تقيد حرية التصريف والاشتقاق.. بدأت بعض القنوات منذ عشر سنوات في اعتماد اللهجة المصرية العامية في برامجها بما فيها نشرة الأخبار، تلتها صحف مكتوبة باللهجة العامية التي بدأت شيئًا فشيئًا في السيادة ممزوجة بلغات غربية أخرى..

اقترح أحد الكتّاب "ترجمة" القرآن الكريم إلى اللهجة العامية حتى يصبح سهل الفهم على الناس لكن أحدًا لم يهتم باقتراحه، لقد صارت الأديان عراقيل في سبيل التقدم، ولم يعد أحد يعبأ بترجمة الكتب السماوية إلى أي لغة فضلا عن تسهيلها.. لقد زال الكبت عن النفوس، ولم تعد للأديان التي تواسي المكبوتين وتعِدُهم الجنة أية أهمية..

يقول المخرج المصري الشهير خليفة المخرج المصري العالمي الراحل: "إن التدين ينمو ويزدهر في البلدان التي تعاني الكبت فقط، أما وقد قمنا بثورة لتحرير العقول قبل البلاد، فيجب علينا إعادة النظر في توريط الدين في كل نواحي حياتنا، الدين لله، أما الحياة فلنجعلها تسير بعيدًا عن الأديان.. تسير بالعقل..".

يظل رمزي يشاهد كارتون الأطفال منذ ذهاب والدته إلى العمل وحتى نومه.. رمزي لا يجيد الكلام إلا كما يتكلمون في تلك المسلسلات.. لا يجيد التواصل مع أحد كما لا يجدي أحد التواصل مع غيره.. كل في حياة خاصة به..

طيف عن حياة بعيدة مر به.. عن أم بدينة تجلسه على فخذها وتطعمه.. عن أم يجدها في المنزل حين يحتاج إليها.. عن أم تحشره بالملابس في الصيف والشتاء وتعد الفانلات الصوفية التي يرتديها قبل خروجه.. عن أطفال صغار يلعبون معًا ألعابًا لغوية بسيطة أو حتى يستكشفون الطبيعة من حولهم ويستخدمون خيالهم في ابتكار ألعاب خاصة بهم.. عن عائلة تجتمع وقت الوجبات وأب يخشونه ويحبونه في آن واحد...

لم يكن طيفًا عن حياة مثالية، لكنها حياة لها مذاق خاص لم تختلط بشوائب غريبة من حولها، كقالب زبد غير مغطى في ثلاجة، تخلط برائحته الصافية الأصلية رائحة المأكولات المجاورة له فيتحول إلى قالب دهني سيئ الرائحة والطعم..

ينقسم ما يشاهده في التلفاز إلى عدة أقسام: منها أفلام التحريك التي تعتمد على وجود وحش أو من يرمز للشر، ويحاربه البشر الذين يرمزون للخير.. وتتعدد الحبكة فيظن الطفل البشر جميعهم أخيار وأن الشر لا بد أن يكون فجًا مشوهًا غير أرضي.. يشبّ على أن يطمئن لكل جميل الصورة ويختفي منه الحذر شيئًا فشيئًا..

هناك أفلام عن فضائيين يحاربون فضائيين! حرب لا ناقة للطفل فيها ولا جمل، لكنها تعمل في عقله عمل المخدر فيصاب بلا مبالاة دائمة..

لكن أخطر تلك المواد هي المسلسلات التي يطلقون عليها "ست كوم" وتمثل

فيها أطفال ديزني المدللون.. مسلسل هانا مونتانا على سبيل المثال هو مسلسل اجتاح الأطفال والمراهقين في أوائل الألفينيات.. فتاة متواضعة مقبولة التصرفات تعلق بها المراهقين وصارت رمزًا لهم.. من خلال براءتها بدأت تزرع فيهم ثقافة المواعدة والملابس الساترة الكاشفة والحياة الأمريكية البراقة بكل ما فيها من مميزات وعيوب.. ما غرس في المراهقين آنذاك من خلال وسائل الترفية والتلفاز هو ما يعيش رمزي الصغير نتيجته الآن..

لم تكن هانا مونتانا وزميلاتها هو أول من أثّر على المراهقين، فقد كانت خطوة بدأت مع أفلام ديزني عن قصص الأميرات الشهيرة.. قصص للأطفال تم قولبة أفكار أجيال كاملة عن المرأة من خلالها.. الأميرة هي فتاة بيضاء رشيقة تعدّ المثل الأعلى للفتيات.. ثم بدأت تلك الشركة الأم في إدخال عناصر غير أوروبية أو أمريكية مثل شخصية الأميرة العربية ياسمين، وما تم تشويهه من خلالها من قيم عربية وتقليص لدور العرب؛ حيث اقتصرت من مفهومهم للحياة العربية على الأسواق والجواري والسحر، هذا غير الإشارة الخبيثة لكون البطل علاء الدين لصًّا!

وبالتوازي مع ذلك الفكر ظهرت الدمية باربي الشقراء الرشيقة التي أصابت فئة كبيرة من مراهقات العالم بالبوليميا بسبب محاولاتهم لفقدهم الوزن دون إشراف أخصائيين حتى يصبحوا مثل الدمية باربي، بالإضافة إلى شعور من هم ليسوا شقراوات أو نحيفات بالقهر والدونية إلى يومنا هذا.. مجرد دمية بريئة أصابت الأطفال بعنصرية لم يتوقعها أحد..

إلا أن الدمى صارت من أهم الطرق لخلق إنسان استهلاكي وتربية ذلك فيه من الصغر، فمع سيل الألعاب المتنوع والتدفق، أطلّ علينا جيل من الأطفال المتطلبين العابثين المحبين للامتلاك.. هؤلاء الأطفال أنفسهم قد يتحولون في المستقبل إلى مدمني شراء ناقمين على أعمالهم التي لا توفر لهم القدرة على

شراء واستهلاك المزيد..

لقد عرف الطفل رمزي الكثير من خلال تلك القنوات، ولم يجد من الكبار من يناقشه في تلك المعرفة أو من يتأكد منهم من صحة هذه المعلومات، وحين يبلغ العاشرة سوف يتأكد من تلك المعلومات بنفسه..

إمرأتان..

وصلت رنا إلى موقف الأوتوبيسات قبل الميعاد المحدد بنصف ساعة.. لم تكن تريد أن تصل بعد وصول إيناس حتى لا تُتيح الفرصة للأخيرة كي تتأملها وهي تسير عرجاء مهملة الملابس نحوها.. اختبأت رنا خلف سيارة أجرة وطفقت تراقب الأوتوبيسات الكبيرة الفاخرة القادمة من القاهرة..

في الثانية عصرًا وصل الأوتوبيس واصطف بجانب زملائه، وبدأ الركاب في النزول. ظلت رنا تراقب الركاب الخارجين منه وتزداد دقات قلبها.. تلحّ عليها بأن تفر.. ضمت قبضتها وانغرست أظافرها في راحتيها.. ظلت تمضغ شفتيها المشققتين ثم نظرت إلى انعكاس وجهها في زجاج نافذة السيارة.. لم تتعرف على نفسها في البداية، وظنت أن هناك من ترمقها من الجهة الأخرى.. أدركت أن حجابها غير محكم وقد أفلتت منه دبابيس التثبيت على الجانب فبدت كقرني استشعار صغيرين..

أخذت تعدّل وضعه على عجل وعيناها تتأرجحان بين الأوتوبيس والزجاج العاكس.. توقفت عيناها على إيناس وهي آتية من الجهة البعيدة.. تكاد ترى عينيها تجولان في المكان خلف نظارتها الشمسية.. يتأرجح شعرها خلفها بينما يتمايل جسدها يمنة ويسرة لا يبدو عليه أثر حمل أو إرضاع.. تحسست رنا بطنها الصغير المتهدل لا شعوريًا ثم أعادت عينيها في سرعة إلى الزجاج

العاكس لتجد بدلاً منه وجه رجل مبتسم سوّد التبغ أسنانه.. جزعت وصرخت صرخة مكتومة ابتعدت بعدها لاهثة عن الرجل الضاحك في سخرية.. لا بد أنه كان يرمقها من الجهة الأخرى طيلة الوقت وهي تعدّل وضع حجابها.. ابتعدت وهي ما زالت تنظر خلفها ولا تعلم من أين جاءها الظن أن الرجل سوف يتبعها ليُسمعها ما لا تطيق من السخرية.. أجدّت السير والتفتت لتجد نفسها وجهًا لوجه مع إيناس.. وجه رنا الممتقع أمام عنق إيناس تحديدًا.. ترفع رنا عينيها وتتسمر مكانها.. تبتعد إيناس عنها خطوتين للخلف مندهشة وتهمّ أن تتابع سيرها إلا أنها تقف فجأة وتخلع نظارتها في بطء.. يرتعش جانبا فمها في محاولة للابتسام..

لم تعرف إيناس رنا للوهلة الأولى.. وحين أدركت أن تلك الطفلة المجعدة الوجه هي رنا لم تصدق.. لم تدرِ ما تقول.. ودّت لو لم تكن قد ضربت لها موعدًا من الأساس..

أما رنا فقد خبأت فمها بيدها وتصلبت مكانها.. عيناها الواسعتان تنزلان ببطء عن وجه إيناس وتمسحان كل شبر في جسدها وصولاً إلى الحذاء العالي الرقبة الباهظ الثمن في قدميها..

اعتدلت رنا في وقفتها وحاولت أن تثبت عينيها على وجه إيناس ففشلت..
- ال.. كان الرجل هناك يضايقني.. أعني.. السائق ف... فمشيت مسرعة و لم... كنت أراك قادمة.. أهلاً.. !

ومدت يدها الصغيرة المرتجفة كورقة عالقة في إطار مروحة نحو إيناس.. مدّت إيناس يدها بسرعة وصافحتها ثم ضحكت ضحكة عصبية وأخذت تعبث في الدبلة الماسية في يدها اليسرى..

- أهلاً يا رنا.. آسفة، لم أعرفك فقد.. فقد اصطدمت بي فلم ألحظك.. هه..

شكلك لم يتغير.. كثيرًا..

ثم عضت إيناس خدها من الداخل ندمًا على ما قالته.. كلامها يعني فقط أن رنا تغيرت بالفعل كثيرًا.. لا بد أن تلاحظ كلماتها أكثر من ذلك..

- لا عليك.. كيف حال آسر؟ لمَ لَمْ يأتِ معك؟

- خشيت أن يعلم والده كما أخبرتك.. لكنني أعدك أن أحضره لك حينما نلحقه بالحضانة.. سوف...

- تلحقونه؟ ماذا تعنين بتلحقونه؟ وأي حضانة؟ ولأي سبب؟! لا.. لن يذهب ابني لأي مكان لم أره بنفسي.. إنه صغير على ذلك، وأنا قد علمته في المنزل ما يعلمونه في الحضانات.. لن يذهب ابني إلى أي مكان..

مدت إيناس يدها إلى كتف رنا لتهدئها إلا أن الأخيرة أفلتت منها وضمت حاجبيها وأخذت ترمق الأرض في عصبية..

- رنا.. اهدئي.. يمكنك أن تأتي لتري المدرسة بنفسك.. إن ابنتي لي لي تلتحق بها في فصول التمهيدي....

- ابنتك.. أنت حرة مع ابنتك.. أما ابني فلا..

- حسنًا.. سوف أحاول ألا يذهب هذا العام.. لكن.. لا بد أن يذهب إلى مدرسة العام القادم.. هل نستطيع أن ندبر أمر مدرسة ترضينها في القاهرة؟

- لن.. يظل.. ابني.. معك.. إلى.. العام.. القادم.. فهمت؟!!

ضغطت رنا على كل كلمة وكأنها تحفرها في عقل إيناس حفرًا.. كانت إيناس ترى في عيني رنا نظرة قوية متأكدة.. نظرة ذات كاريزما خاصة تشبه كاريزما المجانين.. تراجعت في ذعر وهي تمد كفيها المفتوحتين إلى أعلى أمامها في

إشارة لتهدئتها..

- حسنًا.. حسنًا.. أنا.. أنا لا أريده.. أعني.. أريده أن يكون معك من الآن.. يعلم الله ذلك، وإلا ما كنت قد جئت إليك.. اسمعي.. أعدك أن أساعدك في استعادته، لكنني أريد منك أن تجيبيني عن بعض الأسئلة.. فقط كي أستطيع التعامل معه.. مؤقتًا.. مؤقتًا..

- نعم؟!

-لا أريد أن أكون فضولية، لكن.. يوم أن أتاني زين بآسر.. هل كان معك؟ أعني.. هل تشاجر معك يومها؟

- لا أظنني أعطيته ابني كهدية! بالطبع تشاجر وأخذ ابني..

- هل أطلق عليك الرصاص؟! أرجوكي.. لا تسرعي وتنهريني.. أنا فقط أريد أن أعرف، هل زين قادر بالفعل على ذلك؟

- و.. ومن أخبرك؟

- آسر..

- آسر؟! هل بينكما الآن ما يسمح بأن يكشف لكِ عن أسرارنا؟!

مسحت إيناس على شعرها ثم أمسكت رأسها كمن أصابها دوار وتراجعت إلى الوراء لترتكن إلى سيارة هناك..

- رنا.. كل الأمر أنني سمعته يكلمك أثناء نومه، وحين سألته عن ذلك أخبرني أنك مصابة في قدمك، وأن زين هو من فعل ذلك.. أرى أنك لا تسيرين بشكل طبيعي.. فقط أجيبيني بنعم أو بلا..

- نعم.. أطلق الرصاص عليّ عن طريق الخطأ.. لم يكن يقصدني. ولا تسأليني من كان يقصد..

رمزي.. شخص يدعى رمزي.. هكذا فكرت إيناس لكنها لم تعلّق.. فقط هزت رأسها في تفهم.. إن رنا قادرة على الخيانة إذن.. يبدو أن الموضوع أكبر من كونه مجرد شك.. هناك علاقة كاملة أدت إلى أن يحاول زين قتل رجلها..

لكن.. هل يحب زين رنا فعلاً؟ إن لم يكن يحبها، فلِمَ لم يكتفِ بطلاقها إذن دون تعريض نفسه لخطر كهذا..؟!

شعرت إيناس بغصة في حلقها لكنها حاولت تجاهلها مؤقتًا..

- هل أتيت كل تلك المسافة كي تسأليني عن ذلك؟!

- لا.. الأهم من ذلك هو... آسر يقول إن له صديقًا.. إحم.. ميتًا.. يراه هو و.. وأنت وأبوه.. أعرف أنه يخرف.. لكنني أريد أن أعرف من أين جاءته الفكرة؟ وكيف تقترحين أن أتعامل معها..؟

فتحت رنا فمها لتجيب ثم أغلقته.. لم تكن تتوقع سؤالاً كهذا..

- إن.. إن لآسر صديقًا تخيليًا وهو شيء مألوف في هذا السن.. أما كونه ميتًا فهو لم يخبرني بذلك من قبل.. طبعًا أحاول أنا و.. وزين أن نخبره أننا نراه.. نلعب معه.. هذا كل شيء.. لا تعيري للأمر انتباهًا..

- إذن، ففكرة ذهابه إلى الحضانة ربما تساعده على إيجاد أصحاب حقيقيين..

- اسمعي.. آسر لن يذهب إلى أي مكان في القاهرة لأنه سيعود إلي.. قريبًا.. لا تجهدوا أنفسكم أو تنفقوا نقودكم..

- حسنًا.. إنه ابنك.. كما تشائين.. لكن.. رنا.. هل تعملين الآن؟

- أ.. أنا.. لا أعمل مؤقتًا.. أبحث عن عمل.. سوف أجد واحدًا قريبًا.. إلا أنني لا أحتاج إلى نقود العمل، لكن... أشعر فقط بالوحدة..
وأمسكت رنا كوعيها بكفيها وارتجفت.. اضطربت أمعاؤها حين تذكرت أن نقودها لن تكفيها يومًا آخر..

- هل تحلمين بآسر؟

- كل ليلة..

- هو أيضًا يحلم بك..

ثم نظرت إلى ساعتها ومدت يدها إلى رنا بكيس الهدايا الصغير..

- ميعاد العودة.. إن آسر يصنع أشياء جميلة بالمكعبات ويرسم كثيرًا جدًا.. بعض رسوماته غير مفهومة لكنها قد تبدو ذات معنى لك.. هذه بعض لوحاته، ومجسم صغير لا ينفكّ يصنعه بأحجام مختلفة بالمكعبات.. يمكنك الاحتفاظ بهم..

ثم تركتها إيناس دون كلمة أخرى وهرولت تجاه الأوتوبيس. نظرت رنا داخل الكيس ثم رأت أن تجلس على السور المنخفض لترى ما فيه..

اخرجت لفافة أوراق ملونة مضمومة إلى بعضها بشريط مطاطي.. سحبت الشريط إلى أسفل لتنفتح اللفافة ويسقط منها بضع أوراق مالية من فئة المائتي جنيه.. انحنت رنا بسرعة وجمعتها من الأرض وهمّت بالجري وراء إيناس..

- مدام إيناس.... إيناس..

و لم تتحرك رنا من مكانها.. كانت تعلم أن إيناس لن تسمعها.. جزء من رنا لم يرد إيناس أن تسمعها.. إن خمسة أوراق من فئة المائتي جنيه هي كل ما تحتاجه رنا وأكثر حتى تجد عملاً..

امسكت رنا بالنقود وجلست لنصف ساعة بلا حراك.. ثم رفعت عينيها إلى بائع شطائر الكبدة في نظرة خاوية..

******

- هل تشربين شيئًا؟

- نيسكافيه.. بلاك..

هزت مضيفة الأوتوبيس رأسها وابتسمت، ثم انتقلت إلى راكب آخر..

كانت إيناس تسند رأسها إلى زجاج النافذة الداخلي وتراقب الطريق يجري إلى الخلف..

شعرت براحة حين أوصلت النقود إلى رنا.. تعلم أنها لن تستطيع مواجهتها قريبًا لكنها كانت موقنة أن رنا بحاجة إلى النقود.. إن لم تكن رنا بحاجة إليها، فلِمَ لَمْ تتصل بها وتطلب منها العودة لأخذ نقودها؟

أخذت تسترجع رنا والتي فقدت على الأقل عشرين كيلوجرامًا وصارت ملابسها في اتساع الخيمة.. لكنها لم تنس أبدًا تلك النظرة المجنونة في عيني رنا.. ذكّرتها بالنمر الغاضب بشكل ما.. نظرة امرأة انتزعوا منها روحها ذاتها..

- تفضلي..

- شكرا..

أخذت إيناس تقلب الرغوة على وجه مشروبها دون تفكير في جدوى التقليب دون وجود سكر من الأساس..

لا تعلم لَمَ لا تصدق مسألة الطفل الميت صديق آسر.. هناك شيء ما في نبرة رنا يجعلها تشكّ.. لكن تشكّ في ماذا؟! إن ما قالته رنا هو التفسير الوحيد المنطقي..

كانت مؤخرة رأسها تنبض فمدّت يدها وفكت شعرها المعقوص فتقلص

وجهها من الألم الخفيف الناتج عن ذلك وأخذت تحك شعرها..

هل تترك آسر يذهب إلى الحضانة أم تفي بوعدها وتحاول تأجيل الأمر إلى.. لا تعلم إلى متى.. إن رنا بدت متأكدة من عودة ابنها إليها بحق.. لكن، هل ستستطيع رنا الإنفاق على ابنها وتوفير مصاريف دراسته؟ إن ذلك لا يعنيها على أية حال..

رشفت من النيسكافيه فوجدته جيدًا فصبّت السائل الدافئ في حلقها على دفعات متتالية تصاعد على إثرها الحمض في معدتها. شعرت على إثرها بذلك الدوار المميز فقررت أن تغمض عينيها حتى تصل، وعندها يمكنها مراجعة الأمر مع نفسها مرارًا وتحتها أرض ثابتة وبداخلها معدة مستقرة.

******

جلست رنا على الرصيف تلتهم العشرة شطائر التي ابتاعتها في نهم وهي مازالت تُطبق على ما تبقى من نقود في كفها..

كانت جائعة، فلم تكن تمضغ بل تبتلع الطعام ابتلاعًا، وتتنفس على دفعات متتالية قصيرة..

كورت الكيس الذي كان يحمل الشطار ودسّته في حقيبة يدها ثم نظرت إلى النقود في كفها كأنها تراها لأول مرة.. شعورًا حارقًا في مؤخرة أنفها تبعه سيل من الدموع وهي بعد لم تدرك أنها تبكي..

يمر بها الناس ولا ينظر إليها أحد.. وجوه جامدة لا تعبأ بشيء.. تتمنى لو ينظر إليها أحد فقط كي تشعر أنها حية وما زالت مرئية للآخرين..

تشعر بكف صغيرة على كتفها فتلتفت.. فتاة صغيرة تمسك بمنديل وتناوله

لها بينما تمسك يدها الأخرى كف أبيها الشاب الذي لا يبدو أنه يكترث لما تفعله أو حتى يشعر به..

تمسح عينيها بالمنديل ثم تشعر فجأة باللقيمات التي أكلتها تتدافع عبر مريئها. تضع المنديل على فمها وتجري إلى جانب الطريق وتفرغ معدتها هناك.. يرمقها بائع الشطائر بنظرة مشمئزة، ثم يبتعد بعربته كي لا تطوله تهمة التسمم الذي أصاب رنا..

تتحامل على نفسها وتلتقط الكيس الورقي الذي يحمل أعمال آسر الفنية وتلقي بنفسها في أقرب سيارة أجرة. تحتضن الكيس وتحاول أن تشم رائحة ابنها فيه، فلا يحدث إلا أن تحتشد إفرازات أنفها في مؤخرة حلقها فتبتلعها شاعرة برغبة في القيء مرة أخرى..

يرن الهاتف في حقيبتها فتخرجه لتجد اسم رمزي على الشاشة...

لن تصدقي!

رمزي الآن مراهق تتدلى خصلات شعره المكوي على أذنيه، المنزل خال إلا من بعض أصدقاء له يحتفلون على الطريقة الغربية. لقد بلغ رمزي وأدرك أن هناك ما يهم في نصف جسده السفلي. لا يوجد من يستقي منه المعلومات إلا هؤلاء الأصدقاء والتجربة بالطبع. أمه على موعد مع أحد الرجال ((الأصدقاء؟)) ويبدو أنها تجتاز تجارب خاصة بها.. أمه ليست منحرفة، معظم نساء زمنه بهذا الشكل.

الصوت العالي لأغنية عربية ذات لحن غربي ممسوخ وأصوات تلتهم الحروف التهامًا تهز أحشاءه وهو يسير بين كوم اللحم الذي يتكون من زميلات له في المدرسة قررن خوض تجاربهن الخاصة مبكرًا..

أصدقاء له يمارسون الجنس في الفصول الخالية، آخرون في السيارات.. هوس من نوع غريب قد سيطر على ذلك الجيل وصارت "المصاحبة" من الأشياء الهامة فعلاً..

يشعر رمزي أنه في عالم آخر، عالم لم يره في حياته السابقة – التي لا يذكرها – إلا في الأفلام الغربية.. انتقلت تلك الأفكار المنحرفة تدريجيًا إلى الأفلام المصرية منذ تسعينيات القرن السابق، ثم قفزت من الشاشة إلى الحياة ككرة سلة في يد لاعب محترف.

كفت السينما عن تقليد الواقع منذ زمن وصار الواقع هو من يحاكي السينما..
يحيون الآن حياة رسمت لهم مسبقًا ووضعت لهم فيها الأدوار الثانوية..
يتفقد رمزي أجساد الفتيات وليدات الأنوثة، كلهن يعرفن كيف يبرزن مفاتنهن والشكر للإنترنت..

ينظر نحو آخر الرواق وتنخفض الموسيقى في أذنيه تدريجيًا.. فتاة أكبر منه ببضع سنوات ترتدي الأحمر وتقف مرتكنة بكلتا يديها على عمودين رخاميين ومن تحتها الأرضية التي يختلط فيها اللونان الأسود والأبيض في مربعات تشبه الشطرنج..

يتقدم من الفتاة وقد همست له غريزته بما يجب عليه أن يفعل..

يكتشف على يديها ما لم يكتشفه أجداده عبر عشرات السنوات من الزواج، لا يعلم أنها هي فقط من يستطيع منحه كل هذا، وحين تنتهي من مهمتها، لن يعرف رمزي الراحة مع أي فتاة عادية. سيعرف العشرات لكنهن جميعًا لسن بمثالية الفتاة ذات الثوب الأحمر والخيوط الدخانية الهفهافة التي قيدته بها إليها.

المحركون العظام هم فقط من يمتلكون تلك النساء "الحلم".. يعرفون كيف يدمرون بها قناعة الرجال، ويشعلون بها بحثهم عن غير الموجود.

تشعر النساء أمام تلك الإناث المكتملات المصنوعات بما يشعر به القرد أمام البشري.. تشابه في معظم الجينات، إلا أنهن لا يملكن – ولن يملكن – ما يجعلهن في مساواة معهن. تيأس النساء من أن يجدن من يقنع بما يملكن فيلقين به إلى من يطلب، فقط ليشعرن أنهن مازلن إناثًا بشكل ما..

العلاقات المحرمة تفشى ولا يعلم أحد عن أسبابها الحقيقية شيئًا، يرونها نوعًا من التحرر والسيطرة على الجسد كما يتوهم مهووسو الوشوم امتلاك

أجسادهم بتلك الطريقة..

وحين يمل رمزي من الفتيات العاديات، يمسك هاتفه ويتصل بالرقم. أرقام ظهرت "للدردشة" على قنوات فضائية غير معلومة المصدر في أوائل هذا القرن، وعلى الجانب الآخر من الخط تجد أكبر تشكيلة من الغانيات المصنوعات بالضبط كي يناسبن خيال الشباب. انتشرت تلك القنوات، وصار الإعلان عنها في بعض المجلات شيئًا مشروعًا، يتصل رمزي ولا يسمع أي صوت من السماعة.. فقط صمت وأصوات ضحكات خليعة بعيدة جدًا، ثم ترد عليه فتاة ذات صوت شبق مبحوح قليلاً.. تماما كما يحب.. ترتدي فستانا عاريا احمر اللون الا انها لا تمتلك وجها على الإطلاق.. فقط فم مشقوق عرضيًا تنبعث منه الخيوط الدخانية الشفافة لتعبر المسافات وتقيده ضمن آلاف القيود التي لا يراها أحد..

******

ضغطت رنا على زر الاستقبال وقلبها محشور في عنقها مسببًا لها عسرًا في التنفس..

– ألو... رمزي؟

لم يأتها صوت رمزي، بل صوت سيدة وقور لم تسمعه من قبل..

– الأستاذة رنا؟ اسمك يظهر على الشاشة.. لقد وجدت هذا الهاتف أمام مكان عملي ولم يتصل به أحد إلا أنت.. هل تعرفين صاحب الهاتف كي تعيديه له؟

– أعرفه.. لكن.. حسنًا.. يمكنني أن آخذ الهاتف وأبحث عنه كي أعطيه له..

- تبحثي عنه؟!

- أعني أنني لا أعرف عنوانه تحديدًا، لكن يمكنني الوصول إليه..

- جميل.. أين يمكنني أن أقابلك ومتى؟

لم تستشعر رنا الراحة الواضحة في صوت السيدة عندما أخبرتها أنها لا تعرف مكان رمزي، إلا أن السيدة أخبرتها بمكان عملها وهي مدرسة قريبة جدًا من منزل رنا، فاتفقت المرأتان على أن تتقابلا بعد نصف ساعة.

نزلت رنا في أقرب مكان للعنوان الذي أعطته إياها السيدة ثم سألت عن عنوان المدرسة فدلّها عليه أحد المارة، وبالرغم من قرب المدرسة من منزل رنا إلا أنها لم تسمع قط عن وجود مدرسة هناك.

أمام بوابة المدرسة الحديدية التي يعلوها نقش منمق لحصان ومثلث وحروف غير واضحة، وقفت سيدة شديدة الأناقة رمادية الشعر مشدودة البشرة بشكل صناعي مبالغ فيه، وفي يدها كانت تحمل هاتف رمزي بشكل واضح.. للمرة الثانية اليوم تشعر رنا بالتضاؤل أمام تلك الأناقة والهيبة فجعلت تعدل حجابها وتغلق زر السترة التي ترتديها ثم تفتحها مرة أخرى في محاولات فاشلة لفعل شيء ما حيال "البهدلة" التي تشعر بها..

تقدمت رنا من السيدة ونظرت إليها فعرفت السيدة على الفور أنها هي رنا، فمدّت يدًا مزدانة بطلاء أظافر على الطريقة الفرنسية وسلمت على رنا بيد قوية..

- أهلاً آنسة رنا..

شعرت رنا بسعادة خفيفة في روحها، هناك من لا يزال يظنها آنسة هنا..

- مدام.. أهلاً بك..

- مدام؟ تبدين صغيرة! هل لك أولاد إذن؟

وتبدلت السعادة الخفيفة إلى شوكة في حلق رنا وذلك الشعور الحزين القلق يسري في عمودها الفقري..

- نعم.. آسر..

- جميل.. هل يذهب للمدرسة أم لا يزال صغيرًا؟

- صغير.. بعض الشيء.. أخاف عليه من المدارس في تلك السن الصغيرة.. ابتسمت السيدة في تفهم وهي تناول رنا الهاتف.

- تفضلي الهاتف.. لكن أتعلمين؟ لديك حق.. المدارس لم تعد بالأمن والانضباط الذي كان.. قلة هي المدارس التي تثقين فيها وتأتمنينها على أولادك..

هزت رنا رأسها وأخذت تحدق في هاتف رمزي...

- لن تصدقي.. أنا مديرة المدرسة التي تقفين أمامها الآن.. وأصر على أن نكمل كلامنا في مكتبي..

رفعت رنا حاجبيها وقبل أن تنطق بشيء وضعت السيدة كفها على كتف رنا برشاقة واقتادتها إلى مدخل المدرسة المنمق النظيف..

******

لم تكن الساعة قد تجاوزت الثالثة والنصف حين اجتازت رنا الممر الفاخر المؤدي إلى مكتب السيدة خوشيار مديرة المدرسة..

كانت رنا تسمع ضوضاء أطفال منتظمة تأتيها خافتة عبر جدران الممر المكسو

بورق الحائط الأنيق واللوحات التي تبدو كأنها أصلية. لكن من ذا الذي يضع لوحات أصلية في ممر بمدرسة؟

كان الصوت مستمرًا، لا يقترب أو يبتعد، وكأنه يصدر من الجدار ذاته. طرأ على ذهن رنا أن الأصوات تبدو وكأنها تتكرر بشكل ما.. سمعت ذات الضحكة أو الصيحة مرتين على الأقل في طريقها إلى المكتب وكأنها أصوات مسجلة يعاد تشغيلها إلى الأبد..

كان المكتب صغيرًا يحمل طابعًا أجنبيًا قديمًا تتزاحم فيه كتل من الأثاث الخشبي الفاخر مع منمنمات أنيقة ذهبية ومفارش من الدانتيلا كأنها انتقلت إلى عصر من العصور الوسطى فجأة، لكن ما كسر ذلك الشعور هو جهاز الكومبيوتر شديد التطور الذي يعتلي المكتب الضخم، وكذلك التكييف الأنيق..

جلست السيدة خوشيار إلى مكتبها وأشارت إلى رنا كي تجلس.. ضغطت السيدة خوشيار زرًا على المكتب فانطلق أزيز قصير سرعان ما انفتح الباب على إثره وأطل منه ساعٍ أبيض الشعر خمسينيّ..

– اسمحي لي أن أطلب لك مشروبي الخاص.. السحلب التركي! لن تصدقي..

لا أشرب سواه طوال اليوم، ولم أجد أروع منه بديلاً.. إنه ليس كأي سحلب شربتيه في حياتك..

أدرك الساعي الطلب فخرج يحضره دون تعليق، ولم يفُته أن يرمق رنا بنظرة طويلة لا تعبير فيها..

– ترين يا مدام رنا أن المدرسة على مستوى عالٍ جدًا، ويشرفنا بالطبع استقبال ابنك في أي وقت.. للمدرسة عدة فروع داخلَ مصر وخارجها أيضًا، ويمكنني أن أجد لك فرعًا قريبًا من منزلك.. أين تسكنين؟

- في الحقيقة هذا هو أقرب فرع بالفعل.. بيتي على بعد ثلاث شوارع من هنا..

رفعت السيدة خوشيار حاجبيها في دهشة مصطنعة وخطر لرنا أن السيدة تعلم أين تسكن تحديدًا لكن رنا وجدته خاطرًا سخيفًا؛ فمن أين للسيدة أن تعرفها؟ ولِمَ تتظاهر بالعكس؟

ومن الأفكار التي دفعت الخاطر السابق جانبًا هو إحساس بأن السيدة تورط رنا في أن تلحق ابنها بالمدرسة، وهي مدرسة كما تبدو باهظة المصاريف، وبالتأكيد يبدو على رنا ضيق ذات اليد.. لم تعلم لِمَ اعتبرتها السيدة الأنيقة صيدًا..!!

- قولي لي يا مدام رنا.. هل تعملين؟

- في الواقع لا أعمل حاليًا.. لكنني في مرحلة البحث عن عمل؛ فأنا مطلقة وأحتاج لأن أعمل بالطبع..

أضافت رنا جملتها الأخيرة كي تغلق على السيدة باب الحديث في إلحاق آسر بالمدرسة، في الواقع هي قد سدّت الطريق على نفسها وعلى أحلامها بأن تلحق الطفل بمدرسة بهذا الرقي فضلًا عن كونها قريبة من منزلها.. لن تسمح لنفسها بالمزيد من الأحلام البعيدة.. لن تسمح لفكرة ترك آسر لأبيه كي يحيا حياة أفضل تتسلل إلى عقلها..

- لن تصدقي.. يبدو أنك سوف تتوقفين عن البحث الآن! نحن نبحث عن مدرسات بلا خبرة كي يتدربن هنا للتدريس في مرحلة الحضانة.. ما هي مؤهلاتك؟ هل تجيدين الإنجليزية؟

لن تكف المرأة عن ترديد عبارة "لن تصدقي" تلك، إلا أن رنا بالفعل لم تصدق

ما سمعته أذناها، بدا لها العرض كأنها قد تم تفصيله عليها هي تحديدًا.. لم تتوقع أن يحالفها الحظ بعد أن تخلى عنها جميع الحلفاء..

- بالطبع أجيد الإنجليزية، أنا خريجة كلية الآداب قسم اللغة الإنجليزية، كما أنني أعشق الأطفال بشدة..

- جميل!

جاء السحلب في قدح فخاري أسود يحمل نقوشًا ذهبية وكلمات باللغة اللاتينية.. تعرف رنا القليل منها بحكم دراستها، إلا أن الكثير قد تبخر من القليل التي كانت تعرفه فصار ما تراه على الكوب طلاسم لا تفهم منه إلا الضمائر وحروف الجر..

"أنت...... منّا........، وصرت.......... .... المهندس......"
ذلك ما فهمته من المكتوب، ولم تجد بين الكلمات رابطًا ما فضلاً عن أن الجمل لا تبدو من الجمل التي تكتب على الأقداح الخزفية..

رشفت رشفة من المشروب الساخن فلم تستطع إلا أن تصب الباقي صبًا في معدتها، بالفعل لم يكن كأي سحلب سمعت عنه من قبل.. أخذت تمضغ ما تبقى في فمها من أشياء بدت لها طعمها مثل الفستق..

دارت بعينيها في المكتب وتوقفت مرة أخرى عند شعار المدرسة الذي لم تفهم الأم يرمز حتى الآن، من تحته أخذت تحاول قراءة تلك الكلمات..

"من.......... إلى شمس........................"

من الواضح أنها شعار متفائل ما يحثّ على فضل العلم الذي هو كفضل الشمس على سائر المخلوقات أو ما شابه... وعلى المكتب وجدت اللافتة الصغيرة باللغة الإنجليزية تحمل اسم السيدة الماثلة أمامها..

- مدام كوشيار..

رفعت السيدة عينيها عن شاشة الكومبيوتر الذي كانت تكتب عليه شيئًا ما وابتسمت مصححة..

- خوشيار.. لديّ أصول تركية..

- آه.. آسفة.. مدام خوشيار.. لِمَ تستخدمون اللاتينية في كتابات كثيرة هنا؟ وأشارت بعينيها إلى القدح. قطّبت السيدة خوشيار وتصلّبت أناملها على لوحة المفاتيح..

- هل تعرفين اللاتينية؟

- درستها لكنني نسيتها حتى إنني لا أفهم ما هو مكتوب هنا، لكنني مازلت أميزها..

بدا على وجه السيدة خوشيار بعض من الراحة، وتراجعت بكرسيها لتفتح درجًا جانبيًا..

- حسنا يا مدام رنا.. the sooner the better.. كما يقولون.. يمكنك البدء في التدريب غدًا إن أردتِ، لكن اسمحي لي..

وقامت السيدة خوشيار حاملة نصلاً فضيًا مزدوج الطرفين ولفافة من خيوط الكتان..

- في مدرستنا نأخذ عينة من دم من يعملون معنا للتأكد من خلوّهم من الأمراض المعدية، نفعل الشيء نفسه مع أولياء الأمور والطلبة..

وتقف السيدة خوشيار توجه عينيها اللتين يتراوح لون قزحيتيهما بين الأزرق والرمادي الشفاف إلى عيني رنا البنيتين..

- إجراء مهم، وبسيط.. حتى إنني أقوم به بنفسي..

ومدّت يدها فقط لتدرك رنا أنها لا تستطيع التحكم في أطرافها، فقد طارت يدها لتهبط في كف السيدة دون تفكير..

بعد أن أخذت السيدة عينتها شعرت رنا بأن هناك فجوة ما في ذاكرتها.. كل ما تذكره هو أن السيدة خوشيار لها أصول تركية..

- لن تصدقي المفاجأة التي تنتظرك.. تعالي..

واصطحبت السيدة رنا في ممر آخر قصير، وفتحت بابًا في آخره يطل على حديقة خلفية صغيرة جدًا..

خطت رنا إلى داخل الحديقة، وما إن دارت بعينيها ناحية اليمين حتى انتابها شعور

بالسعادة والدهشة وفقدان الإحساس بالمكان والاتجاهات..

بحسبة صغيرة، هي قد دخلت المدرسة ومشت حوالي عشرة أمتار إلى مدخل مبناها الرئيس، ومشت حوالى ستة أمتار حتى وصلت إلى المكتب ومن المكتب إلى الباب الذي يؤدي إلى الحديقة حوالي ثلاثة أمتار ونصف.. كيف إذن اجتازت ثلاثة شوارع كبيرة في حوالي عشرين مترًا لتجد أمامها منزلها يبادلها في قدم وبؤس النظرات عبر السياج الحديدي للحديقة المهملة التي تتناثر فيها الدفاتر المكرمشة القديمة كرؤوس الكرنب؟!

قيود جديدة..

وقف آسر ثانيًا ركبتيه فوق الأريكة الصغيرة أسفل نافذة حجرة نومه وأمسك الستائر الشفافة البيضاء بيديه، وأخذ ينظر إلى الشارع الكبير شبه الخالي في هذا الوقت..

كان يتذكر الشارع الضيق بالإسكندرية، وأصوات الرجال على المقهى القريب، وزينة رمضان الأبدية الممتدة كأواصر المحبة بين البيوت القديمة.. تذكر سريره والأشرعة البيضاء التي استحالت لونًا أبيض مصفرًا بفعل الغسيل، والصندوق الورقي المقوى الصغير الذي يحتفظ فيه بكراته الملونة ومكعباته..

كان يكره تلك المباني الحديثة الشاهقة من حوله، يكره المدن الجديدة ذات المنازل الصغيرة المشابهة لمنازل الأفلام الأمريكية التي أجبرت سكانها - بشكل ما - على التصرف كأجانب..

عمه أنس كان يسكن في إحدى تلك المدن، منزله واسع قليل الأثاث من طراز رآه كثيرًا في أفلام أجنبية حتى إنه إذا ازداد عدد الأفراد الموجودين به عن ستة، وجدوا مشكلة في إيجاد قطع أثاث قابلة للجلوس..

ابنة عمه هلا لديها صديق حميم، تظهر الازدواجية في تفكير عمه أنس حين

يرى الفتى مع ابنته ويضطر إلى أن يئد النخوة في عروقه كي يتركها تعيش التجربة..

لم يكن آسر يفهم كل هذا، لكن فطرته كانت تشعر بشيء غريب يتسلل إلى مجتمعه الصغير، يشعر باغتراب وكأنه يشاهد من حوله فيلمًا اجنبي من الذي يشاهده مع نهى المربية، ولا يحبه كثيرا..

كان آسر طفلاً وحيدًا مغتربًا في سن مبكرة، يكره أن ينظر من النافذة في أي وقت يتواجد فيه مارة في الشارع، فقد كان يرى تلك الخيوط التي تربطهم إلى اللاشيء وتلك النظرة الواجمة على الأوجه.. كان يذكر أن عدد "المربوطين" لم يكن بهذه الكثرة العام الماضي.. لم يكن حتى بهذه الكثرة الشهر الماضي.. إنهم يتكاثرون بمتوالية هندسية، إلا أن آسر لم يجد الوصف المناسب له في حصيلته اللغوية الصغيرة..

الليلة كان يشعر بشعور مختلف تمامًا.. خطر محدق لكنه لا يعلم مصدره.. بعد ظهر اليوم شعر بشيء صغير رقيق ينتزع من روحه، شعر بحزن عميق فأغمض عينيه وفكر في أمه.. يشعر بالمسافة البيضاء التي كان يراها في عقله تمتد بينه وبينها تتسع وتفقد نقاءها.. عندما حاول الاتصال عقليًا بأمه شعر بسد هناك وبثقل يرهق روحه، كان حوائط الحجرة تنطبق عليه، و لم يشعر بوجود رنا.. خرج من حجرته وسار أمام إيناس.. تباطأ أمامها لعلها تسأله عما يريد، لكنها لم تفعل.. كانت شاردة في عالمها الخاص وهي تدخن.. لم يكن يعرف ذلك عنها..

عاد ووقف في نافذته وظل يرمق الطريق.. شعر ببرودة تأتي من خلفه فنظر إلى الوراء ليجد الطفل الغامض يصعد إلى الأريكة ويحاكي جلسته، ينظر بعينين بيضاوين إلى الشارع ثم يمد يده ويمسك بكف آسر..

يشعر آسر بما يريد الطفل قوله.. لقد اقترب الوقت ولسوف يعود لأمه قريبًا، لكن تلك اللمسة لم تطمئنه على أمه.. لم يعرف ما الذي يحدث..

ظل الطفلان يرمقان الشارع حتى غشى آسر النعاس فنام على الأريكة مكانه، بينما نزل الطفل الغامض إلى الأرض ومشى عابرًا الباب المغلق مختفيًا.. مؤقتًا..

******

خرجت رنا من الحمام المليء بالبخار وقد شعرت أنها ولدت من جديد، شعورًا بالطمأنينة غمرها وقد نالت وظيفة لا تحلم بها بمرتب خيالي يتيح لها أن تؤمن حياة وتعليمًا ممتازًا لابنها، فضلاً عن كونه سيظل بجانبها في المدرسة نفسها.

تناولت عشاء مرتجلاً بسيطًا فقد شبعت من السعادة. جلست على السرير ومازال شعرها ملفوفًا بالمنشفة تفوح منه رائحة الشامبو الذي اشترت عبوة منه في طريق عودتها القصير على سبيل الترف والاحتفال..

جلست على السرير وأراحت رأسها على الوسادة وأغمضت عينيها. شعرت بحرارة في مقلتيها وكأنها بوادر التهاب في عينيها، وسرعان ما انتشر هذا الشعور وغلّف رأسها بالكامل فاعتدلت جالسة وأمسكت برأسها، بالفعل كانت درجة حرارتها عالية بشكل واضح، ولكن.. أي حمى تظهر في غضون دقائق هكذا؟

أزالت المنشفة المحيطة بشعرها وجعلت تهرش فروة رأسها، إحساس بالتنميل مع ارتفاع درجة حرارتها بدأ يغزو ما تحت جلدة رأسها.

قامت إلى الحمام الدافئ، وفتحت صنبور المياه الباردة وغسلت وجهها، ثم أحست بالشعور ذاته حول مرفقيها فطفقت تغسلهما، ثم نظرت إلى المرآة المغطاة بالبخار فوق الحوض والذي بدا البخار على سطحها يستحيل ماءً يسيل في خطوط إلى أسفل. بدت لها خيوط بخار الماء المتجمعة على السطح كأنها خيوطٌ شفافة تخرج من رأسها، فقطبت ومسحت المرآة بيدها المبتلة في سرعة وكأنها تطرد خاطرًا سيئًا..

لم يكن انعكاسها في المرآة إلا انعكاسًا لوجهها المذعور، ولا أثر لشيء غير معتاد هناك..

جففت وجهها وشرعت في الخروج من الحمام ووجهها ما زال مدفونًا في المنشفة إلا أنها شعرت بملمس بارد على ساقيها يمتد إلى أعلى فخذيها مع إحساس بشيء خشن حولهما كأنها رمال مبتلة. رفعت المنشفة عن وجهها لتجد الطفل الغامض يقف ملتصقًا بها بل إنها غائصة فيه بشكل ما.
تراجعت في ذعر فهي لم تتوقع رؤيته أو وجوده هنا. لقد تصورت أن وجوده يرتبط فقط بوجود آسر، ولربما ما حدث أخيرًا أثناء وجوده آخر مرة كان كافيًا كي يختفي للأبد..

تراجع الطفل للخلف في هدوء وجلس في ركن الحجرة مبتسمًا وكأنه يتوقع منها استعراضًا ما..

– ماذا تريد؟

لم يرد الطفل لكنه ظل يرمقها جالسًا وذراعاه ملتفتان حول ركبتيه في استمتاع..

تسللت رنا إلى الفراش وعيناها لا تزالان معلّقتين به. جلست هناك وظلت

تبادله النظرات لعشر دقائق، بعدها بدأت تشعر بارتفاع درجة حرارتها مرة أخرى مع شعور حارق حول معصميها وقدميها..

شعور مصاحب آخر هو ما أثار ذعرها أكثر من أي شيء، شعور برغبة قوية في قتل آسر أو الخلاص منه بأي شكل.. أخذت تحك جسدها كمدمني الهيروين وتسدد نظرات حائرة مجنونة إلى الطفل الغامض هناك.

مازال الطفل الغامض جالسًا مكانه ينظر إليها في حكمة من يعرف ما يحدث جيدًا.. ولم تشعر رنا بنفسها إلا وهي ترحف على يديها وركبتيها نحو الطفل الذي بدا وكأنه يتوهج بلون فضي. مدت يديها إليه قاصدة عنقه إلا أنه رفع كفه في هدوء ووضعه على جبهتها فتجمدت في مكانها.. وفي ذهنها توالت صور لم ترها من قبل..

******

عندما كانت المدرسة تغلق أبوابها ويرحل آخر طالب ومدرس فيها، كانت السيدة خوشيار تتأكد من إطفاء الأنوار وإغلاق الأبواب بنفسها قبل أن تتوجه إلى غرفة في الطابق الأخير من المبني..

تقترب من الحائط في هدوء فيتبدى باب خشبي عملاق مزخرف، على كل ضلفة من ضلفتيه نصف شكل هرمي منقوش ونصف حصان مجنح مقيد..

ينفتح الباب عن قاعة عملاقة ذات أرضية باللونين الأبيض والأسود مع عامودين رخاميين في صدر القاعة الخالية، بينهما صندوق خشبي ضخم يحيط حافة التقاء الصندوق بغطائه حروف لاتينية نحاسية مزخرفة بشدة.

تقف السيدة خوشيار أمام الصندوق وتخرج الخيوط الكتانية الممتزجة

بقطرات دماء رنا. تضع الخيوط أرضًا فتتلوى الخيوط وتنفرد إلى أعلى كأنها حيات دخانية فضية تتراقص في الهواء.

تجثو على ركبة واحدة وتقرع الأرضية بضربات منغمة مع ترانيم تطلقها من حنجرتها كأنها أصوات عدة أشخاص مجتمعين..

من الأرضية تتجسد دمية خشبية صغيرة نائمة على ظهرها.. تتسلل الخيوط الدخانية إلى أطرافها ورأسها كأنها ديدان رفيعة شريرة...

تهتز الدمية كأنما هي في نوبة صرعية، ويتصاعد منها دخان خفيف كأنها تحترق.. تندمج الخيوط في الأدخنة وتتصاعد إلى الشكل الهرمي الدخاني المتجلي فوق رأس السيدة خوشيار.. يتحد به الجسد الخشبي الصغير ويضيء..

تتحرك رأسه إلى اليسار ويفتح عينيه البنيتين، ويبتسم..

******

"أنت الآن واحد منا، وصرت مشيئة معلقة بيد المهندس الأعظم"

الآن فقط تذكرت رنا معنى ما كان مكتوبًا على القدح الفخاري.. تذكرت اللاتينية التي اندثرت في عقلها كما اندثرت آلاف المعلومات عبر سنوات عمرها بفعل فاعل..

تتذكر رنا الفصول التلقينية التي كانوا يسمونها "تعليم" والتي تعمدوا ملء ذهنها عبر ستة عشر عامًا بهراء بدعوى "التعليم" المزعوم.. لا تسأل.. لا تفكر.. فقط احفظ واحتفظ بكم خرافي من المعلومات السطحية لتسكبها على أوراق الامتحان ويمكنك بعدها نسيانها إلى الأبد..

لن تتذكر رنا أبدًا عدد سكان سيبريا في السبعينات لأن ذلك لم يعنها في شيء طيلة حياتها، ولن تتذكر تفاعل ورقة عباد الشمس مع الأحماض والقلويات لأنها لم تر ذلك التفاعل أبدًا ولا تعلم ما هي ورقة عباد الشمس، كل ما اهتم به المدرسون وقتها هي أن تحفظ وتحفظ حتى يمكنها التباهي بشهادتها المعلقة في الصالون أمام العريس القادم..

تم إلغاء الصف السادس الابتدائي ثم أعادوه.. قسموا الثانوية العامة إلى عامين ثم أعادوها.. تحولت الدراسة إلى ألم مزمن في أسنان أولياء الأمور والطلبة وتدريجيًا تحول الطلبة إلى الدراسة في المنازل عن طريق مدرسين خاصين بعد إلغاء الدراسة بقرار غير رسمي عدة سنوات متوالية لأسباب عدة؛ ابتداء بوباء أنفلونزا الطيور تلتها أنفلونزا الخنازير، مرورًا بثورة يناير، وصولاً إلى حالة عدم الاستقرار الأمني المزمنة..

تذكرت رنا قطيع التلاميذ يغنون النشيد الوطني المصري بلا انتماء حقيقي، بلا فهم لكلمات النشيد التي لم يتكرم أحدهم على الأطفال بشرحها.. ارتبط النشيد الوطني بطابور الصباح وصياح المدرسين، وانتظار ثماني حصص متوالية من العذاب المتواصل دون أي ترفيه.. من الصعب أن يشعر المصري بفخر أو تأثر عند سماع النشيد الوطني بعد كل تلك السنوات من الارتباط الشرطي بين سماع النشيد وعذاب الدراسة.

سقطت رنا أرضًا بعد لمسة الطفل الغامض وفي ذهنها ظهرت فجأة أفكار مختلطة عن مرحلة طفولتها ودراستها، كما طفت على السطح لغتها اللاتينية المفقودة..

Qui nunc nobis suspensa autem artifex maximus erit

"أنت الآن واحد منا، وصرت مشيئة معلقة بيد المهندس الأعظم"

"من يطل النظر إلى شمس المعرفة تحترق روحه"

أي كلام هذا؟ وكيف يكون شعار المدرسة دعوة للجهل؟ وأي مهندس أعظم؟

امسكت رنا بوجهها وكأنه سيسقط إن لم تفعل، وترنحت الخطوات الثلاث التي تفصلها عن سريرها. جلست هناك وهي تنظر من بين أصابع كفيها إلى الطفل الجالس في ركن الحجرة..

لقد زالت عنها الحرارة فجأة وصار ذهنها صافيًا.. تحاول أن تتذكر ماذا يعني "المهندس الأعظم".. لقد قرأت هذا الاسم في مكان ما..

أسندت رأسها على ظهر السرير مرة أخرى وشرعت تحاول التذكر..
المهندس الأعظم.. الشكل الهرمي.... الماسونية....

تبًا للنظام التعليمي الذي ملأ عقلها عن آخره بالهراء، وما تبقى من فراغ في عقلها لم يعد يسع الثقافة الخاصة والمهارات التحليلية التي لم يتمرن عليها معظم المصريين على مر العديد من الأجيال..

لقد قرأت شيئًا عن الماسونية حتى فاض به عقلها وانسكب منه.. لكن ما علاقة الماسونية بكل هذا؟!

شعرت بالنعاس يتسلل إلى أجفانها ومن بعيد سمعت صوت آسر ينادي...

هُم...

لقد أخبروا السيدة خوشيار بوجود آسر.. دائمًا ما يخبرونها بوجود الأطفال غير الاعتياديين في أي مكان، وعليها الحصول عليهم وتقييدهم بأي ثمن.. لم يكن آسر الأول أو لن يكون الأخير حتى تكتمل مجموعة الدمى البشرية التي يطمحون إليها..

هناك دمى تخدم أغراضًا سياسية وأخرى تخدم أغراضًا استهلاكية أو ثقافية.. هناك دمى لكل ناحية من نواحي الحياة التي يقبضون على زمامها وأوشكوا على امتلاك كل شيء فيها.

لا يعرف أحد أصل نشأتهم، يبحث الباحثون عن أصل جماعة "البنائين الأحرار" ولا يجدون إلا معلومات حديثة جدًا غير عالمين أن لتلك الجمعية آلاف الأسماء المتغيرة عبر الأزمنة، تتغير كلما انكشف أمرها وتوصل الناس إلى كنه أهدافها..

لقد كان الحل الوحيد هو طمس العقول حتى تظل الأسرار أسرارًا، والأهداف قيد التنفيذ..

في أوراق "المحفل الأكبر الوطني للبنائين الأحرار القدماء المقبولين في مصر وفي الأقطار العربية"، إن النشرة الماسونية رقم واحد كانت في سنة ٥٩٥٦

وهي في تقديرهم سنة "النور" وتقع قبل ٤٠ قرنًا من ولادة المسيح عليه السلام.

أما أول جلساتهم السرية في عصر هيرودوس والي القدس للدولة الرومانية، فقد كانت في مكان بالقدس يدعى "الهيكل" في ١٥-٨-٤٣م تحت اسم "كوكب الشرق الأعظم". وكان هدفها مقاومة المسيحية؛ لأنها تبشر بزوال هيكل سليمان، وكان من أبرز ضحايا تلك الفكرة القديس بطرس الذي قُتل على يد نيرون.

أما أول محفل ماسوني علني فكان عام ١٧١٧، ولا يزال على قيد الحياة حتى اليوم منظمة تكشف عن اسمها ونواياها الزائفة تحت أسماء عدة تتغير مع الزمن. فقد أغلق هتلر جميع محافل الشرق الأكبر في ألمانيا لعلمه بعلاقتها باليهودية، إلا أن الماسونية عادت من جديد تحت اسم "نوادي الفرسان الألمان" رغم أنف الجميع..

ومازالت تتلون وتتشكل وتتخفى تحت ستائر الثقافة والأعمال الخيرية باستعارة أسماء براقة مثل: الروتاري التي أنشأها بول هاريس عام ١٩٠٥ ورئاستها في مدينة ليفرستون الأمريكية، ومنها تتشعب الفروع حول العالم. والليونز الذي تأسس في نيويورك عام ١٩٥١ ونُقل إلى واشنطن، ويضم ملوكًا ورؤساء دول من كل العالم. ومنظمة بناي بيرث التي أسست عام ١٨٣٤ وكل أعضائها تقريبًا من النساء اليهوديات. ويقول الماسوني العربي عزيز ميرهم "الماسونية ليست جمعية خيرية، وإنما يقوم البناؤون الأحرار بأعمال خيرية متسعة النطاق مختلفة الأغراض؛ وذلك للتغطية على الأهداف التي تسعى الصهيونية العالمية إلى تحقيقها".

أما مجموعة المدارس التي ترأسها خوشيار فلها الخواص نفسها؛ فهي متغيرة

الأسماء، براقة المظهر، تطمح إلى السيطرة على بداية البشر قبل أن يكبروا ويصبحوا خطرًا على وجود المنظمة ذاتها.

آسر من الأطفال التي تطمح المنظمة إلى ضمهم إليها وتحويلهم إلى سلاح مشهر في وجه البشرية، وإن لم يخضع، سيكون تدميره بدم بارد هو الحل الأسهل والأمثل. لن يتركوا من يضيء الطريق ويوقظ العقول خلفهم ليدمر ما بنوه عبر القرون..

تلقت السيدة خوشيار الأوامر بضم آسر وأمه إليهم، لا يريدون الأم في شيء إلا أن تكون غير ذات تأثير على ابنها؛ حتى تكون لهم كل الهيمنة عليه..
اليوم صارت رنا دمية وفي الغد القريب، سيحصلون على آسر..

قَسَم..

يقف رمزي في ذل وانكسارعلى باب الحجرة المظلمة طالبًا الدخول.. يأتيه الصوت من الداخل..

- بعد قليل يفتح الباب..

يفتح الباب ويدخل رمزي الحجرة المظلمة.. حجرة التأمل.. يأخذ مرشد بيده.. يده باردة قوية لا يرى منه إلا ظلالاً غامضة..

من حوله عظام بشرية متكدسة وتماثيل نحاسية أكثرها لحيّات، وبفعل الظلام يكاد يراها تتحرك..

يجرد المرشد رمزي من أي معادن.. ساعته.. نظارته.. يعود كيوم ولدته أمه، لكنه اليوم يولد هنا.. من رحمهم..

يكشف المرشد عن ذراعه اليمنى وناحية صدره اليسرى وساقه اليمنى.. يأتيه صوت نحاسي فخيم من مكان من أعلى..

- هل ما زلت مصرًّا على طلب النور الماسوني؟

- نعم.. مصرّ..

يقولها رغمًا عنه.. إن هو إلا يرغب في الفرار، لكن إرادته سلبت من لحظة أن احترقت روحه بتجارب الحياة كدمية..

يضع المرشد قطعة قماشية سوداء على عينيه، وفي عنقه حبلا، ويخرجه من الغرفة إلى باب الهيكل المغلق..

يطرق المرشد الباب فيسأل من بالداخل عن الطارق..
- طالب فقير في حالة الظلام.. وهو آت ليكتسب النور من هذا المحفل الموقر..

يدخل رمزي فلا يرى شيئًا ويشعر برجلين يقودانه عبر دهاليز معقدة حتى يصل إلى العرش القائم بين عمودين..

يسأله الرئيس المتربع على العرش..

- أنت مقبل على امتحان شديد.. ستقسم بشرفك وذمتك، وتوقع بمداد من دمك.. فهل ما زلت مصرًا.. لك حق الانسحاب قبل القسم..

يومئ رمزي برأسه إيجابًا فيأتونه بكأس، يشرب ما فيها فإذا هو ماء. ويأتونه بكأس أخرى لا يكاد يتذوقها حتى يبصق ما فيها من سائل مرٌ كريه..

- حياة الإنسان معرضة للمرارة أيضًا.. عليك أن تقبل لتكون سعيدًا..

يقوده المرشد إلى منضدة أخرى ويعفر يده اليمنى في التراب ويجلسه راكعًا على ركبته اليسرى.. يمسكون يده ويضعونها على كتاب يشعر بنقوش على سطحه الخارجي.. نقوش ألفها جيدًا طيلة حياته وخصيصًا في شهر رمضان.. الشهر الذي يتذكر فيه أن هناك كتابًا للمسلمين اسمه قرآن..

يحاول أن يرفع يده عن الكتاب في جزع.. لا يريد أن يورط القرآن في شيء كهذا حتى وإن كان هلوسة لكنه لا يستطيع.. يبدو أن الإرادة الحرة وهمٌ

في هذا العالم، وأن إعطاءهم إياه خيار التراجع هو مجرد خيار وهمي كالذي يعطونه للبشر كل يوم..

يجد الكلمات تحتشد على لسانه فلا يدري من أين جاءت..

– أنا رمزي جمال صادق، أقسم بين يدي الله، خالق الكون الأعظم، وأتعهد بإرادتي واختياري أن أصون وأكتم الأسرار والرموز الماسونية التي تباح لي الآن أو فيما بعد.. ولا أبوح بها لأحد إلا للأخ الصادق والمحفل العادل التام المنتظم بعد الثقة والاختبار أنه أهل للثقة. وأتعهد بألا أكتب هذه الأسرار أو أطبعها أو أحفرها أو أدل عليها بوجه من الوجوه، وأن أمنع – إن استطعت – من يفعل ذلك، سواء بالحرف، أو الوصف، أو الصور؛ حتى لا تكشف أسرار البنائين الأحرار.. وأتعهد بأن أتقيد بشرائع محفل الكون الأكبر وموازينه، وأتعهد بالطاعة لمحفلي هذا.. المستمد من محفل الكون الأكبر الذي أعتبره دومًا محفلي الوالدي. وإنني أقسم على هذا قسمًا صريحًا بدون مواربة أو خداع، وإن حنثت بقسمي هذا أكون مستحقًا ضرب عنقي وشلّ لساني..".

يخلع المرشد العصابة عن عينيه ليجد رجالاً حوله على ضوء المشاعل التي أضيئت يشهرون سيوفهم نحو صدره..

– إن هذه السيوف للدفاع عنك عند الحاجة، وللفتك بك إن خنت عهودك.. والحبل الذي في رقبتك هو لخنقك إن بدرت منك أي خيانة.. قبل لحظات كنت أجنبيًا عن عشيرتنا، أما الآن فقد أصبحت أخًا ماسونيًا، لك ما لجميع الإخوان وعليك ما عليهم..

ويتحول الحبل في رقبة رمزي إلى حبل دخاني يربطه بقسمه إلى الأبد..

قسم صار ينفذ بين البشر رغم كونهم لا يذكرون شيئًا عن أي محفل.. يتردد في

ذهن رمزي وهو يخرج لا يدري إلى أين تقوده هلوساته..

"..... إني أقطع كل الروابط التي تربط بيني وبين أي أحد من البشر كالأم والأب والأخوة والأخوات والأقارب والملوك والرؤساء المحسنين، وكل من حلفت له بالأمانة والطاعة والتزمت له بالشكر.. ".

كانت العين في رأس رمزي تراقب البشر من حوله وتتأكد من كونهم يدخلون في هذا القسم الأخير يومًا بعد يوم.. لا احترام لأي كبير.. لا اعتراف بأي جميل. فقط الفوضى والسباب والرفض هو اسم اللعبة..

******

"إن رجال الدين يحاولون السيطرة على أمور الدنيا، وعلينا ألا نألوا جهدًا للتمسك بحرية العقيدة، وألا نتردد في شن حرب على كافة الأديان؛ لأنها العدو الحقيقي للبشرية، ولأنها السبب في الحروب بين البشر عبر التاريخ".

نشرة ماسونية ١٩٢٣

******

"كل اعتقاد ديني هو ضعف في عقل الإنسان، وإنه لم يبق أحد يؤمن بالله، وخلود النفس إلا البلهاء والحمقى".
عبد الحليم إلياس الخوري

******

"إن الماسونية دين له خطوط واضحة، ولقد تركت الماسونية لأبنائها أديانهم مؤقتاً.. "

جان أبو نعوم

******

أعلن المؤتمر الماسوني الكبير عام ١٨٨٩ في ذكرى الثورة الفرنسية أن أهم مبادئ الماسونية هي تكوين حكومة لا تؤمن بالله، كما تكرر هذا المبدأ في المؤتمر الماسوني العالمي في باريس عام ١٩٠٠ وأقرّوا ضرورة فصل الدين عن السياسة، وتكوين جمهورية لا دينية عالمية..

******

من رسالة وجهها جيوسيبي مازيني رئيس جماعة النورانيين ومعلن الدولة الإيطالية في روما إلى مساعده برايد أينشتاين..

"إننا نكوّن جمعية من الإخوة المنتشرين في كل بقاع الكرة الأرضية. ونحن نرغب في كسر كل الأطواق، لكن ما زال هناك طوق خفي، لا يشعر به أحد بالرغم من أنه يثقل بوزنه علينا.. من أين جاء هذا الطوق؟ وأين هو؟ لا أحد يعرف، أو على الأقل لا أحد يشير إليه بكلمة.. إن هذه الجمعية "سرية" حتى بالنسبة إلينا نحن الخبراء بالجمعيات السرية...".

..أنت الآن منا..

استيقظت رنا صباحًا في السادسة إلا ربعًا وقد دبّ فيها النشاط فجأة على غير عادتها.

جلست في سريرها وقد شعرت أن في عقلها أحداث كثيرة من أحلام ليلة أمس، فحاولت أن تسترجع تلك الأحلام محاطة بشعور عام بأن هناك شيء مهم فيما حلمت به ليلة أمس..

لقد رأت آسر في منامها ككل ليلة إلا أن هناك ما كان يعيق "الاستقبال" في بداية الأمر لكنها تذكر جيدًا أن آسر طمأنها إلى أن ميعاد عودته قد اقترب.. أخبرها ألا تخاف من أي شيء تراه. لم تعلم رنا ما يقصده الطفل لكنها رأت الكثير بالفعل ولن يثير خوفها شيئًا بعد ذلك..

إلا أن ما لفت نظرها حقًّا هو ذلك الحلم الغريب عن رمزي.. رمزي في مكان ما.. محفل ماسوني.. مراسم غامضة يمر بها ويبدو كأنه يجبر عليها..

حلم شديد التعقيد، ولا تذكر أنها قرأت عن الماسونية أشياء كالتي رأتها في الحلم.. أشياء تبدو أسرارًا، ومن المنطقي ألا يكتب أحد عنها..

قامت فتوضأت وصلت فشعرت بطمأنينة تغمرها وتفاؤلاً بالحياة، شعرت بالقوة كي تواجه ما انبأها آسر به، فهي تؤمن أن طفلها ليس كأي طفل، وان

هناك من يرشده بشكل ما لا تفهمه..

كانت تشعر بفضول تجاه تلك المدرسة التي هي مقبلة على العمل بها، خائفة الا أن اكثر ما شعرت به هو الفضول ورغبة في معرفة اكثر على ضوء لغتها اللاتينينة المبعوثة إلى الحياة.

تناولت إفطارًا سريعًا مما تبقى من عشائها الذي لم تكمله، وارتدت ما يصلح للارتداء من ملابسها، وعزمت على شراء ملابس جديدة اليوم بما تبقى معها من نقود إيناس، على أن تعيد النقود إلى إيناس مع أول مرتب لها من المدرسة، لكنها شعرت بتقلص بسيط في معدتها حين خطر لها أنه ربما لن تكمل عملها في المدرسة إذا اتضح الأمر ووجدت أن للمدرسة علاقة مباشرة بالماسونية أو بأي تدخلات خارجية.. لن تكون ترسًا في آلة لتحويل الأطفال إلى تابعين أبدًا..

سارت في الشارع إلى أن وصلت إلى البوابة القديمة المهجورة المجاورة لها، لقد فتحتها لها السيدة خوشيار أمس كي تذهب منها إلى منزلها مباشرة لكنها اليوم مغلقة.. تابعت رنا سيرها بمحاذاة السور وهي تنظر خلال قضبانه الحديدية الصدئة.. خطر لها تساؤل عن عدم استغلال المدرسة لذلك الفناء أو حتى تنظيفه، لكن خواطرها قطعت حين شعرت بمن يسير بجانبها، نظرت فوجدت الطفل الغامض يسير مادًا يده الصغيرة إليها كي تمسك بها كأنها أمه ترافقه في أول يوم دراسي له، إلا أن الواقع هو العكس..

مدت يده وأمسكت الهواء الذي يمثل يده فشعرت بذلك الملمس الرملي.. شعرت بعاطفة قوية تجاهه وتمنت لو استطاعت أن تحتضنه، لن تستعيض به عن ابنها حتى ولو كان شبحًا أو كائنًا غامضًا.. شعرت به يقترب منها كي لا تضطر إلى مد يدها بعيدًا في الهواء للإمساك بيده ولفت الأنظار إليها..

شعرت بجسده الصغير يحتاج إلى حنان قد كُبِت فيها منذ أن رحل آسر. في ذهنها ظلت صورة سيدة محجبة قصيرة ممتلئة الجسم تمسك بيد الطفل الغامض إلا أنه في تلك الصورة كان طفلاً عاديًا يرتدي نظارة طبية ملونة صغيرة، ويسير متقافزًا بزي مدرسي هو ذات الزي الذي يرتديه الطفل الغامض الآن إلا أنه كان نظيفًا مهندمًا..

وصلت رنا إلى بوابة المدرسة الرئيسية في أقل من ربع ساعة ووقفت أمامها تنظر إلى الشعار الجاثم فوق مدخلها، وتحاول أن تقرأ المكتوب تحته مرة أخرى على ضوء ما تذكرته من اللاتينية إلا أنها فوجئت بشيء عجيب.. لقد اختفت الحروف اللاتينية تمامًا وبدلاً منها وجدت أرقامًا..

عقدت حاجبيها في غير فهم ثم نقلت نظرها إلى الطفل الغامض الذي بادلها النظرات دون تعبير على وجهه.. لقد غيروا الكلمات إذًا أم أنها لا تراها بشكل صحيح؟

استوقفت رجلاً مارًا وسألته عن المكتوب على اللافتة فهز كتفيه في حيرة وأعلن أنها أشياء مكتوبة بالإنجليزية أو الفرنسية. إذن فهي الوحيدة التي ترى الحروف اللاتينية أرقامًا.. هل لهذا صلة بسؤالها عن معنى المكتوب على القدح الفخاري؟ هل تسبب سؤالها في إثارة خوفهم لذا سحروا عينيها بشكل ما حتى لا تقرأ لاتينيتهم مرة أخرى؟

أخرجت وريقة وكتبت فيها الأرقام وهي تحاول الاختباء على الجانب الآخر من الطريق خلف حافلة المدرسة الخالية، وحين انتهت كان قلبها يخفق كقلب طائر الطنان وشعرت بأن شيئًا ما فيها لم يعد كما كان.. شيئًا يتعلق بيقظة عقلها المفاجئة وشيئًا يتعلق بمسؤوليتها تجاه الأطفال على الجانب الآخر من سور المدرسة..

أخذت نفسًا عميقًا ثم عبرت الشارع مرة أخرى ودلفت إلى المدرسة، وفور دخولها شعرت بحرارة في كفها فنظرت إلى الطفل الغامض لتجده استحال إلى اللون الأحمر الشرير وتعالى صوت أنفاسه المكتومة. تركت كفه فتركها دون رد فعل إلا أنه ظل يتبعها..

في الطريق ظلت رنا ترمق الأطفال الصغار في ما قبل سن الحضانة يلهون ويجرون، فيما تحيط الهالات الملونة بهم معبرة عن الحب أو الغضب أو الخوف.. مشهد طبيعي في حياة رنا. إلا أن ما لفت نظرها هو الأطفال في سن الابتدائي.. لم تعد لهم هالات خاصة وإنما تجمدت ملامحهم وأصبحت أقرب إلى الخشب.. وجوه تشبه وجوه الأطفال الذين قابلتهم في حديقة الحيوان..

في جانب الفناء جلست طفلة سمراء جميلة تعرفها رنا جيدًا.. رشا.. الطفلة التي رأتها في منزل رمزي.. كانت الطفلة حزينة تبكي دون دموع مرئية بينما تتصاعد الدموع في هالتها الزرقاء الرمادية إلى أعلى وحول عنقها يلتف خيط دخاني شرير، يحكم الوثاق تارة فترى ملامح الطفلة قد تحولت خشبًا، وتارة يرخي الوثاق فتعود حزينة ذكية كما كانت..

دخلت رنا الرواق المؤدي إلى حجرة المديرة وهي لا تكف عن تفحص وجوه الأطفال حولها في فضول، حتى دخلت الممر وسارت فيه إلى أن وصلت إلى المكتب.

طرقت الباب وفتحته لتجد السيدة خوشيار جالسة خلف المكتب تقرأ شيئًا ما يغطي وجهها، لكن سرعان ما تركته ونظرت إلى رنا في ترحاب وهي تتفحصها..

- أهلاً مدام رنا.. أرجو أن تكوني قد حظيت بنوم جيد ليلة أمس..

ثم فتحت درج مكتبها وأخرجت عصا خشبية ملفوفة بشريط بلاستيكي أسود جميل الشكل وناولتها لرنا..

– أعلم أنكِ ربما لن تحتاجيها، لكنها جزء من هيبة المدرس.. إنها مصنوعة في الأصل للإشارة وليس للضرب..

ترددت رنا في قبولها؛ فهي لن تستوعب قط أهمية العصا للمدرس، يمكنه دومًا أن يشير بيده إلى السبورة فهو لن يقدم النشرة الجوية على أية حال. لطالما مثّلت العصا لرنا أداة تهديد قمعية، ولن تخرج عن كونها كذلك مهما أعطيت لها من مسميات واستخدامات.

– تذكري.. لا تستخدمي العربية في الفصل.. لا بد أن يعتادوا سماع الإنجليزية حتى تصير جزءًا منهم..

تنهدت رنا وأمسكت بالعصا فشعرت وكأن تيارًا كهربيًا قد سرى من العصا إلى كفها وأن العصا قد التصقت بها بشكل ما.. شعرت بقوة وسيطرة لم تشعر بها في حياتها..

تقدمتها السيدة خوشيار إلى الفصل الدراسي الذي هو عبارة عن حديقة صغيرة نصف مسقوفة تطل على الفناء الكبير. في الفصل يجري هنا وهناك الأطفال الصغار.. تراهم رنا لأول مرة بلا أطياف من أي نوع، بل إنها لا تذكر شيئًا عن الأطياف من الأساس.. يقف الطفل الغامض أمامها فلا تراه.. تأمر الأطفال أن يتركوا اللعب الآن وأن يجتمعوا أمامها.. يصطف الأطفال في خوف فتشعر بسيطرة ونشوة لم تشعر بها من قبل.. كل أولئك الأطفال ملك لها.. ملك لهم..

تبتسم السيدة خوشيار وتبتعد عائدة إلى مكتبها في رضا، بينما تلقي عليهم رنا

تحية الصباح باللغة الإنجليزية فيرد عليه الجمع بلغته الوليدة متقطعة الأنفاس في آن واحد، بينما يتأخر الصبي القمحي ذو الشعر الأكرت الصغير فيرد وحده بإنجليزية صحيحة النطق..

تلتفت رنا إليه وتتفقده..

–why didn't you greet me back with your fellows?

ابتسم الطفل وتقدم من رنا رافعًا وجهه الصغير نحوها..

– إنهم لا ينطقون الكلمات بشكل صحيح، وأردت ان أريكِ أنني أجيد النطق بشكل أفضل..

–you're not allowed to talk in Arabic in class..

– لكنني مصري، وما دمت لا تشرحين درسًا ما فيمكننا الحديث بالعربية..

ومن عيني الطفل تبدى ذكاء أثار حفيظة رنا.. تقدمت نحوه وشعرت بيديها تطبقان على خيوطه الهفهافة.. أحكمت قبضتها فترنح الطفل وأمسك برأسه الصغير..

–speak in English. NOW..

وفي استسلام تراجع الطفل وألصق ظهره بالجدار وهمس..

–yes، miss Rana..

وابتسمت رنا في ثقة ومن خلفها الطفل الغامض يحرك رأسه في حنق يمنة ويسرة وكأنه لا يحتمل أن يرى ما يراه الآن.. مرة أخرى في عمره الصغير..

محاولات صغيرة..

كان آسر يجلس وحيدًا كعادته.. أخته لي لي ترفض اللعب معه ولا تنفك تصرخ دون مبرر حتى يختفي من أمامها..

إيناس شاردة أو مشغولة تسدد له نظرات مفاجئة كلما اختلى إلى نفسه، يعلم أنها تحبه لكنها تحبه بحذر، لن تكون مثل أمه أبدًا..

بالأمس حلم بأمه لكنه كان حلمًا مشتتًا.. كان يريد أن يخبرها أنه سيجتمع بها قريبًا كما أخبره الطفل الأزرق، وأن عليها أن تستعد لمهمة صعبة..

رأى في الحلم رمزي بشكل مختلف.. يشعر آسر أن رمزي في مكان ما لكنه ليس بخير.. يحلم به كثيرًا لكنه لا يستطيع الحديث معه..

كانت اللحظات التي يقضيها آسر بين كتبه هي الأفضل في اليوم.. يبحر مع السندباد ويركب الطائرة مع تان تان.. تقرأ له نهى بعض الروايات الكبيرة التي يلح عليها أن تبسطها له كما كانت تفعل أمه إلا أنها لم تَبْدُ مهتمة، فضلاً عن كونها غير قادرة على تبسيط ما لا تفهمه هي من الأساس..

كان يشاهد أفلامًا مثل سلسلة هاري بوتر، ويفهم ما تسمح به قدراته في ملاحقه الترجمة، إنه يقرأ بشكل جيد كما علمته رنا لكنه لا يستطيع القراءة بسرعة، لكنه تأثر كثيرًا بالنغمة البطولية في تلك القصص، الطفل الذي ينقذ

العالم.. لم يفهم بعد رمزية أن ينقذ طفل العالم، قد ينقذ النقاء والبراءة ما لا يقدر على إنقاذه من تلوثوا بأطماع الدنيا وشرورها..

كان يرسم أيضًا ويصنع المجسمات الخشبية الصغيرة، لم يستطع الكفّ عن رسم الأطفال كما يراهم، دمى تشبه دمية بينوكيو التي أثارت ذعره في أول مرة يراها..

أدرك بشكل ما أن ما يراه من خيوط دخانية لا يراه غيره وأمه.. يبدو الناس في التلفاز والصور بلا قيود.. لقد علم آسر أنه مختلف، وأنه غير مسموح له بإعلان هذا الاختلاف.. لن يصدقه أحد إلا أمه..

كان زين مشغولاً معظم الوقت، وحين يتواجد.. يتعامل مع آسر بشيء من التحفظ والوجل، وكان آسر يذكره بشيء لا يحب المرء تذكره، إلا أن آسر قد لاحظ أن زين منزعج بشدة من العداوة غير المبررة بين آسر ولي لي.. يبدو عليه أحيانًا أنه يعرف سببها.. في كثير من الوقت يتبادل آسر وزين نظرات من نوعية – أعلم أنك تراه – متجاهلين الحديث بصوت عالٍ عن الطفل الغامض.

احتضن آسر ركبتيه، وسالت دمعتان حارتان على وجنتيه الحمراوين.. يشتاق إلى أمه بشدة، يتوق إلى أن تضمه إلى صدرها النحيل الحنون وتمسح عنه كل مخاوفه وشجونه.. يتوق إلى أن يلعب معها، أن يصنع لها الشطائر المرتجلة التي تضحكها حتى تنخرط في السعال.. يشعر بضعفها وحاجتها إليه كما يشعر بضعفه وحاجته إليها..

يدق جرس الباب فيفتح باب حجرته ليرى من القادم.. إنها المدرسة التي تأتي لتعليم لي لي مبادئ ما قبل المدرسة رغم أن لي لي قد التحقت بالفعل بإحدى المدارس.. وظيفة بسيطة تقوم بها أي أم، إلا أنهم هنا يستعينون بالكثير

من الأشخاص للقيام بالقليل من الأعمال.. تصرف أصاب بالعدوى حتى محدودي الدخل من الناس.. يرونهم في الأفلام يستأجرون مربية ومدرسة خاصة ومدبرة منزل وعاملة نظافة.. يشعرهم تقليد الأفلام بالبعد عن واقعهم الكئيب وكأنهم يعيشون فيلمهم الخاص..

لاول مرة يرى آسر لي لي وهي تتلقى دروسها.. تسير الطفلة الجميلة في فخر حاملة كراسة ومجموعة ألوان مزدانة بآخر إبداعات ديزني للفتيات، تتسلق كرسي السفرة العالي لتجلس في مواجهة المدرسة الضخمة الجسد القصيرة الشعر في طابع رجولي فج.

تفتح لي لي كتبها بينما تمد المدرسة يدها إلى الخيوط الدخانية الصغيرة التي نمت من جسد أخته الصغيرة مؤخرًا والتي تختلف عن الخيوط الأخرى التي كانت تربطها بالتلفاز.. أمسكت المدرسة الخيوط وجذبتها نحوها فاهتزت هالة لي لي وتحول وجهها إلى الشكل الخشبي الكريه الذي يراه آسر عليها لأول مرة..

دون وعي تقريبًا جرى آسر نحو السيدة والطفلة وقفز على كرسي لي لي وأخذ يمزق الخيوط في جنون فبدا لإيناس والمربية أن الولد قد جن ليحارب الهواء فوق رأس أخته..

أخذت لي لي في الصراخ وهي تمسك رأسها، بينما بدت المدرسة أكثر تعقلاً وهي تبحث لآسر عن خيوط كي تسكه فلم تجد.

حملت إيناس ابنتها وأبعدتها عن آسر، بينما حملت نهى آسر من خصره وهو يركل..

- دعوني أمزق الخيوط.. هذه السيدة تؤذي لي لي.. تريد خنقها..

أمسكت لي لي رأسها وكفت عن الصراخ، ثم أغمضت عينيها وارتخت دون حراك بين يدي أمها..

جزعت إيناس وحملتها إلى أقرب أريكة وشرعت تقرص خديها وتنادي عليها..

- لي لي.. حبيبتي.. لي لي.. أفيقي.. نهى.. اطلبي الطبيب..

ثم التقت عيناها بعيني آسر فأردفت وهي تبعدهما عنه..

- واطلبي زين.. هيا..

تركت نهى آسر وهرعت إلى الهاتف، بينما أخذت المدرّسة تجمع حاجياتها في برود لترحل..

تقدم آسر في خوف من أخته التي فقدت لونها الوردي وأمها الجالسة بجانبها تغرقها دموعها..

- طنط إيناس.. لم أقصد..

- ارحل.. الآن.. لا أريد أن أرى وجهك.. ارحل!

مد آسر كفه الصغيرة ليمسح جبهه لي لي المتعرقة فأمسكتها إيناس بعنف وأبعدتها فكاد آسر أن يسقط..

- ابتعد عنها.. ارحل.. هل أنت أصم؟!

تراجع آسر والدموع تحتشد في مقلتيه.. يتراجع نحو باب حجرته والدموع تسيل لتغرق صدره دون أن يغمض له جفن.. ظل يحدق في أخته وصوت بكاء إيناس يحثه على المزيد من البكاء..

يدخل حجرته وينظر حوله.. يبحث عن رنا.. يهمس "ماما" من بين شفتيه

المتورمتين من البكاء.. يمد كفيه إلى منضدة ألعابه ويسقطهم أرضًا وكأنه يبحث عن أمه فيهم.. تدور الحجرة من حوله وصوته ما زال يهمس "ماما"..

******

كانت رنا تردد بعض الكلمات بالإنجليزية ويرددها خلفها الصغار وهم يحاولون الربط بينها وبين الصور المعروضة على شاشة البروجيكتور..

-W... window..

فيردد خلفها الأطفال بلهجتهم الممطوطة.. تدور رنا بعينيها حتى تصل إلى الطفل الأكرت الشعر الجالس يردد معهم في ذكاء..

-Omar.. tell me a word that begins with the letter "O"..

-mmm.. ocean..

-no.. remember what we've said..

-I can't remember، but ocean begins with "O" too..

قطبت رنا وقد أدركت أن هذا طفل يجادل آخر.. إجابته صحيحة فكلمة ocean تبدأ بحرف ال O إلا أنهم لم يدرسوها بعد في المدرسة.. الإجابة التي تريدها هي orange ولا شيء سواها.. تصيح فيه بالإنجليزية..

– أنت تتحدث كثيرًا.. احفظ ما أمليه عليك فقط.. هذا ما سيأتي منه الامتحان.. لا تشغل عقلك بأشياء خارج الكتاب..

– لكن إجابتي صحيحة.. أستطيع أن....

- اصمت!

وتجذب رنا الخيوط فيصمت الطفل ويتهاوى جالسًا شاردًا..

تفتح رنا فمها لتكمل درسها إلا أنها تسمع صوت آسر واضحًا.. "ماما".... صوته ضعيف متعب ينطق "ماما" كأنها "بابا".. أنفه مسدود.. إنه يبكي.. تسقط العصا من يدها وتمسك رأسها.. ترفع عينيها لتجد كفيها ممتلئتان بالخيوط الدخانية المرتبطة بالأطفال هناك.. تراهم بعيني رنا القديمة.. تتراجع إلى الحائط وتمسح كفيها في ملابسها.. يتصاعد الهرج بين التلاميذ يتساءلون ما الذي يحدث..

يتقدم الطفل عمر منها وقد زالت قيوده تمامًا كأن لم تكن، يلمس كفها متسائلاً بالعربية..

- هل أنت بخير؟

تمسك رأس الطفل بين كفيها وتنظر إليه، تحضنه وتبكي.. تدخل السيدة خوشيار في جزع إلى حجرة الدرس وكأنها توقعت سبب الهرج في الفصل..

تنحني وتمسك بالعصا فيسكت الأطفال.. تبعد عمر عن رنا في عنف وتمسك كف رنا وتغرس فيه العصا..

- مدام رنا.. عصاك.. لا تتركيها..

تنظر إليها رنا في وجوم ثم تترك الفصل في خطوات سريعة إلى البوابة الرئيسية.. آسر يبكي كما لم يبكِ من قبل.. سوف تذهب إليه وإن كلفها ذلك آخر قطرة في دمائها..

وقبل أن تصل إلى البوابة الرئيسية كانت السيدة خوشيار قد أمسكت بخيوط

الدمية الخشبية ذات الشعر البني.. تجذب خيوطها كي تستدير عائدة.. تقف رنا فجأة وقد نسيت ما الذي أخرجها من الفصل.. تستدير عائدة كدمية مطيعة.. تلتقط عصاها من فوق المكتب وتقف لتكمل دروسها...

******

حين دخل زين في لهفة إلى شقته كان الطبيب قد فرغ من الكشف على لي لي ووقف يتحدث مع إيناس..

– إيناس ماذا حدث؟ ماذا حدث يا دكتور؟

– الطفلة وقعت تحت ضغط عصبي شديد ومفاجئ.. إنها الآن بخير ولا أنصح بأي أدوية.. فقط تحدثوا إليها وحاولوا أن تخففوا الضغط عنها..

نقد زين الطبيب ماله ثم سأل عما حدث، حكت له إيناس في عصبية ما حدث فوقف يدخن ويفكر..

– وأين آسر؟

– لا أعلم.. ستجده في حجرته حتمًا.. زين.. اسمع.. هذا الطفل مختل ولن أسمح بوجوده بجانب ابنتي وهو على هذه الحالة..

نادى زين على آسر ثلاث مرات فلم يجد إجابة.. فتح باب حجرته ليجد الطفل ساقطًا على الأرض وسط ألعابه وقد فقد الوعي..

ركع زين على الأرض وهو يغالب ألم مفصل فخذه الذي يبدو أنه لن يشفى منه للأبد وأخذ آسر بين ذراعيه..

– آسر.. آسر.. رد عليّ يا بني..

حمله زين دافعًا بجسده الصغير إيناس التي وقف تسد الباب وقبضتاها في خصرها..

- أنا لم أفعل له شيئًا.. ما الذي حدث له..

- سأحاول اللحاق بسيارة الطبيب أو الذهاب إلى أي مستشفى.. ابقي هنا مع البنت..

وخرج من الباب تاركًا إيناس واقفة لا تدري بما تشعر.. تراها قد قست عليه أكثر من اللازم؟ إنه طفل مريض وعقله ليس على ما يرام، من الظلم معاقبته على ما لا يتحكم فيه.. لكنه قد آذى ابنتها.. تعرف أنه لم يفعل شيئًا سوى التلويح فوق رأسها، لكن المفاجأة أثارت ذعر الفتاة..

دخلت حجرة لي لي وجلست بجانبها.. لا تزال الطفلة نائمة إلا أن إيناس لا تشعر بأن الأمر تفسيره المفاجأة فقط.. فهذا الطفل يرى أشياء ويتصرف على أساس ذلك.. تلك الأشياء تبدو حقيقية ولها تأثير....

- ما هذا الهراء... ما الذي أفكر فيه؟!

واندست مع ابنتها تحت الأغطية لكنها لم تنم..

******

جلس زين بجانب ابنه في طوارئ إحدى المستشفيات الخاصة بعد أن غادر الطبيب مطمئنًا إياه على صحة الطفل.. ضغط عصبي زائد جعل زين يبدو كمن ارتكب جريمة أمام نظرات الطبيب له وهو يتساءل عن كنه الضغط النفسي الذي يمكن أن يكون قد وقع على كاهل طفل بهذه السن..؟!!

أخذ زين يداعب شعر آسر الغزير الملتصق بالعرق فوق جبينه وهو يفكر في ما حدث كله.. ترى هل تستأهل خلافاته الأزلية مع رنا العبث بصحة ومستقبل طفل بريء كهذا؟ لن تحبه إيناس كما تحب لي لي مهما فعل ومهما فعلت هي، غريزتها ستكون أقوى، ولن تحب امرأة آسر قدر أمه..

استرجع مشاجراته مع رنا.. إهمالها له وكأنه كان طيلة الأعوام الستة التي عاشاها معًا مجرد ذكر نحل مهمته تلقيح الملكة، ثم الموت له من بعد ذلك. لكنه ظل يحمل لها مشاعر ما حتى بعد انفصالهما وهربها بآسر. كان يشفق عليها ويحاول أن يعطيها حياة كريمة حتى وإن لم تعد له كزوجة، لكن علاقتها الآثمة الأخيرة قد أنهت كل شيء.. لم تعد حتى مؤتمنة على حياة آسر، لم تعد تستحقه..

كان آسر يحرك شفتيه ويهمس "ماما" ويبدو كأنه يحدثها.. تمزق قلب زين مع كل كلمة غير واضحة يتفوّه بها آسر في نومه إلى أمه.. ضمه إليه وقد توقفت عبرتان في ركني عينيه.. لم يبكِ زين إلا في أحوال نادرة، لكنه دومًا لا يسمح لدموعه أن تتعدى خط أهدابه..

من خلف عيني آسر المغمضتين، أخذت قزحيتا آسر تتحركان في سرعة كشأن مَن يحلم، إلا أنه لن يستيقظ إلا عندما تزول عنه الصدمة ويبدأ عقله في التأقلم مع الواقع من جديد..

ابيض و أسود..

رآى آسر نفسه لأول مرة في ساحة واسعة ضبابية يكسو أرضيتها رخام بارد بلونين أسود وأبيض كأنه يقف على رقعة شطرنج عملاقة..
في منتصف الساحة - إن كان لشيء بهذا الاتساع منتصف - رآى رمزي.. متدثرًا بغطاء قماشي أسود، جالسًا القرفصاء ورأسه بين ركبتيه.. يبدو له أنه يبكي من اهتزاز كتفيه..

اقترب آسر من رمزي ووضع كفه الصغيرة على ظهره..

- عمي رمزي.. ما بك؟

انتفضت رمزي ورفع عينين حمراوين مندهشتين إلى آسر..

-آسر؟ ما الذي جاء بك هنا؟ هل.. هل أنت بخير؟ أعني.. هل أنت على قيد الحياة يا صغيري؟

- نعم.. أنا فقط نائم.. لكنها المرة الأولى التي أحلم بك فيها بهذا الوضوح.. أين نحن؟

- ليتني أمتلك إجابة ما.. لقد.. لقد أصابني شيء ما يوم أن رأيتني لآخر مرة، لا أذكر ماذا حدث بعد أن ذهبت إلى والدتك في المنزل لأخبرها ب.....

لن تصدقي!

رمزي الآن مراهق تتدلى خصلات شعره المكوي على أذنيه، المنزل خال إلا من بعض أصدقاء له يحتفلون على الطريقة الغربية. لقد بلغ رمزي وأدرك أن هناك ما يهم في نصف جسده السفلي. لا يوجد من يستقي منه المعلومات إلا هؤلاء الأصدقاء والتجربة بالطبع. أمه على موعد مع أحد الرجال ((الأصدقاء؟)) ويبدو أنها تجتاز تجارب خاصة بها.. أمه ليست منحرفة، معظم نساء زمنه بهذا الشكل.

الصوت العالي لأغنية عربية ذات لحن غربي ممسوخ وأصوات تلتهم الحروف التهامًا تهز أحشاءه وهو يسير بين كوم اللحم الذي يتكون من زميلات له في المدرسة قررن خوض تجاربهن الخاصة مبكرًا..

أصدقاء له يمارسون الجنس في الفصول الخالية، آخرون في السيارات.. هوس من نوع غريب قد سيطر على ذلك الجيل وصارت "المصاحبة" من الأشياء الهامة فعلًا..

يشعر رمزي أنه في عالم آخر، عالم لم يره في حياته السابقة – التي لا يذكرها – إلا في الأفلام الغربية.. انتقلت تلك الأفكار المنحرفة تدريجيًا إلى الأفلام المصرية منذ تسعينيات القرن السابق، ثم قفزت من الشاشة إلى الحياة ككرة سلة في يد لاعب محترف.

كفت السينما عن تقليد الواقع منذ زمن وصار الواقع هو من يحاكي السينما.. يحيون الآن حياة رسمت لهم مسبقًا ووضعت لهم فيها الأدوار الثانوية..

يتفقد رمزي أجساد الفتيات وليدات الأنوثة، كلهن يعرفن كيف يبرزن مفاتنهن والشكر للإنترنت..

ينظر نحو آخر الرواق وتنخفض الموسيقى في أذنيه تدريجيًا.. فتاة أكبر منه ببضع سنوات ترتدي الأحمر وتقف مرتكنة بكلتا يديها على عمودين رخاميين ومن تحتها الأرضية التي يختلط فيها اللونان الأسود والأبيض في مربعات تشبه الشطرنج..

يتقدم من الفتاة وقد همست له غريزته بما يجب عليه أن يفعل..

يكتشف على يديها ما لم يكتشفه أجداده عبر عشرات السنوات من الزواج، لا يعلم أنها هي فقط من يستطيع منحه كل هذا، وحين تنتهي من مهمتها، لن يعرف رمزي الراحة مع أي فتاة عادية. سيعرف العشرات لكنهن جميعًا لسن بمثالية الفتاة ذات الثوب الأحمر والخيوط الدخانية الهفهافة التي قيدته بها إليها.

المحركون العظام هم فقط من يمتلكون تلك النساء "الحلم".. يعرفون كيف يدمرون بها قناعة الرجال، ويشعلون بها بحثهم عن غير الموجود.

تشعر النساء أمام تلك الإناث المكتملات المصنوعات بما يشعر به القرد أمام البشري.. تشابه في معظم الجينات، إلا أنهن لا يملكن - ولن يملكن - ما يجعلهن في مساواة معهن. تيأس النساء من أن يجدن من يقنع بما يملكن فيلقين به إلى من يطلب، فقط ليشعرن أنهن مازلن إناثًا بشكل ما..

العلاقات المحرمة تفشى ولا يعلم أحد عن أسبابها الحقيقية شيئًا، يرونها نوعًا من التحرر والسيطرة على الجسد كما يتوهم مهووسو الوشوم امتلاك

أجسادهم بتلك الطريقة..

وحين يمل رمزي من الفتيات العاديات، يمسك هاتفه ويتصل بالرقم. أرقام ظهرت "للدردشة" على قنوات فضائية غير معلومة المصدر في أوائل هذا القرن، وعلى الجانب الآخر من الخط تجد أكبر تشكيلة من الغانيات المصنوعات بالضبط كي يناسبن خيال الشباب. انتشرت تلك القنوات، وصار الإعلان عنها في بعض المجلات شيئًا مشروعًا، يتصل رمزي ولا يسمع أي صوت من السماعة.. فقط صمت وأصوات ضحكات خليعة بعيدة جدًا، ثم ترد عليه فتاة ذات صوت شبق مبحوح قليلاً.. تماما كما يحب.. ترتدي فستانا عاريا احمر اللون الا انها لا تمتلك وجها على الإطلاق.. فقط فم مشقوق عرضيًا تنبعث منه الخيوط الدخانية الشفافة لتعبر المسافات وتقيده ضمن آلاف القيود التي لا يراها أحد..

******

ضغطت رنا على زر الاستقبال وقلبها محشور في عنقها مسببًا لها عسرًا في التنفس..

- ألو... رمزي؟

لم يأتها صوت رمزي، بل صوت سيدة وقور لم تسمعه من قبل..

- الأستاذة رنا؟ اسمك يظهر على الشاشة.. لقد وجدت هذا الهاتف أمام مكان عملي و لم يتصل به أحد إلا أنت.. هل تعرفين صاحب الهاتف كي تعيديه له؟

- أعرفه.. لكن.. حسنًا.. يمكنني أن آخذ الهاتف وأبحث عنه كي أعطيه له..

- تبحثي عنه؟!

- أعني أنني لا أعرف عنوانه تحديدًا، لكن يمكنني الوصول إليه..

- جميل.. أين يمكنني أن أقابلك ومتى؟

لم تستشعر رنا الراحة الواضحة في صوت السيدة عندما أخبرتها أنها لا تعرف مكان رمزي، إلا أن السيدة أخبرتها بمكان عملها وهي مدرسة قريبة جدًا من منزل رنا، فاتفقت المرأتان على أن تتقابلا بعد نصف ساعة.

نزلت رنا في أقرب مكان للعنوان الذي أعطته إياها السيدة ثم سألت عن عنوان المدرسة فدلّها عليه أحد المارة، وبالرغم من قرب المدرسة من منزل رنا إلا أنها لم تسمع قط عن وجود مدرسة هناك.

أمام بوابة المدرسة الحديدية التي يعلوها نقش منمق لحصان ومثلث وحروف غير واضحة، وقفت سيدة شديدة الأناقة رمادية الشعر مشدودة البشرة بشكل صناعي مبالغ فيه، وفي يدها كانت تحمل هاتف رمزي بشكل واضح.. للمرة الثانية اليوم تشعر رنا بالتضاؤل أمام تلك الأناقة والهيبة فجعلت تعدل حجابها وتغلق زر السترة التي ترتديها ثم تفتحها مرة أخرى في محاولات فاشلة لفعل شيء ما حيال "البهدلة" التي تشعر بها..

تقدمت رنا من السيدة ونظرت إليها فعرفت السيدة على الفور أنها هي رنا، فمدّت يدًا مزدانة بطلاء أظافر على الطريقة الفرنسية وسلمت على رنا بيد قوية..

- أهلاً آنسة رنا..

شعرت رنا بسعادة خفيفة في روحها، هناك من لا يزال يظنها آنسة هنا..

- مدام.. أهلاً بك..

– مدام؟ تبدين صغيرة! هل لك أولاد إذن؟

وتبدلت السعادة الخفيفة إلى شوكة في حلق رنا وذلك الشعور الحزين القلق يسري في عمودها الفقري..

– نعم.. آسر..

– جميل.. هل يذهب للمدرسة أم لا يزال صغيرًا؟

– صغير.. بعض الشيء.. أخاف عليه من المدارس في تلك السن الصغيرة..
ابتسمت السيدة في تفهم وهي تناول رنا الهاتف.

– تفضلي الهاتف.. لكن أتعلمين؟ لديك حق.. المدارس لم تعد بالأمن والانضباط الذي كان.. قلة هي المدارس التي تثقين فيها وتأمنينها على أولادك..

هزت رنا رأسها وأخذت تحدق في هاتف رمزي...

– لن تصدقي.. أنا مديرة المدرسة التي تقفين أمامها الآن.. وأصر على أن نكمل كلامنا في مكتبي..

رفعت رنا حاجبيها وقبل أن تنطق بشيء وضعت السيدة كفها على كتف رنا برشاقة واقتادتها إلى مدخل المدرسة المنمق النظيف..

******

لم تكن الساعة قد تجاوزت الثالثة والنصف حين اجتازت رنا الممر الفاخر المؤدي إلى مكتب السيدة خوشيار مديرة المدرسة..

كانت رنا تسمع ضوضاء أطفال منتظمة تأتيها خافتة عبر جدران الممر المكسو

بورق الحائط الأنيق واللوحات التي تبدو كأنها أصلية. لكن من ذا الذي يضع لوحات أصلية في ممر بمدرسة؟

كان الصوت مستمرًا، لا يقترب أو يبتعد، وكأنه يصدر من الجدار ذاته. طرأ على ذهن رنا أن الأصوات تبدو وكأنها تتكرر بشكل ما.. سمعت ذات الضحكة أو الصيحة مرتين على الأقل في طريقها إلى المكتب وكأنها أصوات مسجلة يعاد تشغيلها إلى الأبد..

كان المكتب صغيرًا يحمل طابعًا أجنبيًا قديمًا تتزاحم فيه كتل من الأثاث الخشبي الفاخر مع منمنمات أنيقة ذهبية ومفارش من الدانتيلا كأنها انتقلت إلى عصر من العصور الوسطى فجأة، لكن ما كسر ذلك الشعور هو جهاز الكومبيوتر شديد التطور الذي يعتلي المكتب الضخم، وكذلك التكييف الأنيق..

جلست السيدة خوشيار إلى مكتبها وأشارت إلى رنا كي تجلس.. ضغطت السيدة خوشيار زرًا على المكتب فانطلق أزيز قصير سرعان ما انفتح الباب على إثره وأطل منه ساعٍ أبيض الشعر خمسينيّ..

– اسمحي لي أن أطلب لك مشروبي الخاص.. السحلب التركي! لن تصدقي..

لا أشرب سواه طوال اليوم، ولم أجد أروع منه بديلاً.. إنه ليس كأي سحلب شربتيه في حياتك..

أدرك الساعي الطلب فخرج يحضره دون تعليق، ولم يفُته أن يرمق رنا بنظرة طويلة لا تعبير فيها..

– ترين يا مدام رنا أن المدرسة على مستوى عالٍ جدًا، ويشرفنا بالطبع استقبال ابنك في أي وقت.. للمدرسة عدة فروع داخلَ مصر وخارجها أيضًا، ويمكنني أن أجد لك فرعًا قريبًا من منزلك.. أين تسكنين؟

– في الحقيقة هذا هو أقرب فرع بالفعل.. بيتي على بعد ثلاث شوارع من هنا..

رفعت السيدة خوشيار حاجبيها في دهشة مصطنعة وخطر لرنا أن السيدة تعلم أين تسكن تحديدًا لكن رنا وجدته خاطرًا سخيفًا؛ فمن أين للسيدة أن تعرفها؟ ولِمَ تتظاهر بالعكس؟

ومن الأفكار التي دفعت الخاطر السابق جانبًا هو إحساس بأن السيدة تورط رنا في أن تلحق ابنها بالمدرسة، وهي مدرسة كما تبدو باهظة المصاريف، وبالتأكيد يبدو على رنا ضيق ذات اليد.. لم تعلم لِمَ اعتبرتها السيدة الأنيقة صيدًا..!!

– قولي لي يا مدام رنا.. هل تعملين؟

– في الواقع لا أعمل حاليًا.. لكنني في مرحلة البحث عن عمل؛ فأنا مطلقة وأحتاج لأن أعمل بالطبع..

أضافت رنا جملتها الأخيرة كي تغلق على السيدة باب الحديث في إلحاق آسر بالمدرسة، في الواقع هي قد سدّت الطريق على نفسها وعلى أحلامها بأن تلحق الطفل بمدرسة بهذا الرقي فضلًا عن كونها قريبة من منزلها.. لن تسمح لنفسها بالمزيد من الأحلام البعيدة.. لن تسمح لفكرة ترك آسر لأبيه كي يحيا حياة أفضل تتسلل إلى عقلها..

– لن تصدقي.. يبدو أنك سوف تتوقفين عن البحث الآن! نحن نبحث عن مدرسات بلا خبرة كي يتدربن هنا للتدريس في مرحلة الحضانة.. ما هي مؤهلاتك؟ هل تجيدين الإنجليزية؟

لن تكف المرأة عن ترديد عبارة "لن تصدقي" تلك، إلا أن رنا بالفعل لم تصدق

ما سمعته أذناها، بدا لها العرض كأنها قد تم تفصيله عليها هي تحديدًا.. لم تتوقع أن يحالفها الحظ بعد أن تخلى عنها جميع الحلفاء..

- بالطبع أجيد الإنجليزية، أنا خريجة كلية الآداب قسم اللغة الإنجليزية، كما أنني أعشق الأطفال بشدة..

- جميل!

جاء السحلب في قدح فخاري أسود يحمل نقوشًا ذهبية وكلمات باللغة اللاتينية.. تعرف رنا القليل منها بحكم دراستها، إلا أن الكثير قد تبخر من القليل التي كانت تعرفه فصار ما تراه على الكوب طلاسم لا تفهم منه إلا الضمائر وحروف الجر..

"أنت...... منّا........، وصرت.......... .... المهندس...... "
ذلك ما فهمته من المكتوب، ولم تجد بين الكلمات رابطًا ما فضلاً عن أن الجمل لا تبدو من الجمل التي تكتب على الأقداح الخزفية..

رشفت رشفة من المشروب الساخن فلم تستطع إلا أن تصب الباقي صبًا في معدتها، بالفعل لم يكن كأي سحلب سمعت عنه من قبل.. أخذت تمضغ ما تبقى في فمها من أشياء بدت لها طعمها مثل الفستق..

دارت بعينيها في المكتب وتوقفت مرة أخرى عند شعار المدرسة الذي لم تفهم الأم يرمز حتى الآن، من تحته أخذت تحاول قراءة تلك الكلمات..

"من.......... إلى شمس.......................... "

من الواضح أنها شعار متفائل ما يحثّ على فضل العلم الذي هو كفضل الشمس على سائر المخلوقات أو ما شابه... وعلى المكتب وجدت اللافتة الصغيرة باللغة الإنجليزية تحمل اسم السيدة الماثلة أمامها..

- مدام كوشيار..

رفعت السيدة عينيها عن شاشة الكومبيوتر الذي كانت تكتب عليه شيئًا ما وابتسمت مصححة..

- خوشيار.. لديَّ أصول تركية..

- آه.. آسفة.. مدام خوشيار.. لمَ تستخدمون اللاتينية في كتابات كثيرة هنا؟
وأشارت بعينيها إلى القدح. قطَّبت السيدة خوشيار وتصلَّبت أناملها على لوحة المفاتيح..

- هل تعرفين اللاتينية؟

- درستها لكنني نسيتها حتى إنني لا أفهم ما هو مكتوب هنا، لكنني مازلت أميزها..

بدا على وجه السيدة خوشيار بعض من الراحة، وتراجعت بكرسيها لتفتح درجًا جانبيًّا..

- حسنًا يا مدام رنا.. the sooner the better.. كما يقولون.. يمكنك البدء في التدريب غدًا إن أردتِ، لكن اسمحي لي..

وقامت السيدة خوشيار حاملة نصلاً فضيًّا مزدوج الطرفين ولفافة من خيوط الكتان..

- في مدرستنا نأخذ عينة من دم من يعملون معنا للتأكد من خلوّهم من الأمراض المعدية، نفعل الشيء نفسه مع أولياء الأمور والطلبة..

وتقف السيدة خوشيار توجه عينيها اللتين يتراوح لون قزحيتيهما بين الأزرق والرمادي الشفاف إلى عيني رنا البنيتين..

- إجراء مهم، وبسيط.. حتى إنني أقوم به بنفسي..

ومدّت يدها فقط لتدرك رنا أنها لا تستطيع التحكم في أطرافها، فقد طارت يدها لتهبط في كف السيدة دون تفكير..

بعد أن أخذت السيدة عينتها شعرت رنا بأن هناك فجوة ما في ذاكرتها.. كل ما تذكره هو أن السيدة خوشيار لها أصول تركية..

- لن تصدقي المفاجأة التي تنتظرك.. تعالي..

واصطحبت السيدة رنا في ممر آخر قصير، وفتحت بابًا في آخره يطل على حديقة خلفية صغيرة جدًا..

خطت رنا إلى داخل الحديقة، وما إن دارت بعينيها ناحية اليمين حتى انتابها شعور

بالسعادة والدهشة وفقدان الإحساس بالمكان والاتجاهات..

بحسبة صغيرة، هي قد دخلت المدرسة ومشت حوالي عشرة أمتار إلى مدخل مبناها الرئيس، ومشت حوالى ستة أمتار حتى وصلت إلى المكتب ومن المكتب إلى الباب الذي يؤدي إلى الحديقة حوالي ثلاثة أمتار ونصف.. كيف إذن اجتازت ثلاثة شوارع كبيرة في حوالي عشرين مترًا لتجد أمامها منزلها يبادلها في قدم وبؤس النظرات عبر السياج الحديدي للحديقة المهملة التي تتناثر فيها الدفاتر المكرمشة القديمة كرؤوس الكرنب؟!

قيود جديدة..

وقف آسر ثانيًا ركبتيه فوق الأريكة الصغيرة أسفل نافذة حجرة نومه وأمسك الستائر الشفافة البيضاء بيديه، وأخذ ينظر إلى الشارع الكبير شبه الخالي في هذا الوقت..

كان يتذكر الشارع الضيق بالإسكندرية، وأصوات الرجال على المقهى القريب، وزينة رمضان الأبدية الممتدة كأواصر المحبة بين البيوت القديمة.. تذكر سريره والأشرعة البيضاء التي استحالت لونًا أبيض مصفرًا بفعل الغسيل، والصندوق الورقي المقوى الصغير الذي يحتفظ فيه بكراته الملونة ومكعباته..

كان يكره تلك المباني الحديثة الشاهقة من حوله، يكره المدن الجديدة ذات المنازل الصغيرة المشابهة لمنازل الأفلام الأمريكية التي أجبرت سكانها – بشكل ما – على التصرف كأجانب..

عمه أنس كان يسكن في إحدى تلك المدن، منزله واسع قليل الأثاث من طراز رآه كثيرًا في أفلام أجنبية حتى إنه إذا ازداد عدد الأفراد الموجودين به عن ستة، وجدوا مشكلة في إيجاد قطع أثاث قابلة للجلوس..

ابنة عمه هلا لديها صديق حميم، تظهر الازدواجية في تفكير عمه أنس حين

يرى الفتى مع ابنته ويضطر إلى أن يئد النخوة في عروقه كي يتركها تعيش التجربة..

لم يكن آسر يفهم كل هذا، لكن فطرته كانت تشعر بشيء غريب يتسلل إلى مجتمعه الصغير، يشعر باغتراب وكأنه يشاهد من حوله فيلمًا اجنبي من الذي يشاهده مع نهى المربية، ولا يحبه كثيرا..

كان آسر طفلاً وحيدًا مغتربًا في سن مبكرة، يكره أن ينظر من النافذة في أي وقت يتواجد فيه مارة في الشارع، فقد كان يرى تلك الخيوط التي تربطهم إلى اللاشيء وتلك النظرة الواجمة على الأوجه.. كان يذكر أن عدد "المربوطين" لم يكن بهذه الكثرة العام الماضي.. لم يكن حتى بهذه الكثرة الشهر الماضي.. إنهم يتكاثرون بمتوالية هندسية، إلا أن آسر لم يجد الوصف المناسب له في حصيلته اللغوية الصغيرة..

الليلة كان يشعر بشعور مختلف تمامًا.. خطر محدق لكنه لا يعلم مصدره.. بعد ظهر اليوم شعر بشيء صغير رقيق ينزع من روحه، شعر بحزن عميق فأغمض عينيه وفكر في أمه.. يشعر بالمسافة البيضاء التي كان يراها في عقله تمتد بينه وبينها تتسع وتفقد نقاءها.. عندما حاول الاتصال عقليًا بأمه شعر بسد هناك وبثقل يرهق روحه، كان حوائط الحجرة تنطبق عليه، و لم يشعر بوجود رنا.. خرج من حجرته وسار أمام إيناس.. تباطأ أمامها لعلها تسأله عما يريد، لكنها لم تفعل.. كانت شاردة في عالمها الخاص وهي تدخن.. لم يكن يعرف ذلك عنها..

عاد ووقف في نافذته وظل يرمق الطريق.. شعر ببرودة تأتي من خلفه فنظر إلى الوراء ليجد الطفل الغامض يصعد إلى الأريكة ويحاكي جلسته، ينظر بعينين بيضاوين إلى الشارع ثم يمد يده ويمسك بكف آسر..

يشعر آسر بما يريد الطفل قوله.. لقد اقترب الوقت ولسوف يعود لأمه قريبًا، لكن تلك اللمسة لم تطمئنه على أمه.. لم يعرف ما الذي يحدث..
ظل الطفلان يرمقان الشارع حتى غشى آسر النعاس فنام على الأريكة مكانه، بينما نزل الطفل الغامض إلى الأرض ومشى عابرًا الباب المغلق مختفيًا.. مؤقتًا..

******

خرجت رنا من الحمام المليء بالبخار وقد شعرت أنها ولدت من جديد، شعورًا بالطمأنينة غمرها وقد نالت وظيفة لا تحلم بها بمرتب خيالي يتيح لها أن تؤمن حياة وتعليمًا ممتازًا لابنها، فضلاً عن كونه سيظل بجانبها في المدرسة نفسها.
تناولت عشاء مرتجلاً بسيطًا فقد شبعت من السعادة. جلست على السرير ومازال شعرها ملفوفًا بالمنشفة تفوح منه رائحة الشامبو الذي اشترت عبوة منه في طريق عودتها القصير على سبيل الترف والاحتفال..
جلست على السرير وأراحت رأسها على الوسادة وأغمضت عينيها. شعرت بحرارة في مقلتيها وكأنها بوادر التهاب في عينيها، وسرعان ما انتشر هذا الشعور وغلّف رأسها بالكامل فاعتدلت جالسة وأمسكت برأسها، بالفعل كانت درجة حرارتها عالية بشكل واضح، ولكن.. أي حمى تظهر في غضون دقائق هكذا؟
أزالت المنشفة المحيطة بشعرها وجعلت تهرش فروة رأسها، إحساس بالتنميل مع ارتفاع درجة حرارتها بدأ يغزو ما تحت جلدة رأسها.

قامت إلى الحمام الدافئ، وفتحت صنبور المياه الباردة وغسلت وجهها، ثم أحست بالشعور ذاته حول مرفقيها فطفقت تغسلهما، ثم نظرت إلى المرآة المغطاة بالبخار فوق الحوض والذي بدا البخار على سطحها يستحيل ماءً يسيل في خطوط إلى أسفل. بدت لها خيوط بخار الماء المتجمعة على السطح كأنها خيوطٌ شفافة تخرج من رأسها، فقطبت ومسحت المرآة بيدها المبتلة في سرعة وكأنها تطرد خاطرًا سيئًا..

لم يكن انعكاسها في المرآة إلا انعكاسًا لوجهها المذعور، ولا أثر لشيء غير معتاد هناك..

جففت وجهها وشرعت في الخروج من الحمام ووجهها ما زال مدفونًا في المنشفة إلا أنها شعرت بملمس بارد على ساقيها يمتد إلى أعلى فخذيها مع إحساس بشيء خشن حولهما كأنها رمال مبتلة. رفعت المنشفة عن وجهها لتجد الطفل الغامض يقف ملتصقًا بها بل إنها غائصة فيه بشكل ما.
تراجعت في ذعر فهي لم تتوقع رؤيته أو وجوده هنا. لقد تصورت أن وجوده يرتبط فقط بوجود آسر، ولربما ما حدث أخيرًا أثناء وجوده آخر مرة كان كافيًا كي يختفي للأبد..

تراجع الطفل للخلف في هدوء وجلس في ركن الحجرة مبتسمًا وكأنه يتوقع منها استعراضًا ما..

– ماذا تريد؟

لم يرد الطفل لكنه ظل يرمقها جالسًا وذراعاه ملتفتان حول ركبتيه في استمتاع..

تسللت رنا إلى الفراش وعيناها لا تزالان معلّقتين به. جلست هناك وظلت

تبادله النظرات لعشر دقائق، بعدها بدأت تشعر بارتفاع درجة حرارتها مرة أخرى مع شعور حارق حول معصميها وقدميها..

شعور مصاحب آخر هو ما أثار ذعرها أكثر من أي شيء، شعور برغبة قوية في قتل آسر أو الخلاص منه بأي شكل.. أخذت تحكّ جسدها كمدمني الهيروين وتسدد نظرات حائرة مجنونة إلى الطفل الغامض هناك.

مازال الطفل الغامض جالسًا مكانه ينظر إليها في حكمة مَن يعرف ما يحدث جيدًا.. و لم تشعر رنا بنفسها إلا وهي تزحف على يديها وركبتيها نحو الطفل الذي بدا وكأنه يتوهج بلون فضي. مدت يديها إليه قاصدة عنقه إلا أنه رفع كفه في هدوء ووضعه على جبهتها فتجمدت في مكانها.. وفي ذهنها توالت صور لم ترها من قبل..

******

عندما كانت المدرسة تغلق أبوابها ويرحل آخر طالب ومدرس فيها، كانت السيدة خوشيار تتأكد من إطفاء الأنوار وإغلاق الأبواب بنفسها قبل أن تتوجه إلى غرفة في الطابق الأخير من المبنى..

تقترب من الحائط في هدوء فيتبدى باب خشبي عملاق مزخرف، على كل ضلفة من ضلفتيه نصف شكل هرمي منقوش ونصف حصان مجنح مقيد..

ينفتح الباب عن قاعة عملاقة ذات أرضية باللونين الأبيض والأسود مع عامودين رخاميين في صدر القاعة الخالية، بينهما صندوق خشبي ضخم يحيط حافة التقاء الصندوق بغطائه حروف لاتينية نحاسية مزخرفة بشدة.

تقف السيدة خوشيار أمام الصندوق وتخرج الخيوط الكتانية الممتزجة

بقطرات دماء رنا. تضع الخيوط أرضًا فتلوى الخيوط وتنفرد إلى أعلى كأنها حيات دخانية فضية تراقص في الهواء.

تجثو على ركبة واحدة وتقرع الأرضية بضربات منغمة مع ترانيم تطلقها من حنجرتها كأنها أصوات عدة أشخاص مجتمعين..

من الأرضية تتجسد دمية خشبية صغيرة نائمة على ظهرها.. تتسلل الخيوط الدخانية إلى أطرافها ورأسها كأنها ديدان رفيعة شريرة...

تهتز الدمية كأنما هي في نوبة صرعية، ويتصاعد منها دخان خفيف كأنها تحترق.. تندمج الخيوط في الأدخنة وتتصاعد إلى الشكل الهرمي الدخاني المتجلي فوق رأس السيدة خوشيار.. يتحد به الجسد الخشبي الصغير ويضيء..

تتحرك رأسه إلى اليسار ويفتح عينيه البنيتين، ويبتسم..

******

"أنت الآن واحد منا، وصرت مشيئة معلقة بيد المهندس الأعظم"

الآن فقط تذكرت رنا معنى ما كان مكتوبًا على القدح الفخاري.. تذكرت اللاتينية التي اندثرت في عقلها كما اندثرت آلاف المعلومات عبر سنوات عمرها بفعل فاعل..

تذكر رنا الفصول التلقينية التي كانوا يسمونها "تعليم" والتي تعمدوا ملء ذهنها عبر ستة عشر عامًا بهراء بدعوى "التعليم" المزعوم.. لا تسأل.. لا تفكر.. فقط احفظ واحتفظ بكم خرافي من المعلومات السطحية لتسكبها على أوراق الامتحان ويمكنك بعدها نسيانها إلى الأبد..

لن تتذكر رنا أبدًا عدد سكان سيبريا في السبعينات لأن ذلك لم يعنها في شيء طيلة حياتها، ولن تتذكر تفاعل ورقة عباد الشمس مع الأحماض والقلويات لأنها لم تر ذلك التفاعل أبدًا ولا تعلم ما هي ورقة عباد الشمس، كل ما اهتم به المدرسون وقتها هي أن تحفظ وتحفظ حتى يمكنها التباهي بشهادتها المعلقة في الصالون أمام العريس القادم..

تم إلغاء الصف السادس الابتدائي ثم أعادوه.. قسموا الثانوية العامة إلى عامين ثم أعادوها.. تحولت الدراسة إلى ألم مزمن في أسنان أولياء الأمور والطلبة وتدريجيًا تحول الطلبة إلى الدراسة في المنازل عن طريق مدرسين خاصين بعد إلغاء الدراسة بقرار غير رسمي عدة سنوات متوالية لأسباب عدة؛ ابتداء بوباء أنفلونزا الطيور تلتها أنفلونزا الخنازير، مرورًا بثورة يناير، وصولاً إلى حالة عدم الاستقرار الأمني المزمنة..

تذكرت رنا قطيع التلاميذ يغنون النشيد الوطني المصري بلا انتماء حقيقي، بلا فهم لكلمات النشيد التي لم يتكرم أحدهم على الأطفال بشرحها.. ارتبط النشيد الوطني بطابور الصباح وصياح المدرسين، وانتظار ثماني حصص متوالية من العذاب المتواصل دون أي ترفيه.. من الصعب أن يشعر المصري بفخر أو تأثر عند سماع النشيد الوطني بعد كل تلك السنوات من الارتباط الشرطي بين سماع النشيد وعذاب الدراسة.

سقطت رنا أرضًا بعد لمسة الطفل الغامض وفي ذهنها ظهرت فجأة أفكار مختلطة عن مرحلة طفولتها ودراستها، كما طفت على السطح لغتها اللاتينية المفقودة..

Qui nunc nobis suspensa autem artifex maximus erit

"أنت الآن واحد منا، وصرت مشيئة معلقة بيد المهندس الأعظم"

"من يطل النظر إلى شمس المعرفة تحترق روحه"

أي كلام هذا؟ وكيف يكون شعار المدرسة دعوة للجهل؟ وأي مهندس أعظم؟

أمسكت رنا بوجهها وكأنه سيسقط إن لم تفعل، وترنحت الخطوات الثلاث التي تفصلها عن سريرها. جلست هناك وهي تنظر من بين أصابع كفيها إلى الطفل الجالس في ركن الحجرة..

لقد زالت عنها الحرارة فجأة وصار ذهنها صافيًا.. تحاول أن تتذكر ماذا يعني "المهندس الأعظم".. لقد قرأت هذا الاسم في مكان ما..

أسندت رأسها على ظهر السرير مرة أخرى وشرعت تحاول التذكر..
المهندس الأعظم.. الشكل الهرمي..... الماسونية....

تبًا للنظام التعليمي الذي ملأ عقلها عن آخره بالهراء، وما تبقى من فراغ في عقلها لم يعد يسع الثقافة الخاصة والمهارات التحليلية التي لم يتمرن عليها معظم المصريين على مر العديد من الأجيال..

لقد قرأت شيئًا عن الماسونية حتى فاض به عقلها وانسكب منه.. لكن ما علاقة الماسونية بكل هذا؟!

شعرت بالنعاس يتسلل إلى أجفانها ومن بعيد سمعت صوت آسر ينادي...

هُم...

لقد أخبروا السيدة خوشيار بوجود آسر.. دائمًا ما يخبرونها بوجود الأطفال غير الاعتياديين في أي مكان، وعليها الحصول عليهم وتقييدهم بأي ثمن.. لم يكن آسر الأول أو لن يكون الأخير حتى تكتمل مجموعة الدمى البشرية التي يطمحون إليها..

هناك دمى تخدم أغراضًا سياسية وأخرى تخدم أغراضًا استهلاكية أو ثقافية.. هناك دمى لكل ناحية من نواحي الحياة التي يقبضون على زمامها وأوشكوا على امتلاك كل شيء فيها.

لا يعرف أحد أصل نشأتهم، يبحث الباحثون عن أصل جماعة "البنائين الأحرار" ولا يجدون إلا معلومات حديثة جدًا غير عالمين أن لتلك الجمعية آلاف الأسماء المتغيرة عبر الأزمنة، تتغير كلما انكشف أمرها وتوصل الناس إلى كنه أهدافها..

لقد كان الحل الوحيد هو طمس العقول حتى تظل الأسرار أسرارًا، والأهداف قيد التنفيذ..

في أوراق "المحفل الأكبر الوطني للبنائين الأحرار القدماء المقبولين في مصر وفي الأقطار العربية"، إن النشرة الماسونية رقم واحد كانت في سنة ٥٩٥٦

وهي في تقديرهم سنة "النور" وتقع قبل ٤٠ قرنًا من ولادة المسيح عليه السلام.

أما أول جلساتهم السرية في عصر هيرودوس والي القدس للدولة الرومانية، فقد كانت في مكان بالقدس يدعى "الهيكل" في ١٥-٨-٤٣م تحت اسم "كوكب الشرق الأعظم". وكان هدفها مقاومة المسيحية؛ لأنها تبشر بزوال هيكل سليمان، وكان من أبرز ضحايا تلك الفكرة القديس بطرس الذي قُتل على يد نيرون.

أما أول محفل ماسوني علني فكان عام ١٧١٧، ولا يزال على قيد الحياة حتى اليوم منظمة تكشف عن اسمها ونواياها الزائفة تحت أسماء عدة تتغير مع الزمن. فقد أغلق هتلر جميع محافل الشرق الأكبر في ألمانيا لعلمه بعلاقتها باليهودية، إلا أن الماسونية عادت من جديد تحت اسم "نوادي الفرسان الألمان" رغم أنف الجميع..

ومازالت تتلون وتتشكل وتتخفى تحت ستائر الثقافة والأعمال الخيرية باستعارة أسماء براقة مثل: الروتاري التي أنشأها بول هاريس عام ١٩٠٥ ورئاستها في مدينة ليفرستون الأمريكية، ومنها تتشعب الفروع حول العالم. والليونز الذي تأسس في نيويورك عام ١٩٥١ ونُقل إلى واشنطن، ويضم ملوكًا ورؤساء دول من كل العالم. ومنظمة بناي بيرث التي أسست عام ١٨٣٤ وكل أعضائها تقريبًا من النساء اليهوديات. ويقول الماسوني العربي عزيز ميرهم "الماسونية ليست جمعية خيرية، وإنما يقوم البناؤون الأحرار بأعمال خيرية متسعة النطاق مختلفة الأغراض؛ وذلك للتغطية على الأهداف التي تسعى الصهيونية العالمية إلى تحقيقها".

أما مجموعة المدارس التي ترأسها خوشيار فلها الخواص نفسها؛ فهي متغيرة

الأسماء، براقة المظهر، تطمح إلى السيطرة على بداية البشر قبل أن يكبروا ويصبحوا خطرًا على وجود المنظمة ذاتها.

آسر من الأطفال التي تطمح المنظمة إلى ضمهم إليها وتحويلهم إلى سلاح مشهر في وجه البشرية، وإن لم يخضع، سيكون تدميره بدم بارد هو الحل الأسهل والأمثل. لن يتركوا من يضيء الطريق ويوقظ العقول خلفهم ليدمر ما بنوه عبر القرون..

تلقت السيدة خوشيار الأوامر بضم آسر وأمه إليهم، لا يريدون الأم في شيء إلا أن تكون غير ذات تأثير على ابنها؛ حتى تكون لهم كل الهيمنة عليه..
اليوم صارت رنا دمية وفي الغد القريب، سيحصلون على آسر..

قَسَم..

يقف رمزي في ذل وانكسارعلى باب الحجرة المظلمة طالبًا الدخول..
يأتيه الصوت من الداخل..

- بعد قليل يفتح الباب..

يفتح الباب ويدخل رمزي الحجرة المظلمة.. حجرة التأمل.. يأخذ مرشد بيده.. يده باردة قوية لا يرى منه إلا ظلالاً غامضة..

من حوله عظام بشرية متكدسة وتماثيل نحاسية أكثرها لحيّات، وبفعل الظلام يكاد يراها تتحرك..

يجرد المرشد رمزي من أي معادن.. ساعته.. نظارته.. يعود كيوم ولدته أمه، لكنه اليوم يولد هنا.. من رحمهم..

يكشف المرشد عن ذراعه اليمنى وناحية صدره اليسرى وساقه اليمنى..
يأتيه صوت نحاسي فخيم من مكان من أعلى..

- هل ما زلت مصرًا على طلب النور الماسوني؟

- نعم.. مصرّ..

يقولها رغمًا عنه.. إن هو إلا يرغب في الفرار، لكن إرادته سلبت من لحظة أن احترقت روحه بتجارب الحياة كدمية..

يضع المرشد قطعة قماشية سوداء على عينيه، وفي عنقه حبلا، ويخرجه من الغرفة إلى باب الهيكل المغلق..

يطرق المرشد الباب فيسأل من بالداخل عن الطارق..
– طالب فقير في حالة الظلام.. وهو آت ليكتسب النور من هذا المحفل الموقر..

يدخل رمزي فلا يرى شيئًا ويشعر برجلين يقودانه عبر دهاليز معقدة حتى يصل إلى العرش القائم بين عمودين..

يسأله الرئيس المتربع على العرش..

– أنت مقبل على امتحان شديد.. ستقسم بشرفك وذمتك، وتوقع بمداد من دمك.. فهل ما زلت مصرًا.. لك حق الانسحاب قبل القسم..

يومئ رمزي برأسه إيجابًا فيأتونه بكأس، يشرب ما فيها فإذا هو ماء. ويأتونه بكأس أخرى لا يكاد يتذوقها حتى يبصق ما فيها من سائل مرٌ كريه..

– حياة الإنسان معرضة للمرارة أيضًا.. عليك أن تقبل لتكون سعيدًا..

يقوده المرشد إلى منضدة أخرى ويعفر يده اليمنى في التراب ويجلسه راكعًا على ركبته اليسرى.. يمسكون يده ويضعونها على كتاب يشعر بنقوش على سطحه الخارجي.. نقوش ألفها جيدًا طيلة حياته وخصيصًا في شهر رمضان.. الشهر الذي يتذكر فيه أن هناك كتابًا للمسلمين اسمه قرآن..

يحاول أن يرفع يده عن الكتاب في جزع.. لا يريد أن يورط القرآن في شيء كهذا حتى وإن كان هلوسة لكنه لا يستطيع.. يبدو أن الإرادة الحرة وهمٌ

في هذا العالم، وأن إعطاءهم إياه خيار التراجع هو مجرد خيار وهمي كالذي يعطونه للبشر كل يوم..

يجد الكلمات تحتشد على لسانه فلا يدري من أين جاءت..

- أنا رمزي جمال صادق، أقسم بين يدي الله، خالق الكون الأعظم، وأتعهد

بإرادتي واختياري أن أصون وأكتم الأسرار والرموز الماسونية التي تباح لي الآن أو فيما بعد.. ولا أبوح بها لأحد إلا للأخ الصادق والمحفل العادل التام المنتظم بعد الثقة والاختبار أنه أهل للثقة. وأتعهد بألا أكتب هذه الأسرار أو أطبعها أو أحفرها أو أدل عليها بوجه من الوجوه، وأن أمنع - إن استطعت - من يفعل ذلك، سواء بالحرف، أو الوصف، أو الصور؛ حتى لا تكشف أسرار البنائين الأحرار.. وأتعهد بأن أتقيد بشرائع محفل الكون الأكبر وموازينه، وأتعهد بالطاعة لمحفلي هذا.. المستمد من محفل الكون الأكبر الذي أعتبره دومًا محفلي الوالدي. وإنني أقسم على هذا قسمًا صريحًا بدون مواربة أو خداع، وإن حنثت بقسمي هذا أكون مستحقًا ضرب عنقي وشلّ لساني..".

يخلع المرشد العصابة عن عينيه ليجد رجالاً حوله على ضوء المشاعل التي أضيئت يشهرون سيوفهم نحو صدره..

- إن هذه السيوف للدفاع عنك عند الحاجة، وللفتك بك إن خنت عهودك.. والحبل الذي في رقبتك هو لخنقك إن بدرت منك أي خيانة.. قبل لحظات كنت أجنبيًا عن عشيرتنا، أما الآن فقد أصبحت أخًا ماسونيًا، لك ما لجميع الإخوان وعليك ما عليهم..

ويتحول الحبل في رقبة رمزي إلى حبل دخاني يربطه بقسمه إلى الأبد..

قسم صار ينفذ بين البشر رغم كونهم لا يذكرون شيئًا عن أي محفل.. يتردد في

ذهن رمزي وهو يخرج لا يدري إلى أين تقوده هلوساته..

"..... إني أقطع كل الروابط التي تربط بيني وبين أي أحد من البشر كالأم والأب والأخوة والأخوات والأقارب والملوك والرؤساء المحسنين، وكل من حلفت له بالأمانة والطاعة والتزمت له بالشكر.. ".

كانت العين في رأس رمزي تراقب البشر من حوله وتتأكد من كونهم يدخلون في هذا القسم الأخير يومًا بعد يوم.. لا احترام لأي كبير.. لا اعتراف بأي جميل. فقط الفوضى والسباب والرفض هو اسم اللعبة..

******

"إن رجال الدين يحاولون السيطرة على أمور الدنيا، وعلينا ألا نألوا جهدًا للتمسك بحرية العقيدة، وألا نتردد في شن حرب على كافة الأديان؛ لأنها العدو الحقيقي للبشرية، ولأنها السبب في الحروب بين البشر عبر التاريخ".

نشرة ماسونية ١٩٢٣

******

"كل اعتقاد ديني هو ضعف في عقل الإنسان، وإنه لم يبق أحد يؤمن بالله، وخلود النفس إلا البلهاء والحمقى".
عبد الحليم إلياس الخوري

******

"إن الماسونية دين له خطوط واضحة، ولقد تركت الماسونية لأبنائها أديانهم مؤقتًا.. "

جان أبو نعوم

******

أعلن المؤتمر الماسوني الكبير عام ١٨٨٩ في ذكرى الثورة الفرنسية أن أهم مبادئ الماسونية هي تكوين حكومة لا تؤمن بالله، كما تكرر هذا المبدأ في المؤتمر الماسوني العالمي في باريس عام ١٩٠٠ وأقرّوا ضرورة فصل الدين عن السياسة، وتكوين جمهورية لا دينية عالمية..

******

من رسالة وجهها جيوسيبي مازيني رئيس جماعة النورانيين ومعلن الدولة الإيطالية في روما إلى مساعده برايد أينشتاين..

"إننا نكوّن جمعية من الإخوة المنتشرين في كل بقاع الكرة الأرضية. ونحن نرغب في كسر كل الأطواق، لكن ما زال هناك طوق خفي، لا يشعر به أحد بالرغم من أنه يثقل بوزنه علينا.. من أين جاء هذا الطوق؟ وأين هو؟ لا أحد يعرف، أو على الأقل لا أحد يشير إليه بكلمة.. إن هذه الجمعية "سرية" حتى بالنسبة إلينا نحن الخبراء بالجمعيات السرية...".

..أنت الآن منا..

استيقظت رنا صباحًا في السادسة إلا ربعًا وقد دبّ فيها النشاط فجأة على غير عادتها.

جلست في سريرها وقد شعرت أن في عقلها أحداث كثيرة من أحلام ليلة أمس، فحاولت أن تسترجع تلك الأحلام محاطة بشعور عام بأن هناك شيء مهم فيما حلمت به ليلة أمس..

لقد رأت آسر في منامها ككل ليلة إلا أن هناك ما كان يعيق "الاستقبال" في بداية الأمر لكنها تذكر جيدًا أن آسر طمأنها إلى أن ميعاد عودته قد اقترب.. أخبرها ألا تخاف من أي شيء تراه. لم تعلم رنا ما يقصده الطفل لكنها رأت الكثير بالفعل ولن يثير خوفها شيئًا بعد ذلك..

إلا أن ما لفت نظرها حقًا هو ذلك الحلم الغريب عن رمزي.. رمزي في مكان ما.. محفل ماسوني.. مراسم غامضة يمر بها ويبدو كأنه مجبر عليها..

حلم شديد التعقيد، ولا تذكر أنها قرأت عن الماسونية أشياء كالتي رأتها في الحلم.. أشياء تبدو أسرارًا، ومن المنطقي ألا يكتب أحد عنها..

قامت فتوضأت وصلت فشعرت بطمأنينة تغمرها وتفاؤلاً بالحياة، شعرت بالقوة كي تواجه ما انبأها آسر به، فهي تؤمن أن طفلها ليس كأي طفل، وان

هناك من يرشده بشكل ما لا تفهمه..

كانت تشعر بفضول تجاه تلك المدرسة التي هي مقبلة على العمل بها، خائفة الا أن اكثر ما شعرت به هو الفضول ورغبة في معرفة اكثر على ضوء لغتها اللاتينينة المبعوثة إلى الحياة.

تناولت إفطارًا سريعًا مما تبقى من عشائها الذي لم تكمله، وارتدت ما يصلح للارتداء من ملابسها، وعزمت على شراء ملابس جديدة اليوم بما تبقى معها من نقود إيناس، على أن تعيد النقود إلى إيناس مع أول مرتب لها من المدرسة، لكنها شعرت بتقلص بسيط في معدتها حين خطر لها أنه ربما لن تكمل عملها في المدرسة إذا اتضح الأمر ووجدت أن للمدرسة علاقة مباشرة بالماسونية أو بأي تدخلات خارجية.. لن تكون ترسًا في آلة لتحويل الأطفال إلى تابعين أبدًا..

سارت في الشارع إلى أن وصلت إلى البوابة القديمة المهجورة المجاورة لها، لقد فتحتها لها السيدة خوشيار أمس كي تذهب منها إلى منزلها مباشرة لكنها اليوم مغلقة.. تابعت رنا سيرها بمحاذاة السور وهي تنظر خلال قضبانه الحديدية الصدئة.. خطر لها تساؤل عن عدم استغلال المدرسة لذلك الفناء أو حتى تنظيفه، لكن خواطرها قطعت حين شعرت بمن يسير بجانبها، نظرت فوجدت الطفل الغامض يسير مادًا يده الصغيرة إليها كي تمسك بها كأنها أمه ترافقه في أول يوم دراسي له، إلا أن الواقع هو العكس..

مدت يده وأمسكت الهواء الذي يمثل يده فشعرت بذلك الملمس الرملي.. شعرت بعاطفة قوية تجاهه وتمنت لو استطاعت أن تحتضنه، لن تستعيض به عن ابنها حتى ولو كان شبحًا أو كائنًا غامضًا.. شعرت به يقترب منها كي لا تضطر إلى مد يدها بعيدًا في الهواء للإمساك بيده ولفت الأنظار إليها..

شعرت بجسده الصغير يحتاج إلى حنان قد كُبت فيها منذ أن رحل آسر. في ذهنها ظلت صورة سيدة محجبة قصيرة ممتلئة الجسم تمسك بيد الطفل الغامض إلا أنه في تلك الصورة كان طفلاً عاديًا يرتدي نظارة طبية ملونة صغيرة، ويسير متقافزًا بزي مدرسي هو ذات الزي الذي يرتديه الطفل الغامض الآن إلا أنه كان نظيفًا مهندمًا..

وصلت رنا إلى بوابة المدرسة الرئيسية في أقل من ربع ساعة ووقفت أمامها تنظر إلى الشعار الجاثم فوق مدخلها، وتحاول أن تقرأ المكتوب تحته مرة أخرى على ضوء ما تذكرته من اللاتينية إلا أنها فوجئت بشيء عجيب.. لقد اختفت الحروف اللاتينية تمامًا وبدلاً منها وجدت أرقامًا..

عقدت حاجبيها في غير فهم ثم نقلت نظرها إلى الطفل الغامض الذي بادلها النظرات دون تعبير على وجهه.. لقد غيروا الكلمات إذًا أم أنها لا تراها بشكل صحيح؟

استوقفت رجلاً مارًا وسألته عن المكتوب على اللافتة فهز كتفيه في حيرة وأعلن أنها أشياء مكتوبة بالإنجليزية أو الفرنسية. إذن فهي الوحيدة التي ترى الحروف اللاتينية أرقامًا.. هل لهذا صلة بسؤالها عن معنى المكتوب على القدح الفخاري؟ هل تسبب سؤالها في إثارة خوفهم لذا سحروا عينيها بشكل ما حتى لا تقرأ لاتينيتهم مرة أخرى؟

أخرجت وريقة وكتبت فيها الأرقام وهي تحاول الاختباء على الجانب الآخر من الطريق خلف حافلة المدرسة الخالية، وحين انتهت كان قلبها يخفق كقلب طائر الطنان وشعرت بأن شيئًا ما فيها لم يعد كما كان.. شيئًا يتعلق بيقظة عقلها المفاجئة وشيئًا يتعلق بمسؤوليتها تجاه الأطفال على الجانب الآخر من سور المدرسة..

أخذت نفسًا عميقًا ثم عبرت الشارع مرة أخرى ودلفت إلى المدرسة، وفور دخولها شعرت بحرارة في كفها فنظرت إلى الطفل الغامض لتجده استحال إلى اللون الأحمر الشرير وتعالى صوت أنفاسه المكتومة. تركت كفه فتركها دون رد فعل إلا أنه ظل يتبعها..

في الطريق ظلت رنا ترمق الأطفال الصغار في ما قبل سن الحضانة يلهون ويجرون، فيما تحيط الهالات الملونة بهم معبرة عن الحب أو الغضب أو الخوف.. مشهد طبيعي في حياة رنا. إلا أن ما لفت نظرها هو الأطفال في سن الابتدائي.. لم تعد لهم هالات خاصة وإنما تجمدت ملامحهم وأصبحت أقرب إلى الخشب.. وجوه تشبه وجوه الأطفال الذين قابلتهم في حديقة الحيوان..

في جانب الفناء جلست طفلة سمراء جميلة تعرفها رنا جيدًا.. رشا.. الطفلة التي رأتها في منزل رمزي.. كانت الطفلة حزينة تبكي دون دموع مرئية بينما تتصاعد الدموع في هالتها الزرقاء الرمادية إلى أعلى وحول عنقها يلتف خيط دخاني شرير، يحكم الوثاق تارة فترى ملامح الطفلة قد تحولت خشبًا، وتارة يرخي الوثاق فتعود حزينة ذكية كما كانت..

دخلت رنا الرواق المؤدي إلى حجرة المديرة وهي لا تكف عن تفحص وجوه الأطفال حولها في فضول، حتى دخلت الممر وسارت فيه إلى أن وصلت إلى المكتب.

طرقت الباب وفتحته لتجد السيدة خوشيار جالسة خلف المكتب تقرأ شيئًا ما يغطي وجهها، لكن سرعان ما تركته ونظرت إلى رنا في ترحاب وهي تتفحصها..

– أهلاً مدام رنا.. أرجو أن تكوني قد حظيت بنوم جيد ليلة أمس..

ثم فتحت درج مكتبها وأخرجت عصا خشبية ملفوفة بشريط بلاستيكي أسود جميل الشكل وناولتها لرنا..

- أعلم أنكِ ربما لن تحتاجيها، لكنها جزء من هيبة المدرس.. إنها مصنوعة في الأصل للإشارة وليس للضرب..

ترددت رنا في قبولها؛ فهي لن تستوعب قط أهمية العصا للمدرس، يمكنه دومًا أن يشير بيده إلى السبورة فهو لن يقدم النشرة الجوية على أية حال. لطالما مثّلت العصا لرنا أداة تهديد قمعية، ولن تخرج عن كونها كذلك مهما أعطيت لها من مسميات واستخدامات.

- تذكري.. لا تستخدمي العربية في الفصل.. لا بد أن يعتادوا سماع الإنجليزية حتى تصير جزءًا منهم..

تنهدت رنا وأمسكت بالعصا فشعرت وكأن تيارًا كهربيًا قد سرى من العصا إلى كفها وأن العصا قد التصقت بها بشكل ما.. شعرت بقوة وسيطرة لم تشعر بها في حياتها..

تقدمتها السيدة خوشيار إلى الفصل الدراسي الذي هو عبارة عن حديقة صغيرة نصف مسقوفة تطل على الفناء الكبير. في الفصل يجري هنا وهناك الأطفال الصغار.. تراهم رنا لأول مرة بلا أطياف من أي نوع، بل إنها لا تذكر شيئًا عن الأطياف من الأساس.. يقف الطفل الغامض أمامها فلا تراه.. تأمر الأطفال أن يتركوا اللعب الآن وأن يجتمعوا أمامها.. يصطف الأطفال في خوف فتشعر بسيطرة ونشوة لم تشعر بها من قبل.. كل أولئك الأطفال ملك لها.. ملك لهم..

تبتسم السيدة خوشيار وتبتعد عائدة إلى مكتبها في رضا، بينما تلقي عليهم رنا

تحية الصباح باللغة الإنجليزية فيرد عليه الجمع بلغته الوليدة متقطعة الأنفاس في آن واحد، بينما يتأخر الصبي القمحي ذو الشعر الأكرت الصغير فيرد وحده بإنجليزية صحيحة النطق..

تلتفت رنا إليه وتتفقده..

-why didn't you greet me back with your fellows?

ابتسم الطفل وتقدم من رنا رافعًا وجهه الصغير نحوها..

- إنهم لا ينطقون الكلمات بشكل صحيح، وأردت أن أريكِ أنني أجيد النطق بشكل أفضل..

-you're not allowed to talk in Arabic in class..

- لكنني مصري، وما دمت لا تشرحين درسًا ما فيمكننا الحديث بالعربية..

ومن عيني الطفل تبدى ذكاء أثار حفيظة رنا.. تقدمت نحوه وشعرت بيديها تطبقان على خيوطه الهفهافة.. أحكمت قبضتها فترنح الطفل وأمسك برأسه الصغير..

-speak in English. NOW..

وفي استسلام تراجع الطفل وألصق ظهره بالجدار وهمس..

-yes، miss Rana..

وابتسمت رنا في ثقة ومن خلفها الطفل الغامض يحرك رأسه في حنق يمنة ويسرة وكأنه لا يحتمل أن يرى ما يراه الآن.. مرة أخرى في عمره الصغير..

محاولات صغيرة..

كان آسر يجلس وحيدًا كعادته.. أخته لي لي ترفض اللعب معه ولا تنفك تصرخ دون مبرر حتى يختفي من أمامها..

إيناس شاردة أو مشغولة تسدد له نظرات مفاجئة كلما اختلى إلى نفسه، يعلم أنها تحبه لكنها تحبه بحذر، لن تكون مثل أمه أبدًا..

بالأمس حلم بأمه لكنه كان حلمًا مشتتًا.. كان يريد أن يخبرها أنه سيجتمع بها قريبًا كما أخبره الطفل الأزرق، وأن عليها أن تستعد لمهمة صعبة..

رأى في الحلم رمزي بشكل مختلف.. يشعر آسر أن رمزي في مكان ما لكنه ليس بخير.. يحلم به كثيرًا لكنه لا يستطيع الحديث معه..

كانت اللحظات التي يقضيها آسر بين كتبه هي الأفضل في اليوم.. يبحر مع السندباد ويركب الطائرة مع تان تان.. تقرأ له نهى بعض الروايات الكبيرة التي يلح عليها أن تبسطها له كما كانت تفعل أمه إلا أنها لم تَبْدُ مهتمة، فضلاً عن كونها غير قادرة على تبسيط ما لا تفهمه هي من الأساس..

كان يشاهد أفلامًا مثل سلسلة هاري بوتر، ويفهم ما تسمح به قدراته في ملاحقه الترجمة، إنه يقرأ بشكل جيد كما علمته رنا لكنه لا يستطيع القراءة بسرعة، لكنه تأثر كثيرًا بالنغمة البطولية في تلك القصص، الطفل الذي ينقذ

العالم.. لم يفهم بعد رمزية أن ينقذ طفل العالم، قد ينقذ النقاء والبراءة ما لا يقدر على إنقاذه من تلوثوا بأطماع الدنيا وشرورها..

كان يرسم أيضًا ويصنع المجسمات الخشبية الصغيرة، لم يستطع الكفّ عن رسم الأطفال كما يراهم، دمى تشبه دمية بينوكيو التي أثارت ذعره في أول مرة يراها..

أدرك بشكل ما أن ما يراه من خيوط دخانية لا يراه غيره وأمه.. يبدو الناس في التلفاز والصور بلا قيود.. لقد علم آسر أنه مختلف، وأنه غير مسموح له بإعلان هذا الاختلاف.. لن يصدقه أحد إلا أمه..

كان زين مشغولاً معظم الوقت، وحين يتواجد.. يتعامل مع آسر بشيء من التحفظ والوجل، وكان آسر يذكره بشيء لا يحب المرء تذكره، إلا أن آسر قد لاحظ أن زين منزعج بشدة من العداوة غير المبررة بين آسر ولي لي.. يبدو عليه أحيانًا أنه يعرف سببها.. في كثير من الوقت يتبادل آسر وزين نظرات من نوعية - أعلم أنك تراه - متجاهلين الحديث بصوت عالٍ عن الطفل الغامض.

احتضن آسر ركبتيه، وسالت دمعتان حارتان على وجنتيه الحمراوين.. يشتاق إلى أمه بشدة، يتوق إلى أن تضمه إلى صدرها النحيل الحنون وتمسح عنه كل مخاوفه وشجونه.. يتوق إلى أن يلعب معها، أن يصنع لها الشطائر المرتجلة التي تضحكها حتى تنخرط في السعال.. يشعر بضعفها وحاجتها إليه كما يشعر بضعفه وحاجته إليها..

يدق جرس الباب فيفتح باب حجرته ليرى من القادم.. إنها المدرسة التي تأتي لتعليم لي لي مبادئ ما قبل المدرسة رغم أن لي لي قد التحقت بالفعل بإحدى المدارس.. وظيفة بسيطة تقوم بها أي أم، إلا أنهم هنا يستعينون بالكثير

من الأشخاص للقيام بالقليل من الأعمال.. تصرف أصاب بالعدوى حتى محدودي الدخل من الناس.. يرونهم في الأفلام يستأجرون مربية ومدرسة خاصة ومدبرة منزل وعاملة نظافة.. يشعرهم تقليد الأفلام بالبعد عن واقعهم الكئيب وكأنهم يعيشون فيلمهم الخاص..

لاول مرة يرى آسر لي لي وهي تتلقى دروسها.. تسير الطفلة الجميلة في فخر حاملة كراسة ومجموعة ألوان مزدانة بآخر إبداعات ديزني للفتيات، تتسلق كرسي السفرة العالي لتجلس في مواجهة المدرسة الضخمة الجسد القصيرة الشعر في طابع رجولي فج.

تفتح لي لي كتبها بينما تمد المدرسة يدها إلى الخيوط الدخانية الصغيرة التي نمت من جسد أخته الصغيرة مؤخرًا والتي تختلف عن الخيوط الأخرى التي كانت تربطها بالتلفاز.. أمسكت المدرسة الخيوط وجذبتها نحوها فاهتزت هالة لي لي وتحول وجهها إلى الشكل الخشبي الكريه الذي يراه آسر عليها لأول مرة..

دون وعي تقريبًا جرى آسر نحو السيدة والطفلة وقفز على كرسي لي لي وأخذ يمزق الخيوط في جنون فبدا لإيناس والمربية أن الولد قد جن ليحارب الهواء فوق رأس أخته..

أخذت لي لي في الصراخ وهي تمسك رأسها، بينما بدت المدرسة أكثر تعقلاً وهي تبحث لآسر عن خيوط كي تسكته فلم تجد.

حملت إيناس ابنتها وأبعدتها عن آسر، بينما حملت نهى آسر من خصره وهو يركل..

- دعوني أمزق الخيوط.. هذه السيدة تؤذي لي لي.. تريد خنقها..

أمسكت لي لي رأسها وكفت عن الصراخ، ثم أغمضت عينيها وارتخت دون حراك بين يدي أمها..

جزعت إيناس وحملتها إلى أقرب أريكة وشرعت تقرص خديها وتنادي عليها..

- لي لي.. حبيبتي.. لي لي.. أفيقي.. نهى.. اطلبي الطبيب..

ثم التقت عيناها بعيني آسر فأردفت وهي تبعدهما عنه..

- واطلبي زين.. هيا..

تركت نهى آسر وهرعت إلى الهاتف، بينما أخذت المدرّسة تجمع حاجياتها في برود لترحل..

تقدم آسر في خوف من أخته التي فقدت لونها الوردي وأمها الجالسة بجانبها تغرقها دموعها..

- طنط إيناس.. لم أقصد..

- ارحل.. الآن.. لا أريد أن أرى وجهك.. ارحل!

مد آسر كفه الصغيرة ليمسح جبهه لي لي المتعرقة فأمسكتها إيناس بعنف وأبعدتها فكاد آسر أن يسقط..

- ابتعد عنها.. ارحل.. هل أنت أصم؟!

تراجع آسر والدموع تحتشد في مقلتيه.. يتراجع نحو باب حجرته والدموع تسيل لتغرق صدره دون أن يغمض له جفن.. ظل يحدق في أخته وصوت بكاء إيناس يحثه على المزيد من البكاء..

يدخل حجرته وينظر حوله.. يبحث عن رنا.. يهمس "ماما" من بين شفتيه

المتورمتين من البكاء.. يمد كفيه إلى منضدة ألعابه ويسقطهم أرضًا وكأنه يبحث عن أمه فيهم.. تدور الحجرة من حوله وصوته ما زال يهمس "ماما"..

******

كانت رنا تردد بعض الكلمات بالإنجليزية ويرددها خلفها الصغار وهم يحاولون الربط بينها وبين الصور المعروضة على شاشة البروجيكتور..

–W... window..

فيردد خلفها الأطفال بلهجتهم الممطوطة.. تدور رنا بعينيها حتى تصل إلى الطفل الأكرت الشعر الجالس يردد معهم في ذكاء..

–Omar.. tell me a word that begins with the letter "O"..

–mmm.. ocean..

–no.. remember what we've said..

–I can't remember،but ocean begins with "O" too..

قطبت رنا وقد أدركت أن هذا طفل مجادل آخر.. إجابته صحيحة فكلمة ocean تبدأ بحرف ال O إلا أنهم لم يدرسوها بعد في المدرسة.. الإجابة التي تريدها هي orange ولا شيء سواها.. تصبح فيه بالإنجليزية..

– أنت تتحدث كثيرًا.. احفظ ما أمليه عليك فقط.. هذا ما سيأتي منه الامتحان.. لا تشغل عقلك بأشياء خارج الكتاب..

– لكن إجابتي صحيحة.. أستطيع أن....

- اصمت!

وتجذب رنا الخيوط فيصمت الطفل ويتهاوى جالسًا شاردًا..

تفتح رنا فمها لتكمل درسها إلا أنها تسمع صوت آسر واضحًا.. "ماما"..... صوته ضعيف متعب ينطق "ماما" كأنها "بابا".. أنفه مسدود.. إنه يبكي.. تسقط العصا من يدها وتمسك رأسها.. ترفع عينيها لتجد كفيها ممتلئتان بالخيوط الدخانية المرتبطة بالأطفال هناك.. تراهم بعيني رنا القديمة.. تتراجع إلى الحائط وتمسح كفيها في ملابسها.. يتصاعد الهرج بين التلاميذ يتساءلون ما الذي يحدث..

يتقدم الطفل عمر منها وقد زالت قيوده تمامًا كأن لم تكن، يلمس كفها متسائلاً بالعربية..

- هل أنت بخير؟

تمسك رأس الطفل بين كفيها وتنظر إليه، تحتضنه وتبكي.. تدخل السيدة خوشيار في جزع إلى حجرة الدرس وكأنها توقعت سبب الهرج في الفصل..

تنحني وتمسك بالعصا فيسكت الأطفال.. تبعد عمر عن رنا في عنف وتمسك كف رنا وتغرس فيه العصا..

- مدام رنا.. عصاك.. لا تتركيها..

تنظر إليها رنا في وجوم ثم تترك الفصل في خطوات سريعة إلى البوابة الرئيسية.. آسر يبكي كما لم يبكِ من قبل.. سوف تذهب إليه وإن كلفها ذلك آخر قطرة في دمائها..

وقبل أن تصل إلى البوابة الرئيسية كانت السيدة خوشيار قد أمسكت بخيوط

الدمية الخشبية ذات الشعر البني.. تجذب خيوطها كي تستدير عائدة.. تقف رنا فجأة وقد نسيت ما الذي أخرجها من الفصل.. تستدير عائدة كدمية مطيعة.. تلتقط عصاها من فوق المكتب وتقف لتكمل دروسها...

******

حين دخل زين في لهفة إلى شقته كان الطبيب قد فرغ من الكشف على لي لي ووقف يتحدث مع إيناس..

- إيناس ماذا حدث؟ ماذا حدث يا دكتور؟

- الطفلة وقعت تحت ضغط عصبي شديد ومفاجئ.. إنها الآن بخير ولا أنصح بأي أدوية.. فقط تحدثوا إليها وحاولوا أن تخففوا الضغط عنها..

نقد زين الطبيب ماله ثم سأل عما حدث، حكت له إيناس في عصبية ما حدث فوقف يدخن ويفكر..

- وأين آسر؟

- لا أعلم.. ستجده في حجرته حتمًا.. زين.. اسمع.. هذا الطفل مختل ولن أسمح بوجوده بجانب ابنتي وهو على هذه الحالة..

نادى زين على آسر ثلاث مرات فلم يجد إجابة.. فتح باب حجرته ليجد الطفل ساقطًا على الأرض وسط ألعابه وقد فقد الوعي..

ركع زين على الأرض وهو يغالب ألم مفصل فخذه الذي يبدو أنه لن يشفى منه للأبد وأخذ آسر بين ذراعيه..

- آسر.. آسر.. رد عليّ يا بني..

حمله زين دافعًا بجسده الصغير إيناس التي وقف تسدّ الباب وقبضتاها في خصرها..

- أنا لم أفعل له شيئًا.. ما الذي حدث له..

- سأحاول اللحاق بسيارة الطبيب أو الذهاب إلى أي مستشفى.. ابقي هنا مع البنت..

وخرج من الباب تاركًا إيناس واقفة لا تدري بما تشعر.. تراها قد قست عليه أكثر من اللازم؟ إنه طفل مريض وعقله ليس على ما يرام، من الظلم معاقبته على ما لا يتحكم فيه.. لكنه قد آذى ابنتها.. تعرف أنه لم يفعل شيئًا سوى التلويح فوق رأسها، لكن المفاجأة أثارت ذعر الفتاة..

دخلت حجرة لي لي وجلست بجانبها.. لا تزال الطفلة نائمة إلا أن إيناس لا تشعر بأن الأمر تفسيره المفاجأة فقط.. فهذا الطفل يرى أشياء ويتصرف على أساس ذلك.. تلك الأشياء تبدو حقيقية ولها تأثير....

- ما هذا الهراء... ما الذي أفكر فيه؟!

واندست مع ابنتها تحت الأغطية لكنها لم تنم..

******

جلس زين بجانب ابنه في طوارئ إحدى المستشفيات الخاصة بعد أن غادر الطبيب مطمئنًا إياه على صحة الطفل.. ضغط عصبي زائد جعل زين يبدو كمن ارتكب جريمة أمام نظرات الطبيب له وهو يتساءل عن كنه الضغط النفسي الذي يمكن أن يكون قد وقع على كاهل طفل بهذه السن..؟!!

أخذ زين يداعب شعر آسر الغزير الملتصق بالعرق فوق جبينه وهو يفكر في ما حدث كله.. ترى هل تستأهل خلافاته الأزلية مع رنا العبث بصحة ومستقبل طفل بريء كهذا؟ لن تحبه إيناس كما تحب لي لي مهما فعل ومهما فعلت هي، غريزتها ستكون أقوى، ولن تحب امرأة آسر قدر أمه..

استرجع مشاجراته مع رنا.. إهمالها له وكأنه كان طيلة الأعوام الستة التي عاشاها معًا مجرد ذكر نحل مهمته تلقيح الملكة، ثم الموت له من بعد ذلك. لكنه ظل يحمل لها مشاعر ما حتى بعد انفصالهما وهربها بآسر. كان يشفق عليها ويحاول أن يعطيها حياة كريمة حتى وإن لم تعد له كزوجة، لكن علاقتها الآثمة الأخيرة قد أنهت كل شيء.. لم تعد حتى مؤتمنة على حياة آسر، لم تعد تستحقه..

كان آسر يحرك شفتيه ويهمس "ماما" ويبدو كأنه يحدثها.. تمزق قلب زين مع كل كلمة غير واضحة يتفوّه بها آسر في نومه إلى أمه.. ضمه إليه وقد توقفت عبرتان في ركني عينيه.. لم يبكِ زين إلا في أحوال نادرة، لكنه دومًا لا يسمح لدموعه أن تتعدى خط أهدابه..

من خلف عيني آسر المغمضتين، أخذت قزحيتا آسر تتحركان في سرعة كشأن مَن يحلم، إلا أنه لن يستيقظ إلا عندما تزول عنه الصدمة ويبدأ عقله في التأقلم مع الواقع من جديد..

ابيض و أسود..

رآى آسر نفسه لأول مرة في ساحة واسعة ضبابية يكسو أرضيتها رخام بارد بلونين أسود وأبيض كأنه يقف على رقعة شطرنج عملاقة..
في منتصف الساحة – إن كان لشيء بهذا الاتساع منتصف – رآى رمزي.. متدثرًا بغطاء قماشي أسود، جالسًا القرفصاء ورأسه بين ركبتيه.. يبدو له أنه يبكي من اهتزاز كتفيه..

اقترب آسر من رمزي ووضع كفه الصغيرة على ظهره..

– عمي رمزي.. ما بك؟

انتفضت رمزي ورفع عينين حمراوين مندهشتين إلى آسر..

–آسر؟ ما الذي جاء بك هنا؟ هل.. هل أنت بخير؟ أعني.. هل أنت على قيد الحياة يا صغيري؟

– نعم.. أنا فقط نائم.. لكنها المرة الأولى التي أحلم بك فيها بهذا الوضوح.. أين نحن؟

– ليتني أمتلك إجابة ما.. لقد.. لقد أصابني شيء ما يوم أن رأيتني لآخر مرة، لا أذكر ماذا حدث بعد أن ذهبت إلى والدتك في المنزل لأخبرها ب.....

وحكى رمزي كل شيء إلى الطفل الذي لم تفارق عيناه البريئتان وجهه الجزع، كان يبدو متفهمًا بشكل يفوق سنه، كما بدا على علم بما يحكي عنه رمزي...

- من ساعتها وأنا أهلوس.. أرى نفسي طفلاً في المستقبل.. مراهقًا معوجَ السير.. حتى رأيت نفسي أعاهد أناسًا أن أكون منهم وأن أطيعهم.. قسم مشؤوم تورطتُ فيه بالقسم على المصحف الشريف.. كنت مسلوب الإرادة يا بني.. هل تفهمني؟

- أفهمك...

- أريد أن أخبرك شيئا يا بني.. هناك من يسيطر على الناس. هناك من يحوّلهم إلى دمى ويقودهم.. أعتقد أن الأمر بدأ في الانتشار عن طريق مدارس غامضة هنا وهناك.. وعندما تكبر وتترك الدراسة منفتحًا على العالم الأكبر الأوسع، يأخذون منك ميثاقًا لا تذكر عنه شيئًا وتصبح منهم..

- أنا أرى الناس وهم مقيدون.. أراهم يشبهون الدمى الخشبية.. حتى أبي.. وأختي لي لي..

- تراهم؟! أتعني أنك تراهم مثل والدتك؟

- نعم.. وأرى طفلاً صغيرًا أعتقد أنه شبح، يخبرني بأنني الوحيد القادر على قطع خيوط تحكم هؤلاء الناس بالأطفال.. حاولت أن أبدأ بأختي إلا أن ذلك قد أضرها كثيرًا.. لا أعرف كيف أفعل ذلك إذن..

قام رمزي وأمسك وجه آسر بكفيه ومسح على شعره..

- إنهم في غاية القوة يا بني.. كيف يستطيع طفل في سنك أن يفعل ذلك؟ لا تتورط معهم يا بني.. اسمع.. أخبر والدتك أن تهرب بك ولا تدخلك أي

مدرسة.. لعلها تستطيع أن تعلمك بنفسها.. لا تورطا نفسيكما..

– أنا لا أعيش مع أمي الآن.. لكن الطفل صديقي أخبرني أنني سأعود إليها قريبًا..

– آسر.. هل تعرف أين والدتي الآن؟ بل أين جسدي؟

– لا أعرف.. أعدك أنني سأحاول مساعدتك عندما أعود إلى أمي..

– لا.. لا تورط نفسك وأمك..

– هل سأراك في أحلامي مرة أخرى؟

– لا أعلم.. ربما إذا نمت أنت بهذا العمق مرة أخرى..

وابتعدت الصورة في عيني آسر وهو يشعر أن وجوده يتلاشى من الحلم ليتجسد في الحقيقة.. يرى وجه والده يطل عليه من أعلى ويبدو أنه على وشك البكاء.. يشمّ عطر أبيه الممزوج برائحة جسده نفسه.. يفتح فمه ليتكلم إلا أن صوته يخرج ضعيفًا مبحوحًا..

– أبي..

– آسر.. حبيبي.. لا تتعب نفسك.. سوف أحضر لك الطبيب..

– انتظر يا أبي.. أنا بخير.. أبي.. أنا لم أفعل شيئًا لأختي.. أنا أحبها ولا أريد لأحد أن يؤذيها..

– أعلم يا حبيبي.. استرح فقط ولنتحدث لاحقًا..

– أبي.. أريد أن أرى أمي.. أرجوك..

تشاغل زين في هاتفه وكأنه لم يسمع شيئًا.. لم يكن ينتوي أن يجعل رنا تراه

مرة أخرى.. لكل شيء حل، لكن الحلول لديه لم تكن تتضمن أن يتخلى عن ابنه لتلك المرأة..

- أبي...

- نم يا صغيري.. نم..

ويخرج زين من الغرفة ليغلق هذا الحوار إلى الأبد..

******

عادت رنا من المدرسة وقد شعرت أن هناك فجوة كبيرة في ذاكرتها.. لا تذكر تحديدًا ماذا درّست للأطفال، ومتى قرأت المنهج أو ستقرؤه؛ حيث لا شيء في حقيبتها يرتبط بما تُدرّسه..

اعتزمت أن تأكل غداء من أي شيء تجده في السوبر ماركت القريب ثم تنزل مرة أخرى لشراء ملابس جديدة. افترشت السرير وأخرجت طبق الفوم الصغير الذي يحوي بسطرمة وزيتونة وكيس كاتشب على سبيل الزينة، وفتحت كيس الخبز بأسنانها ثم فتحت فمها لتأكل حين رن جرس هاتفها المحمول.. تركت غداءها في غيظ وأخرجت الهاتف من حقيبتها لتسقط الأخيرة أرضًا وتسكب محتوياتها القليلة على الأرض..

- آلو... من؟

- مدام رنا.. أنا إيناس..

ابتلعت رنا ريقها الجاف وهي تحدق في محتويات حقيبتها المتناثرة..

- ماذا حدث؟ هل آسر بخير؟

- آسر بخير، أما ابنتي فلا..

كان صوت إيناس متعبًا عصبيًا متعجلاً مما شتت تركيز رنا تمامًا وبعثر الكلمات على شفتيها كما بُعثرت محتويات حقيبتها..

- ماذا حدث لآسر؟ أعني ماذا حدث لابنتك وما دخل آسر؟

- ابنك هذا معتوه، وقد.. وقد.. لا أعرف ما الذي يفعله، لكنه يثير أعصاب ابنتي تمامًا ويفعل أشياء لا أعرف مغزاها. اليوم كاد يقتلها وهو يلوح بيديه كالمجنون فوق رأسها.. يقول إنه ينقذها!

- ينقذها من ماذا؟ اسمعي.. أنا لا أفهم حرفًا ولا أريد ذلك.. أرسلي لي ابني أو أخبريني أين أنت وسآتي لآخذه..

- لن يرضى زين بهذا الحل.. مدام رنا.. كلميه.. حاولي إقناعه.. إن الولد في حالة نفسية سيئة.. أرجوك..

- أنا التي أرجوكِ.. أرسلي لي طفلي.. ما هو عنوانك.. لن أحدّث أحدًا في الهاتف.. سآتي وآخذه..

سكتت إيناس وقد بدأ عقلها في استيعاب الأمر الجنوني الذي فعلته الآن.. ماذا سيفعل زين إن علم أنها على علاقة ما برنا؟ ماذا سيفعل إن أخذت رنا الطفل رغمًا عنه بسبب تلك المكالمة.. أغلقت إيناس الخط فظلت رنا تنظر إلى الشاشة في عدم فهم.. حاولت الاتصال مرة أخرى إلا أن الهاتف قد تم إغلاقه.. ركلت رنا حقيبتها وظلت تذرع الغرفة جيئة وذهابًا كأسد أسير.. أمسكت الهاتف مرة أخرى وبحثت عن رقم زين.. ترددت في ضغط زر الاتصال.. تركت الهاتف على السرير وجلست بجانبه متكورة على نفسها.. طفلة كبيرة نحيلة منكوشة الشعر تبكي وتتأرجح أمامًا وخلفًا وهي تغمغم..

"آسر.. ابني.. ".. وكأنها تذكّر نفسها بتلك الحقيقة..

فتحت عينيها لترى من خلف دموعها وريقة صغيرة على الأرض من ضمن ما تناثر من محتويات الحقيبة.. قطعت بكاءها فجأة وانحنت لتلتقط الوريقة.. كانت تظنها الوريقة التي تحمل اسم مشروب آسر المفضل، إلا أنها أدركت أنها ليست كذلك حال وصلت أناملها إليها..

فتحتها لتجد مصفوفة من الأرقام مكتوبة بخط يدها.. ماذا تعني..؟ ولم كتبتها من الأساس..

وضعت الوريقة في حقيبتها مرة أخرى وشرعت منحنية تجمع حاجياتها المتناثرة على الأرض، وقد هدّأ هذا الفاصل الصغير من الحيرة من روعها، إلا أنها ظلت تتنفس بعمق كي تمنع مخاط أنفها من السقوط وهي منحنية بهذا الشكل..

حين قامت من ركوعها وجدت الطفل الغامض على السرير متربعًا فوق الطعام، لا يمسه بوجوده الشفاف.. مد يده إليها فلم تدر ماذا يريد..

- ألن تكفّ عن إفزاعي بهذا الحضور الدرامي؟! يمكنك أن تدخل من الباب أو الحائط، لكن لا تظهر هكذا بالله عليك..

وقفت رنا أمامه والحقيبة في يدها..

- ماذا تريد؟ الحقيبة؟

مدّ الطفل يده أكثر خلال الحقيبة وأخرج الوريقة.. تذكرت رنا ما حدث صباحًا بشكل مفاجئ فرفعت حاجبيها وتناولت الوريقة منه في لهفة..

- آه.. اللافتة! لقد تذكرت.. لكن ما معنى تلك الحروف؟!

جلست رنا بجانب الطفل وقد زكمت أنفاسها رائحة الرمال المبللة التي تفوح منه..

- انظر.. ربما.. أين أنت؟!

أخذت رنا تتلفت حولها بحثًا عن الطفل فظنت أنه اختفى كعادته لكنها وجدت يده الصغيرة تنبت من وسط السرير وتشير لها إلى أسفل..

جثت على ركبتيها لتجد الطفل متربعًا تحت السرير أمام صندوق من الورق المقوى تعلوه طبقة سميكة من الغبار..

- ماذا تعني؟ تريدني أن أخرج الصندوق؟!

أخرجت رنا الصندوق وجلست أرضًا بجانبه.. فتحته لتجد الكتب التي اختارت أن تأخذها من شقتها القديمة..

هناك ما يقرب من خمسين كتابًا من أحجام متعددة.. في ركن الصندوق مجموعة مختارة من كتابات دكتور أحمد خالد توفيق ودكتور نبيل فاروق.. تدين للرجلين بمعظم معرفتها بالعالم الخارجي.. روايات د. أحمد خالد مكتظة بمعلومات طبية وجغرافية وأدبية وتاريخية وما ورائية، جعلتها الأخيرة بشكل ما تلك متقبلة لما تمر به من أحداث غريبة.. سلسلة فانتازيا للكاتب ذاته تجعلها تشعر وكأنه يتحدث عنها هي بالذات.. أسلوب لم تجد أقرب منه إلى قلبها حيث كانت تندس مع أحد تلك الكتب الصغيرة تحت غطائها مضيئة كشافًا صغيرًا لتقرأ على ضوئه.. تندمج في عالمه الواسع المثير وتنسى زين والنساء الأخريات.. تنسى شوقها لطفل من دمها ولو مؤقتًا..

ابتسمت وهي تتصفح إحدى روايات د. نبيل فاروق.. أدهم صبري.. نور الدين محمود.. عالم شديد المثالية والصفاء.. أسلوب روائي فريد معقد،

وروايات مكتنزة مشبعة إلى حد التخمة..

أخرجت مجموعة كتب وروايات للدكتور مصطفى محمود.. الرجل الوحيد الذي تظهر صورته في ذهنها عند ذكر لقب "عالم مصري".. تتذكر جيدًا موسيقى برنامج العلم والإيمان.. صوته المبحوح وضحكاته المتقطعة المملول.. نظارته الصفراء.. يذكرها كثيرًا برفعت إسماعيل بطل سلسلة روايات "ما وراء الطبيعة"..

روايات عالمية لديستوفسكي والعقاد.. تشاك بولانيك وباتريك سوزكيند.. كتب لكارل ساجان.. كولن ويلسون.. عبد الوهاب المسيري..
توقفت عند كتب ذلك الأخير حين أشار الطفل الغامض إليها..

د. عبد الوهاب المسيري يتحدث عن الصهاينة واليهودية والمؤامرات في معظم كتبه.. أمسكت في يدها اليمنى بـ"المؤامرة الخفية – دراسة في الحركات اليهودية الهدامة والسرية" وفي اليسرى "الصهيونية والنازية ونهاية التاريخ"..

جلست تقرأ فيهما في عجالة وقد تراءى أمامها ما يريد الطفل قوله.. الحركات السرية..

ارتدت ملابس الخروج على عجل وسارت إلى أقرب إنترنت كافيه..

في الطريق كانت تشعر بدوار وذلك الشعور بالحرارة في أعلى رأسها.. كانت الأفكار تدور في رأسها ثم أصبحت تسير في خط مستقيم بلا عودة.. تذكرت آسر فتوقفت.. يجب أن تعود وتحدث زين.. يجب أن تعرف ماذا حدث للطفل.. ومن رأسها تصاعدت الخيوط ببطء وتحول طيف رنا إلى كائن خشبي غبي.. أخذت تحك شعرها من فوق الحجاب محاولة التذكر.. ما الذي أتى بها هنا.. هناك مكالمة لتجريها لكنها لا تذكر إلى من ولأي سبب.. عادت

رنا بخطوات بطيئة متثاقلة إلى منزلها.. أزاحت الطعام جانبًا واستلقت على السرير ونامت حتى الصباح بلا أحلام..

الدُمى..

كانت دمية رنا تنام الآن كدمية بريئة أمام السيدة خوشيار.. كانت المرأة عصبية.. تشعر بحيرة.. إن هذه الدمية غير مستقرة وتفقد ترابطها برنا كثيرًا.. يحدث ذلك نادرًا في عمرها الطويل لكنه لم يحدث بهذا الشكل من قبل.. هناك شيء غير عادي موشك على الحدوث.. أرسلت لها العين المراقِبة إشارات بأن ابن رنا طفل استثنائي.. لقد استطاع اليوم الاتصال بمن احترقت أرواحهم.. لقد حكى له رمزي عن أشياء ما كان له أن يحكيها.. لقد باح بأسرار أقسم على حمايتها.. لكن الخطر الأكبر يكمن في هذا الطفل.. هناك من يؤجج في نفسه نيران التمرد ويلحّ عليه في إنقاذ البشر.. هناك من يعطيه أسباب إصراره على تدميرهم حتى في هذه السن.

إنهم على دراية بأشياء كثيرة، لكن هناك ما يعوق نظرهم فيما يخص هذا الطفل.. لا بد أن تلقي خوشيار قيودها عليه في أقرب وقت.. ذلك الطفل يمر بظروف مناسبة كي يعود بسببها إلى أمه، الا أن الدمية التي تحرك أمه غير مستقرة.. لا تستطيع المرأة التركيز في شيء فضلاً عن كونها فضولية أكثر من اللازم فلا يستطيعون حل الرباط بينها وبين دميتها الآن حتى تجلب ابنها إليهم، ولا يستطيعون الاستمرار في التحكم فيها، فتنسى مشاكل ابنها ولا تعير لعودته اهتمامًا..

يمكنهم أن يتركوا رنا وشأنها تمامًا كغيرها من النادرين الذين لم يخضعوا لتحكمهم فتركوهم ليدمرهم الآخرون باعتبارهم غريبو الأطوار لا يصحّ الأخذ بكلامهم، لكنهم يريدون ابنها.. هذا ما يضطرهم اضطرارًا إلى المغامرة بتلك الدمية غير المستقرة..

لا يوجد حل آخر سوى التعجيل بإلحاق آسر بالمدرسة، وساعتها يمكن لروح رنا أن تحترق بما عرفته..

******

جلس آسر في طريقه إلى المنزل بجوار أبيه في السيارة المسرعة، الجو بارد والظلام قد حل، إلا أن آسر ما زال مرتديًا ملابسه الخفيفة المنزلية وكان يرتجف رغم أن التدفئة في السيارة تعمل كما يجب..

– خذ ارتدِ سترتي..

ويلف زين سترته حول الجسد الصغير فيرتجف الطفل أكثر.. لم يكن يرتجف من البرد قدر ارتجافه من العودة إلى منزل أبيه.. لقد كانت أعظم أمنياته الآن أن يختفي بين ذراعي أمه وينام كما لم ينم من قبل..

بدأ المطر في الانهمار خفيفًا متفرقًا فأخذ آسر يتأمله وهو ينزلق على زجاج نافذته..

– آسر.. هل تريد إخباري بما حدث أم تفضل أن نتحدث في وقت آخر..؟

– أبي.. أنا لم أفعل شيئًا... أعتقد أنك لن تصدقني إذا حكيت لك الحقيقة..

– جربني..

ابتلع آسر ريقه وصمت.. يعلم أن أباه لن يعلن تصديقه على الملأ أبدًا.. سوف يتهمه بالكذب وتأليف الروايات.. لن يعترف أنه يرى ما يراه آسر..

– أعلم أنك لن تكذب.. سوف أصدقك..

– أبي.. هل تذكر الطفل الأزرق الذي رأيته في منزل أمي.. الذي دفع عني الرصاصة..

اختلت عجلة القيادة في يد زين على الأرض الزلقة لثوان ثم تمالك نفسه وبيد مرتجفة أشعل سيجارة و لم يهتم بكونه يدخن مع الطفل في مكان مغلق..

– أكمل.. أسمعك..

– هذا الطفل يجعلني أرى..........

وحكى آسر لأبيه ما يراه على الناس، كما حكى له عن موهبة أمه أيضًا في رؤية تلك الخيوط..

–.. فقمت كي أقطع الخيوط التي تربط لي لي بالمدرّسة فسقطت وحدث ما حدث..

أريد أن أذهب إلى أمي..

– أمك مخبولة، وهي من جعلتك تتخيل تلك الأشياء..

– لكنك ترى الطفل يا أبي..

– أي طفل؟! أنا لا أرى شيئًا.. يجب أن تندمج معنا يا آسر.. مع أسرتك الجديدة، وحاول أن تتجاهل تلك الخيالات..

و لم يتكلم زين حتى وصلا إلى المنزل.. لا يريد لابنه أن يرى أشياء ما ورائية.. لا

يعرف ما علاج ذلك لكنه لن يسمح له بالحديث عن تلك الرؤى مرة أخرى.. لأول مرة في حياته يدس رأسه في التراب حتى لا يرى تلك الحقيقة، وسرعان ما قرر أن ابتعاد آسر عن رنا سوف يجعل تلك الموهبة تتلاشى تدريجيًا.. حتى وإن لم تتلاشَ، فليتجاهلها إذن مع الزمن ومع عدم اعتراف أحد بها..

كان المطر ينهمر فحمل آسر وغطاه بمعطفه حتى وصلا مدخل البرج الضخم، فوضعه أرضًا وسقط عن آسر المعطف.. كان وجهه الصغير أحمر الخدين والأنف مغطى بالدموع.. لم ير زين آسر يبكي إلا مرات معدودة.. يكاد يصدق أنه لم يره يبكي من قبل..

- آسر.. لِمَ تبكِ الآن؟.. الرجال لا يبكون..

- أريد أن أذهب إلى أمي.. أرجوك يا أبي.. هي لم تفعل شيئًا كي تأخذني منها.. لا أريد أن أعيش هنا.. سوف تكرهني طنط إيناس لما فعلته مع لي لي.. لن تصدق أنني لم أقصد..

ركع زين على ركبتيه وحاول تجاهل ألم مفصله مرة أخرى واحتضن رأس آسر ثم مسح الدموع الساخنة بكفه..

- أنت صغير يا بني كي تعرف أن ما فعلته أمك يستحق أكثر مما فعلته بها.. هي لن تستطيع التفرغ لك.. لن تستطيع حمايتك أو الإنفاق عليك.. أنا أستطيع ذلك.. وإيناس لن تغضب منك وهي تعلم أنك لم تؤذِ لي لي عامدًا.. وأمسك بيده يد آسر واصطحبه إلى المصعد الذي تهادى بهم حتى وصلا إلى باب الشقة.. توارى آسر خلف والده حتى لا يراه من سيفتح الباب..

انفرج الباب عن وجه نهى القلق فألقى زين تحية المساء ودخل ومن خلفه آسر الذي هرول إلى حجرته ووجهه إلى الأرض..

خرجت إيناس من حجرة لي لي وتبعت بنظرها آسر الذي اختفى داخل حجرته..

- هل هو بخير؟

- نعم.. فقط خجِل مما فعله..

- وهل سألته لِمَ فعله من الأساس؟

- إيناس.. إنه طفل، وربما كان يلعب أو يمازحها... اتركيني أرتاح قليلاً كي أقوم بعمل تجهيزات سفري..

- ألا يمكنك تأجيل السفر؟

- إنه أسبوع واحد وقد ظللت أحاول أن أحدد ميعادًا مع هؤلاء العملاء لمدة شهرين.. لن أستطيع التأجيل، وليس هناك شيء كي أؤجل من أجله..

- لي لي مريضة.. وابنك أيضًا.. لن تتركني في وسط كل هذا...

دخل زين حجرة نومه وتمدد على الفراش بملابسه وهو يمسك أعلى أنفه بأصبعيه ويغمض عينيه إرهاقًا..

- وما كل هذا؟! موقف صغير لن يتكرر.. ثم من أخبرك أن تربية الأطفال نزهة؟ كل الأمهات كذلك..

- زين.. لقد أنجبت فتاة واحدة وليس من واجبي أن أعتني بطفل ليس طفلي.. طفل مختل..

جلس زين في عصبية واتسعت عيناه في تحذير جعل إيناس تتراجع حتى ألصقت ظهرها بالباب..

- إيناس.. ابني ليس مختلاً، ولن أسمح لأي شخص بأن ينعته بذلك.. وتذكّري

أني تزوجتك وكنتِ تعلمين أن لديّ زوجة أخرى وطفل.. لم يهبط آسر فوق رأسك من السماء، ومن حقي تمامًا أن أربي طفلي في منزلي.. من حقي أن أربي طفلاي في منزلي.. لا يملك أحد حق الاعتراض..

– هكذا إذن؟

– نعم..

وشرع زين في استبدال ملابسه في عصبية فتركته إيناس وقد اشتعلت غضبًا.. هل يعني أنه سيتركها إذا اعترضت وسيأخذ ابنتها منها لتربيها امرأة ثالثة؟ إن من يقدر على حرمان امرأة من طفلها الذي تبقى لها من متاع الدنيا، بل وإطلاق النار عليها، لقادر على فعل ذلك مرة أخرى وأخرى..

شعرت بتعاطف مع رنا، وتذكرت كيف كانت تبدو.. نحيلة بائسة منكسرة..

حيلة نفسية تمارسها كل النساء هي الاتحاد مع أي امرأة حتى وإن كانت غريمتها ضد أي رجل، وزين قد استحث هذه الحيلة على الظهور بتهديده لأمان إيناس النفسي.. كانت تظنه فوق الجميع، وأن ما حدث مع رنا لن يحدث معها.. كانت تظن أنها امتلكت زين هي وابنتها، وأن مَن سواها – حتى ابنه الآخر – يأتي في المرتبة الثانية..

لأول مرة منذ زواجهما يتغير شعورها نحوه.. لأول مرة يوضع حبها له تحت ضغط كهذا.. جزء متعقل منها يعلم أن زين لن يؤذيها، وأن هناك ما يعكر صفوه، لذا استفزته كلماتها وتفوه بما لا يعنيه حرفيًا.. لكن الجزء الأكبر غير العقلاني كان قد سيطر عليها منذ أن علمت بما حدث بين زين ورنا.. لقد علمت إلى أي مدى قد يكون زين قاسيًا تحت ملامحه الراقية المتحضرة..

أخذت تعبث في خاتمها الماسي وهي نائمة إلى جوار ابنتها.. تتخيل أنها قد حرمت منها.. حرمت منها عن طريق أبيها أو حتى أخيها.. ضمتها بشدة إلى صدرها فزامت الصغيرة ثم أكملت نومها في هدوء..

وحتى غابت إيناس في أعماق الكهف الذي يغيب فيه النائمون، لم ترفع عينيها عن هاتفها المحمول..

******

لم يفارق الطفل الغامض رنا طيلة فترة مكوثها في الفناء صباحًا.. ظل ملتصقًا بها يلمس جسدها بجسده، ولم تتخلَّ الموهبة السوداء عن رنا طيلة هذا الوقت.. كانت جالسة وهي ممسكة بوريقة الأرقام وفي يدها قلم رصاص تخط تحت كل رقم حرفًا..

"٨٤،٨٦،٢،٣٨،٨٥،٦٠،١٥،٦٠،٣٨،٤٠،٤٠،٣٨ ٧٠
٧٠،٣٨،٨٥،٦٠،١٥،٣٨،٣،٨٤ ٨٥،٦٠،١٥،١٢،٨٣،٧٠
٣٨،٤٠،٣٨،٦٠،٧٠"

هي ما كان مكتوبًا باللاتينية

((Truces in solis ardentis eius anima scientia))

صنعت جدولاً واستعاضت عن كل حرف برقم ثم طوت الورقة ودستها في جيب صغير داخل حقيبتها عازمة على استخدام هذا الجدول بعد استكماله لفك شفرة كل ما هو مكتوب داخل المدرسة.. يجب أن تجد قدحًا فخاريًا كالذي شربت فيه حين جاءت للمدرسة لأول مرة كي تجد ما استحالت إليه الحروف من أرقام وتكمل جدولها..

دخلت إلى فصلها وهي شاردة.. تفكر في كنه تلك المدرسة، وتفكر في آسر وهي تتعجب من كونها قد نسيت السؤال عنه بالأمس ونامت..

كانت ترى الأطفال وعلى وجوههم أقنعة الدمى، تتراقص في الهواء خيوطهم الشفافة في انتظار أن تمد يدها وتقبض عليها..

أخرجت هاتفها المحمول وقد خطر لها خاطر ارتجفت له أوصالها.. صوبت كاميرته إليها بعد أن نظرت إلى الطفل الغامض الملتصق بها فلم يعلق.

التقطت الصورة ونظرت فوجدت هناك خيوط مقطوعة متذبذبة تخرج من رأسها إلا أنها قصيرة تحجمها هالة كريستالية كأنها فقاعة تحيط بها..

نظرت إلى الطفل الغامض في ذعر، ثم صوبت كاميرتها إليه، وفي رعب وترقب لم تشعر بهما من قبل.. ضغطت زر حفظ، ثم فتحت الصورة..

لم تكن كأي صورة رأتها من قبل.. كانت ترى طفلاً جميلاً يرتدي نظارة ملونة وعيناه خضراوان زاهيتان ينظر إليها في ذكاء وكبرياء لم تره من قبل.. من حوله هالة كريستالية تمتد إلى خارج إطار الصورة.. تستطيع أن تتخيل أنه يحتويها بتلك الهالة ويقطع خيوطها عمن يتحكمون بها.. إنه يحميها إذن..

خفق قلبها وهي تنظر إلى الصورة.. هذا هو شكل الطفل الغامض الحقيقي.. هو ليس كائنًا إذن.. لقد كان طفلاً جميلاً متوقد الذكاء.. ترى في عينيه نظرة تحدٍ واضحة.. لقد أحبته حقًا وشعرت برغبة عارمة في مساعدته بأي طريقة..

وضعت الهاتف في حقيبتها والتصقت أكثر بالطفل الغامض.. قررت أن تتظاهر بأن كل شيء على ما يرام إلا أنها لا تذكر كيف كانت تتصرف عندما

كانت تحت التحكم..

وقفت قليلاً تنظر إلى الأطفال وتوقف نظرها عند الصغير عمر.. طفل آخر بلا قيود ينتظره مصيرًا مجهولاً على يديها إن لم تفعل شيئًا لإنقاذه...

سمعت رنا صوت الحذاء ذي الكعب العالي المميز للسيدة خوشيار فارتجفت وهي لا تعرف ماذا تفعل.. نظرت إلى الطفل الغامض فوجدته قد اختفى.. لم تركها؟ شعرت بالحرارة تعاودها مع اقتراب وقع قدمي السيدة خوشيار.. شعرت بإرادتها تخبو وهي تمد يدها إلى العصا السوداء على المنضدة أمامها.. قبضت يدها عليها حين دخلت السيدة خوشيار..

مدت رنا يدها الأخرى وقبضت على الخيوط المنبعثة من الأطفال.. ابتسمت السيدة خوشيار ودخلت ثم جلست على كرسي هناك..

- صباح الخير يا مدام رنا.. سوف أجلس بينكم اليوم لأرى أسلوبك في التدريس فأنت في فترة تدريب كما تعلمين..

ابتسمت رنا وشرعت تؤدي دورها المكتوب مسبقًا في براعة.. نسيت كل شيء عن الطفل الغامض بل وطفلها أيضًا، واستمرت في محو عقول الأطفال وقيادتهم كالقطيع، بينما اتسعت ابتسامة السيدة خوشيار في رضا..

لي لي..

كانت إيناس تذرع صالة منزلها المتسعة جيئة وذهابًا وهي تتلمس خاتمها الماسي من وقت لآخر.. لقد سافر زين ولن يعود قبل أسبوع..

آسر يجلس ساهمًا في الشرفة ممسكًا بقطع صلصال ملونة يضغط عليها في عصبية دون أن ينظر إليها.. لي لي ما زالت غير راغبة في التواجد خارج حجرتها.. وقع نظر الطفلة على آسر أثناء ذهابها إلى دورة المياه فصرخت وبللت ملابسها و لم تكفّ عن الصراخ حتى عادت إلى حجرتها..

أمسكت إيناس بهاتفها المحمول وبحثت عن رقم رنا.. هل تتصل بها مرة أخرى؟ لقد توقعت أن تثور رنا وتتصل بها وتلحّ في أن تستعيد ابنها، أما هذا الصمت التام فشيء يثير التساؤل.. تراها مازالت على علاقة بذلك الرجل ((رمزي؟)) وقد قررت أن ابتعاد آسر هو أفضل شيء بالنسبة لكليهما؟ لا يوجد مبرر آخر لتجاهل رنا لمكالمتها حتى إنها لم تسأل عن ابنها مرة أخرى..

تركت إيناس الهاتف وقد شعرت بشعور سيئ حيال نفسها.. تريد الخلاص من صبي صغير وإلقائه لأم لم تعد ترغب فيه؟ لكن.. ابنتها.. إن وجود آسر يضغط على أعصاب الطفلة بشكل لا تعرف تبريره.. هناك شيء غير طبيعي بين الطفلين.. ليست المسألة مسألة غيرة أو شيء من مشاعر الطفولة الأنانية.. هناك شيء غير طبيعي..

دخلت إيناس الشرفة المشرقة وجلست على ركبتيها لتكن في مستوى طول آسر الذي احتضن القضبان الحديدية للمشرفة فبدا كعصفور صغير في قفص.. تنبه آسر لوجودها فانتفض وسقطت قطعة الصلصال من يده إلى الشارع.. أخذ يتابعها بنظره وهي تبتعد عبر الطوابق حتى ارتطمت بالرصيف.. رفع عينيه بحذر نحو إيناس التي حاولت قدر استطاعتها أن تبتسم..

- لا عليك.. يمكنك أن تأخذ قطعة غيرها..

- آسف.. لم......

- لم يحدث شيء.. آسر.. ها.. ألك في قدح من الشيكولاتة الساخنة؟!

تهلل وجه آسر في طفولة افتقدها منذ ترك أمه، واتسعت عيناه..

- نيسكويك؟!

ضحكت إيناس وأمسكت كفيه الصغيرين..

- نيسكويك!

اصطحبت آسر إلى المطبخ وأجلسته على الكرسي هناك وأخرجت علبة اللبن من الثلاجة ووضعت بعضًا منه في إناء على النار..

- لم نتحدث منذ... تعلم.. لست غاضبة منك..

- أنا آسف.. لم أكن أقصد أن أؤذيها.

- إذن.. ماذا كنت تفعل..؟

- كنت......

وصمت آسر محدقًا في الأرضية البنية اللامعة.. لن يخبرها.. لن تصدقه.. إنه

متأكد من أن أباه يرى الطفل الغامض لكنه ينكر ويتهمه بالجنون، فكيف تصدقه من لم ترَ شيئًا؟ شعر باحتياج شديد لأمه.. كانت ستصدقه بعد ما واجها معًا.. كان يحتاج لصديقه الغامض، لم يعد يمكث معه طيلة الوقت كالسابق، و لم يعد يحلم بأمه.. لقد كان وحيدًا.. وحيدًا بشدة..

– كنت ماذا؟

– كنت.. ظننت أن هناك نحلة فوق رأسها فخشيت أن تقرصها.. حاولت أن أبعدها عنها.. فقط..

قطبت إيناس جبينها و لم تشعر بتلقائية تلك الإجابة.. كانت ملفقة.. ((**دعوني أمزق الخيوط.. هذه السيدة تؤذي لي لي.. تريد خنقها..**)).. بشكل ما.... لقد كان كلامه عن خيوط وأذى تريد المدرّسة أن تلحقه بلي لي..

– لكنك تحدثت عن أن المدرّسة تريد خنق لي لي..

– لقد كنت خائفًا وأقول أي شيء..

سمعت إيناس صوت فوران اللبن على الموقد فاستدارت بسرعة ورفعت الإناء.. سألت آسر وهي تتشاغل بتحضير المشروب..

– هل ما زلت تحلم بأمك..؟

– ليس كثيرًا.. لا أعرف عنها شيئًا..

– وصديقك ال.. إحم.. الميت؟!

– لا.. لا يوجد صديق ميت.. كنت ألعب فقط..

التفتت إيناس وحملقت فيه.. كان دامع العينين موشكًا على البكاء وقد تشاغل باللعب بأصبعه في صحن من الدقيق موضوع على المنضدة بجواره..

لم يكن ينظر إليه.. كان يحدق في الأرض..

وضعت إيناس الإناء الساخن على المنضدة الرخامية في عصبية وخطت نحو آسر..

- لمَ تكذب؟ لقد أخبرتك أنني سأصدقك، أنت ترى أشياء.. تتخيل أشياء.. لمَ تنكر؟ يمكننا علاجك..

قفز آسر من فوق الكرسي واتجه إلى مدخل المطبخ..

- أنا لا أكذب.. لا أعرف ماذا أقول كي لا تغضبوا مني..

جرت إيناس خلفه وأمسكته من ذراعه فنظر إليها في ذعر..

- اسمع.. إن كنت تريد أن تعيش هنا فأخبرني بما تراه كي أساعدك.. كفّ عن هذا الغموض.. كفّ عن إثارة ذعر ابنتي.. هل تفهم؟ كنت سأعيدك لأمك لكنها لا تريدك.. لقد اتصلت بها وأخبرتها بما حدث فلم تأبه...

- لا.. لم تفعلي.. أمي تحبني..

- هذا يعني أنك ستظل معنا هنا للأبد.. لا بد.....

- أمي تريدني أن أعود إليها.. ((لمَ لمْ أعُدْ أحلم بها؟ ؟ ؟))

-.. من أن تعالَج.. أريد أن أعيش في هدوء..

- أعيديني لها.. أريد أمي..

خرجت لي لي من حجرتها.. كانت تنظر لهما دون أي تعبير على وجهها.. قطعت المسافة الفاصلة بين حجرتها والصالة - حيث لحقت إيناس بآسر - في هدوء.. كانت آسر ينظر إليها ويحاول أن يغمض عينيه.. لم يكن يريد رؤيتها والخيوط تتصاعد منها بهذا الشكل.. كانت تشبه دمية خشبية متوهجة باللون

الأحمر.. كان تسير وفقًا لشد الخيوط أو انبساطها..

أفلت آسر ذراعه وجرى نحو المطبخ.. كانت لي لي تمد كلتا يديها نحو قدح اللبن الساخن وكان القدح يتحرك نحوها من تلقاء نفسه.. يطير في الهواء بسلاسة حتى يقف فوق رأسها.. تنظر أخته ذات وجه الدمية إلى آسر وتبتسم في خبث.. وينسكب اللبن الساخن فوق رأس لي لي..

******

لم تجد السيدة خوشيار بُدًا من الاستعانة بدمية لي لي.. لي لي تسكن في القاهرة إلا إن جميع الدمى متاحة للسيدة خوشيار.. هناك آلاف من السيدة خوشيار في كل تلك المدارس.. وكل الدمى تحفظ في صندوق واحد تعرف هي طريقة استحضارهم منه..

لاقت السيدة خوشيار عسرًا في التعامل مع دمية رنا.. لقد نسيت المرأة ابنها وقد آن الأوان أن يعود اليها كي تحضره لهم.. لا بد أن تعيده المرأة الأخرى إيناس اليها، إيناس ليس لها دمية.. إيناس تلقت تعليمها في الخارج ويسيطر عليها نظام آخر غير النظام المنوط بالعرب.. اذن فلي لي هي الحل..

سكبت الطفلة اللبن الساخن فوق رأسها و لم يكن معها سوى الطفل مدعي البطولة، آسر.. سوف ترى إيناس إلى أي حد وصل الحقد بآسر على أخته كي يسكب اللبن الساخن عليها.. لن تتركه يعيش معها لحظة أخرى..

ابتسمت السيدة خوشيار في رضا وخرجت من حجرتها الخفية لترمق الأطفال يلعبون، أو لا يلعبون، في فناء المدرسة..

العودة..

لَمَ هذا الانهاك.. لا تذكر فيمَ مرّ اليوم..

قابلت السيدة خوشيار التي هنأتها على كفاءتها ثم مدت يدها في درج مكتبها وأخرجت مجموعة أوراق مالية ملفوفة حول نفسها في أسطوانة..

- خذي يا رنا.. مبلغ بسيط من مرتبك كي تشترى ملابس جديدة.. أرى أن ملابسك... حسنا.. متسعة قليلا.. قديمة..

مدت رنا يدها إلى النقود وشكرتها.. وضعت النقود في حقيبتها وخرجت إلى الشارع..

لحظات مرت عليها وهي واقفة ثم شعرت ببرودة في ساقها اليمنى.. الطفل الغامض قد عاود الالتصاق بها.. لا تذكر ما حدث منذ أن دخلت الفصل وحتى وجدت نفسها أمام البوابة..

- افتقدتك! تعالَ!

سارت رنا حتى وصلت إلى البحر.. عبرت الطريق وسارت بمحاذاة سور الشاطئ.. يتطاير الحجاب من فوق رأسها.. تتذكر سيرها مع آسر..

أخرجت سماعة هاتفها المحمول ودستها في أذنها..

- هكذا يمكنني التحدث إليك دون أن يظنني الناس مجنونة.. !

جلست على مقعد خشبي ذي مظلة أسمنتية.. تأملت الكتابات القديمة من حولها على المظلة..

(يسقط مبارك) ويأتي من "استسهل" من بعده فشطب على كلمة مبارك وكتب بدلاً منها (حكم العسكر)..

(مصر إسلامية) يتصاعد من كلمة إسلامية سهم بخط مختلف لشخص يسخر كاتبًا (ما تروح السعودية)..

تبتسم في حزن وتكتم خواطرها.. تخرج هاتفها المحمول وتشغل كاميرا الفيديو وتصوبها نحو الطفل الغامض.. تراه بصورته الطبيعية يبتسم لها في خجل..

- هكذا أجمل! تعرف.. تذكرني بآسر بالرغم من أنك لا تشبهه.. لكنني أرى نفس الذكاء في عينيك.. آه لو أنك تستطيع الكلام..

فتحت رنا حقيبتها لترى إن كانت قد تناولت الشطائر فوجدتها كما هي..
- أتمنى لو أجد طريقة كي أعرف ما الذي أفعله أثناء اليوم الدراسي.. حتى لم آكل.. لا أعجب إذ أشعر بكل هذا الوهن..

أخرجت الشطائر لتجد رزمة الأوراق المالية الملفوفة حول نفسها.. خمسين دولارًا.. إذن هم يتعاملون بالدولار..

أمسكت العملات وتساءلت عن سر لف الأمريكيين الدولارات حول نفسها بهذا الشكل الأنيق الذي يبقيها مفرودة، بينما نحن نثني النقود ونطبقها ونمسح بها أنوفنا وربما مؤخراتنا كذلك ثم نشكو من كونها اهترأت! لم ترَ بلدًا تعامل الأوراق المالية تلك المعاملة التي تتلقاها في مصر.. ربما لهذا تفر

النقود بلا عودة من سوء المعاملة!

تأملت الدولار وكأنها تراه بعين جديدة.. على الوجه الخلفي للدولار تجد هرمًا، قمته مفصولة ومرسوم بداخلها عين.. ((أين رأيت ذلك الهرم؟؟)) وفي أعلى الشعار مكتوب باللاتينية "annuit coiptis" ومعناها "مهمتنا تكللت بالنجاح.. وفي أسفل الشعار "novus ordo seclorum" ومعناها النظام الاجتماعي الجديد..

طوت رنا الورقة المالية وشعرت بغصة في حلقها.. ما معنى هذا الكلام؟ ولِمَ يكتبونه على الدولارات تحديدًا؟ أهو نوع من السخرية؟ نحمل نقودهم ونَعينهم على إنجاح مهمتهم وتأمين نظامهم الجديد دون أن ندري؟

أمسكت رنا رأسها وأغلقت الكاميرا ونزعت السماعة..

- لقد تعبت.. لا أفهم شيئًا.. ماذا يريدون مني؟! أريد ابني وليحترق العالم بعدها..

بكت رنا ولَمْ تبالِ بالمارة.. بل لم يعد أحد يبالِ بشيء.. يعيشون عصر الحرية كما يجب أن تكون.. يمكنك أن تقتل نفسك في قارعة الطريق ولن يسألك أحد عما تفعل..

- كيف نسيت مكالمة المرأة لي؟! ماذا فعلَت بابني؟!

أمسكت هاتفها في ذعر وإذا به يرن.. إنها إيناس.. ضغطت رنا زر استقبال المكالمات في لهفة وأنفها المسدود يعيق مخارج ألفاظها..

- آلو.. أين ابني.. ماذا حدث له؟

أتاها صوت إيناس من الطرف الآخر مكتومًا مبلل بالدموع..

- تعالي لتأخذي ابنك.. لقد أحرق ابنتي.. اتركي ما تفعلينه وتعالي فورًا وإلا ألقيته في الشارع...

******

لم تحمل رنا ساقيها.. حاولت النهوض لكنها سقطت.. كان الطفل الغامض ينظر إليها بلا تعبير.. تمنت لو استطاعت أن تتوكأ عليها.. مدت له يده فعبرت يدها خلاله..

- آسر.. يا بني.. هل.. هل تستطيع أن تذهب إليه؟ اذهب إليه.. ابقَ معه..

ابتعد الطفل الغامض وأخذت جزيئاته تتفكك وتستحيل رمالاً.. أملت رنا أن يكون هذا معناه أنه قد ذهب لآسر..

أمسكت رنا هاتفها بصعوبة ويدها ترتجف.. وجدت رقم منال وضغطت زر الاتصال.. وضعت السماعة على أذنها وأخذت تتمتم..

- منال.. منال.. ردي.. بالله عليكِ أن تردي.. هيا..

- آلو؟ رنا؟!!!

- منال.. تعالي بسرعة.. أحتاجك..

- ماذا حدث؟ أين أنت؟

وصفت لها رنا مكان جلوسها وبعد ربع ساعة وجدت منال تنزل من سيارة أجرة وتعدو نحوها..

دفنت رنا رأسها في صدر منال وبكتا معًا دون أن تعرف منال سرًّا لهذا البكاء..

- رنا.. ما بك؟ ما الذي جد؟

- آسر.. أريد أن أذهب إلى القاهرة وآخذه.. ستطرده إيناس.. ستلقي به في الشارع..

حكت رنا لمنال ملخصًا للفترة السابقة دون ذكر لأي أحداث غامضة، ثم أمسكت كتفها وأخذت ترمق منال بعينيها الواسعتين..

- لا أستطيع أن أقف على قدميّ.. تعالي معي إلى القاهرة.. الآن..

- رنا.. لا أستطيع الآن.. انتظري حتى غدٍ وسوف أخبر رشدي أنني ذاهبة لأمي.. أما الآن.. أنت تعرفين..

- أعرف.. أستطيع أن أذهب معك إلى رشدي وأطلب مغفرته.. زوجك طيب ولن يتأخر في خدمة كهذه.. سأرجوه أن يأتي معنا..

- حسنًا.. سأحدثه في الهاتف ولنرَ..

قامت منال وتحدثت في الهاتف لفترة طويلة.. كانت تقطب.. تهز رأسها.. تحرك كفيها رافضة.. وأخيرًا تبتسم..

- لقد وافق يا رنا.. وافق.. يمكننا أن نسافر الآن على ألا نتأخر..

ابتسمت رنا في إنهاك واحتضنت منال..

- أشكرك يا صديقتي..

******

كان الظلام قد حل حين وصلت المرأتان إلى مدخل البرج الفاخر الذي

تسكن فيه إيناس.. رفعتا رأسيهما إلى أعلى فبدت البناية كأنها ترتفع لتصطدم بزحل..

- هل يسكن زين هنا؟! يبدو أن أحواله المادية تحسنت..

- هي لم تكن سيئة..

- لم تكن سيئة لكنها تحسنت.. ألا ترين؟! إنها ناطحة سحاب كالتي كنا نشاهد سبايدر مان يتقافز عليها ونحن صغيرات!

- هل ستصعدين معي أم ستكملين؟

- بصراحة؟ لا أنوي أن أفوت ألقاء نظرة على شكل الشقق في بناية كهذه..!

عقدت رنا حاجبيها في عدم فهم فابتسمت منال ووضعت يدها على كتف رنا..

- أمزح يا رنا! لن أتركك في موقف كهذا مع امرأة مجنونة كهذه.. هيا بنا..

أخبرت رنا الأمن بوجهتها فاتصل الحارس بشقة زين ليتأكد من كونهم ينتظرون رنا ثم ابتسم وأشار إلى المصعد..

ركبت رنا ومنال وكفاهما تعتصران إحداهما الأخرى.. كان الشريان في منصف جبهة منال نافرًا وخداها محمران من التوتر..

قرعت رنا الجرس في توتر وسرعان ما انفتح الباب كاشفًا عن وجه إيناس الغاضب مشوش الشعر.. كانت تحاول أن تتمالك نفسها حين وجدت منال مع رنا.. امرأة غريبة هنا..

- تفضلا..

- أين آسر...

خطت رنا إلى الشقة الفاخرة وهي تتساءل و لم يفتها الانبهار الذي رمقت به منال أرجاء الشقة..

- في حجرته.. تفضلي..

جرت رنا إلى الحجرة حيث أشارت إيناس وفتحت الباب.. كان آسر واقفًا وخلفه الطفل الغامض يشير إلى رنا..

- ماما.. لقد أخبرني.. !

وركض آسر ثم قفز إلى حضن أمه المنهك الحنون.. سقطت رنا به وهي تضحك وتبكي.. أخذت تربت على شعره وتحتضنه في نهم.. تقبل كل جزء فيه.. تقبل كفيه ويغمر هو وجهها بقبلاته.. تصاعد صوت البكاء والضحك من الحجرة إلى حيث وقفت إيناس ترمق الأرض ومنال تتفحصها..

- ألم يكن حرامًا أن تتركي أمًا تُعَذّب بعيدًا عن ابنها؟

- لم أكن أريده.. اسأليه.. أبوه هو من تمسك بوجوده هنا..

- لم تكوني تريدينه؟! ألا تخجلين؟ طفل صغير مثله، ما ذنبه في أن يشعر بأن زوجة أبيه لا تريده؟!

رفعت إيناس عينيها المحمرتين في حنق نحو منال..

- ماذا تريدين؟ إذا أخبرتك أنني أريده اتهمتني برغبتي في الاستيلاء عليه، وإن أخبرتك أنني لا أريده اتهمتني بالقسوة.. ماذا تريدون مني؟!

وامسكت يد منال وسحبتها إلى حجرة لي لي.. كانت الطفلة ترقد على السرير والضمادات تغطي وجهها وكتفيها..

- لقد أحرق ابنتي.. صب عليها اللبن المغلي حين أخبرته أنه يحتاج إلى علاج

نفسي.. كنت أحضر له مشروب الشيكولاتة الذي يحبه.. كنت أحاول أن أساعده فشكرني بأن أحرقها..

أشاحت منال بنظرها وانسحبت إلى الخارج. نادت على رنا التي خرجت حاملة حقيبة صغيرة بها ملابس آسر..

– أشكرك على عنايتك به .

– أشكرك على أنك أخذتيه أخيرًا.. ابنك مختلّ يا مدام رنا.. عالجيه..

– ابني ليس مختلاً.. ولن أخبرك ما لا تستحقي معرفته..

– لا أريد أن أراكما هنا مرة أخرى.. لا أريد أيًا منكما في حياتي..

طوّقت منال كتفي رنا بذراعها وسحبتها في اتجاه الباب قبل أن تحتد المناقشة بينهما، وهمست في أذن رنا..

– ابنتها محترقة.. حالتها سيئة، اعذريها...

لم تكن رنا لتريد أكثر مما تشعر به بين كفيها الآن.. شعر آسر والحرارة المتسربة من رأسه إلى أناملها.. لقد عاد الدفء إلى حياتها من جديد..

******

اغلقت إيناس الباب ووقفت خلفه للحظات. اغمضت عينيها واخذت تبحث بداخلها عن شعورا بالارتياح فلم تجد..

ماذا سيفعل زين حين يعود ويعلم بما فعلته.. هل سيطلقها ويأخذ ابنتها منها؟ هرعت إلى الحجرة واحتضنت الطفلة.. لن يأخذها أحد منها.. هل تهرب بها كما فعلت رنا؟ لكنها لن تهرب إلى داخل مصر.. ستهرب إلى الخارج..

أخرجت جواز سفرها وقلبت بين دفتيه.. هل تستطيع أن تهرب فعلاً؟ و لم تترك حياتها وكل شيء خلفها.. لمَ لا تواجهه.. قد يدرك أخيرًا بعد أن تهدأ ثورته إن وجود الطفلين معًا قد سبّب من المشكلات ما دفعها إلى إعادة آسر لأمه..

جلست على طرف الفراش تفكر في هذا الاحتمال.. احتمال واهٍ جدًا مع شخصية زين العنيدة وتهديده لها قبل أن يسافر... احتمالية أن يطلقها ويستعيد طفليه أقوى.. لكنها في الوقت ذاته لا تستطع الخروج خارج مصر لا هي ولا الطفلة دون إذن قانوني من زين.. أخذت تعبث في خاتمها المتلألئ في الضوء الخافت الآتي من الأباجورة المجاورة وأزمعت أن تواجه زين.. ليس له الحق في أخذ طفلتها حتى إن طلقها.. هناك قانون، قانون لم تعلم به رنا أو ربما علمت به لكنها كانت أجبن من الصمود والمواجهة..

وقفت إيناس وواجهت فراش ابنتها، أمسكت هاتفها وطلبت رقم زين..

******

كان الطريق إلى الإسكندرية يختلف تمامًا عن شكله أثناء الذهاب منها إلى القاهرة.. تلصق رنا خدها بخد آسر الأحمر الصغير ويشاهدان الطريق المتلألئ في الظلام.. ما زالت منال تحاول ابتلاع دموعها وقد تشاغلت بالحديث إلى زوجها همسًا كي لا تزعج صديقتها..

كانت تتأمل انعكاس وجهيهما في نافذة الأوتوبيس.. لقد أصبحت رنا أيقونة للأمومة في عقل منال تمامًا كحورس وإيزيس.. كصور العذراء والمسيح.. لكن ترى هل استحقت رنا حرمانها منه بهذه الطريقة.. ؟

ترى منال السعادة في عيني رنا كما لم ترها من قبل، ترى كذلك ذعرًا خفيًا

يكاد يتضخم خلف ملامحها الصغيرة وبهشمها منطلقًا إلى العالم.. تُرى كيف سيكون رد فعل زين؟ إن رنا في حاجة إلى محام جيد.. كفاها هربًا وذعرًا.. لن يستطيع زين أن يأخذه منها ((ما لم يثبت سوء سلوكها.. ما لم تهرب بالطفل بهذا الشكل من الأساس...)).. لا بد أن تعيد رنا التفكير في ذعرها..

– رنا.. معذرة يا صديقتي.. لكني أعتقد أنه لا بد لك من أن تتصلي بزين الآن وتخبريه بما حدث.. انتهزي الفرصة وأخبريه أن إيناس هي من طردت الولد، وأنك لم تجدي سبيلاً إلا أن تأخذيه.. دعيه ينشغل بلومها عنك قليلاً..

أدارت رنا وجهها في ذعر والتصقت بآسر الذي ابتعد عنها محاولاً إخراج شعره الطويل من عينيه..

– لا يا منال.. هل جننتِ؟ سوف يلومها بعد أن يأخذه مني مرة أخرى.. لن أغامر.. سوف أهرب مرة أخرى، وسوف أعمل على ألا أترك خلفي أي أثر..

– تهربين ثانية؟!! ومتى ستجدي مشتريًا لشقتك كي تجدي مكانًا آخر عوضًا عنها؟ وأين ستجدين عملاً آخر؟ سيجدك يا رنا، وإن لم يستطع، فسوف يقاضيك، وسوف يجدون آسر فور التحاقه بأي مدرسة..

صمتت رنا هنيهة وهي تنظر إلى وجه آسر الذي ابتسم محاولاً تخفيف حدة الأوضاع..

– لن ألحقه بمدارس.. لن يجدنا!!

كان صوتها يتعالى وأخذ الركاب من حولهم يختلسون إليها النظرات..

– اخفضي صوتك.. يمكنني أن أرسل رشدي كي يتفاهم معه.. لقد كانوا أصدقاء قبل.. قبل مشاكلكم الأخيرة..

- لقد قلتيها.. كانوا أصدقاء.. لن ينسى زين أن رشدي ساعدني في الفرار..

- إذن.. ما خططك..؟؟

ارجعت رنا رأسها إلى الوراء، وأمسكت جبينها هامسة..

- لا أعلم.. لا أعلم...

صمتت منال وأخذت تقضم أظفارها، بينما التصق آسر برنا ووضع رأسه الصغير مواجهها لعنقها وهمس..

- ماما.. لا تقلقي....

اعتدلت رنا في جلستها لتجد آسر مسندًا رأسه إلى كتفها اليمنى بينما الطفل الغامض غافيًا على كتفها اليسرى.. ابتسمت رغمًا عنها وزفرت..

- كيف لا أقلق عليكما... كيف؟!

❊❊❊❊❊❊

كانت السيدة خوشيار تبتسم في ارتياح بعد أن أُخبرت بآخر التطورات.. لقد عاد آسر لأمه.. وقريبًا جدًا سيكون هنا.. ملتحقًا بالمدرسة وتحت تحكمهم التام..

لكن يجب أن تُعطى رنا بعض الوقت كي ترتب أمورها.. العين المراقبة في عقل الصغيرة لي لي أخبرتها أن إيناس تعتزم إخبار زين الان.. معنى ذلك أن يثور ويعود غدًا.. سوف يستعيد آسر في موعد أقصاه مساء الغد.. لن يترك فرصة لرنا كي تلحقه بالمدرسة ولو لساعة واحدة.. ساعة هي كل ما يطمحون إليه.. حتى مجرد أخذ الدم من الطفل سوف يكون كافيًا للغاية..

إن دمية رنا غير ذات فائدة في معظم الأحوال خارج المدرسة.. معنى هذا

أنها ربما تحتاج بعض الوقت كي تلحق آسر بالمدرسة.. ربما يقودها ذعرها إلى الهرب مرة ثانية، لا يهم أن تهرب طالما ستلحقه بأي مدرسة.. كل المدارس سواء وتؤدي إلى غايتهم بشكل ما.. المهم ألا يزيد ذعرها عن حد عدم إلحاقه بأي مدرسة!

جلست السيدة خوشيار أرضًا وأخرجت دمية لي لي.. سوف تستيقظ لي لي الآن من غفوتها وتشكو من أوجاعها فتترك إيناس الهاتف مؤقتًا.. لن تدعها لي لي تتم مكالمتها حتى تنتهي خوشيار من السيطرة على الطفل.. أما مسألة قرارات رنا فتلك مشكلة أخرى.. كيف ستعرف ما يدور في ذهن رنا؟! هناك دائمًا ما يقطع الاتصال عنها خارج المدرسة..

قامت السيدة خوشيار إلى الصندوق الضخم في صدر القاعة.. طرقت على الحروف المصفوفة على غطائه فالتفت الحروف حول نفسها مصدرة صوت تكات منتظمة ليُفتح الصندوق..

ارتفعت السيدة خوشيار عن الأرض حوالى نصف متر ولامست أطراف أصبع كفيها صانعة شكلاً هرميًا.. ومن أكوام الدمى في الصندوق، تحركت دمية مزيحة من فوقها أكوام الدمى.. تصعد مترنحة ببطء فوق الأجساد الخشبية ثم تسلق حافة الصندوق.. تنظر تجاه السيدة خوشيار وتبتسم.. ترتفع خيوطها متوهجة مشدودة في الهواء.....

أفكار..

كانت مريم وريم تتشاجران حول منضدة السفرة الصغيرة حول احقية كل منهما للدفتر الاخضر الصغير بينما جلست منال متربعة على الاريكة تضع في حجرها كيسا عملاقا من الخبز "الفينو" تذبحه طوليا بسكينها وتحشوه بما تيسر امامها من الجبن واللانشون والزيتون في علبه الملونة..

- لن أخبرك يا رشدي عن الشقة.. ربما تبلغ مساحتها أربعمائة متر.. هناك مطبخ أمريكي كذلك..

- اصمتي يا مريم.. اتركيه لريم..

صمتت مريم وجلست على كرسي السفرة غاضبة.. كانت ريم تحوم حولها في محاولة لإغاظتها بعد أن أبعد رشدي ناظريه عنها..

- إذن ماذا ستفعل رنا؟

- في ماذا؟!

- يا منال.. لقد تشاغلتِ في وصف الشقة والعمارة..

-... برج لو سمحت...

-.. حسنًا.. البرج، وتناسيتِ المشكلة الأكبر.. هل ستهرب رنا مرة أخرى؟

- هي تفكر في ذلك فعلاً، لكنني لا أظنها ستفعلها مرة أخرى.. تعرف؟ المجنونة تفكر في الهرب وعدم إلحاق الولد بمدرسة كي لا يجدهم زين!

توقفت مريم وبدت كتمثال موجه وجهه شطر منال.. لم تكن تتطرف أو تبالي بدفعات ريم لها كي تستأنفا الشجار.. كانت العين في رأس الفتاة ترسل الجملة الأخيرة إلى السيدة خوشيار..

- صديقتك بلهاء ولن أساعدها مرة أخرى.. لقد تركتك تساعديها هذه المرة فقط ولكني ما زلت أمانع أن تعودا صديقتين كالسابق.. لقد انتهى الأمر..

تركت منال كيس الخبز ينزلق من بين ساقيها المفتوحتين ووقفت احتجاجًا..

- رشدي.. لقد أخطأت رنا وقد عادت لرشدها.. لقد دفعت ثمن غلطتها فادحًا.. لربما ظلت تدفع ثمن تلك الهفوة بقية حياتها كامرأة مطارَدة.. لن تشعر بالأمان مرة أخرى..

احيانًا كثيرة ألوم نفسي على تركي إياها كل تلك الفترة.. لقد ظننتها امرأة سيئة بالفعل تعلم ما تفعله جيدًا.. ظننتها ستعيش حياتها طولاً وعرضًا، لكنني حين عدت وجدت روحها ما زالت متشبثة بآسر رغم وحدتها وضيق حالها..

- لقد أخبرتك بما يجول في نفسي.. لقد عاد الولد إليها ولن تحتاجك في شيء بعد الآن.. لا ضرورة للمخاطرة بسمعتك معها..

- مخاطرة بسمعتي؟! لمَ تستمتع بتضخيم الأشياء إلى هذا الحد؟!

صمت رشدي وتشاغل بمشاهدة التلفاز، كانت منال تعلم أن ذلك التصرف يعني النقطة في نهاية السطر.. لن يعاود فتح الموضوع مرة أخرى في المستقبل القريب..

لملمت الشطائر المتساقطة على الأرض ووضعت نصيب رشدي منها في طبق

وضعت الباقي للفتاتين في صمت..

توقفت منال في طريقها إلى المطبخ والتفتت إلى ابنتيها.. كانت ريم تأكل في شراهة منتقية شطائر اللانشون وهي تنظر بجانب عينها لمريم في انتظار أن تنهرها إلا أن مريم كانت تأكل في هدوء ميكانيكي غير مبالية بشيء..

- ريم! كلي كخلق الله.. لا مزيد من شطائر اللانشون.. مريم، مالك؟

- لا شيء يا امي..

- كلي إذن قبل أن تأتي تلك السوسة على الطبق..

لم تكن منال في مزاج رائق للإلحاح على الفتاة كي تعترف بما بها، كانت تفكر في صديقتها وفي رشدي.. كانت تكره أن تفعل شيئًا لا يرضى عنه، لكنها أيضًا لم تكن تبتلع أفكاره المسبقة غير القابلة للنقاش.. دائمًا ما يتعاطف رشدي بشدة ويكره بشدة.. دائمًا ما كان يتبنى وجهات نظر سابقة التجهيز كتلك التي تتهم المطلقات بسوء السمعة وترفض الصفح عن زلاتهن..

اعتزمت ألا تترك رنا إذا احتاجتها على ألا تفرّط في اللقاءات بينهما.. وضع بين بين جعلها تشعر بالراحة وبأنها لا تخدع أحدًا.. كانت تحب تلك الأوضاع التي تتيح لها تصرفين متناقضين في الوقت نفسه.. تسأل ابنتها عما بها ولا تعبأ في الوقت نفسه بالمعرفة.. تطيع زوجها وتخالف أوامره أحيانًا.. لن تبذل جهدًا في إقناعه، الأسهل أن تفعل ما تريد بكميات قليلة..

لم تكن منال الوحيدة بهذه الصفات.. هناك جيل من الأمهات الشابات بهذا الشكل.. لا يثبتن على موقف ولا يجاهدن من أجل وجهه نظر معينة.. يسرن في طريقين في الوقت نفسه، مهددات بالتمزق في أي لحظة..

من تلك الأجيال انحدرت نوعيات من الأطفال من السهل قيادتهم والتلاعب

بإرادتهم.. يتظاهرون بالسير على الحبلين بينما هم يسيرون على أي من الحبلين وفقًا لإرادة مسيطرة عليا..

غفت منال وهي جالسة على سريرها من الإرهاق وبجانبها تسللت مريم.. وقفت بجانبها متصلبة بينما العين الخفية في رأسها تمسح ذكريات منال وتخزنها وترسلها إلى من يهمهم الأمر..

******

احتضنت رنا آسر لمدة تزيد على الساعتين دون أن تتحرك.. أطفأت الأنوار وتربعت على السرير ودفنت وجهه الصغير في صدرها وأخذت تبكي.. تبكي وتدخل الدموع في فمها المبتسم.. تتشمم عبق شعره عبر أنفها المسدود، تشعر به في رأتيها فتترك نفسها بلا زفير أطول وقت ممكن.. تحبس عطره في داخلها لتشبع به خلاياها بعد جوعٍ طال..

تمنى لو استطاعت أن تعيده إلى رحمها مرة أخرى.. هناك سيكون في أمان أكثر، ولن يفرقهما إلا الموت..

تمسك وجهه بين كفيها وتغمرة بالقبلات.. يبتل وجهه بدموعها.. يبدو كوجه ملاك صغير في لوحة كلاسيكية قديمة..

– ماما.. كفى.. لا تبكي..

– أخاف أن أُحرم منك ثانية...

– سأكون معكِ دومًا.. ألم أكن معك منذ أن أخذني أبي؟

– لا أريدك في أحلامي.. أريدك أنت، طفلي من لحمي ودمي وليس مجرد حلم..

- لم يكن حلمًا.. كان يبدو وكأنني أراكِ فعلاً.. كأنني أتحدث إليك في الهاتف مثلاً..

التفت آسر ونظر إلى قدم رنا المشوهة..

- كنت أعلم أن قدمك تؤلمك.. كنت أعلم حين نفدت نقودك.. ألم يكن ذلك صحيحًا.. ؟

أغمضت رنا عينيها وخبأت وجهه في صدرها مرة أخرى..

- صحيح يا حبيبي.. ولكم كنت أتمنى أن تكون العلاقة بيننا مثل باقي البشر.. أشعر بالذعر كلما تذكرت ما تملكه من قدرات غريبة.. أشعر بالخطر عليك منها..

- ماما.. تعلمين أنني قد حلمت مرة بعمي رمزي؟!

- رمزي؟! أين هو الآن؟ وهل كان ذلك حلمًا عاديًا أم حلمًا كالذي تراني فيه؟

ابتعد آسر عن رنا في رفق ووقف على السرير وطفق يحكي عن الحلم.. كانت كلماته الصغيرة معبرة بشكل مثالي عن كل كلمة حكاها له رمزي..

- الآن أرى الأمر بوضوح...

احتضنت رنا آسر وأجلسته على ساقها وشردت بنظرها خارج النافذة بينما تنساب خصلات شعره بين أصابعها العابثة...

- إذا استطعنا تجميع الخيوط، في اليوم الذي طلبت فيه من رمزي أن يسأل عن المدرسة المجاورة وما إذا كانت صالحة لأن ألحقك بها، ذهب بالفعل إلى هناك.. لا أعلم إن كان قد وجد البوابة الأخرى أم لا، لكنه قد ذهب هناك..

عرف شيئًا ما جعله يصاب بالهيستريا التي رأيته عليها.. سقط الهاتف منه.. هكذا وجدته السيدة خوشيار.. عاد ليحكي لي ما رآه إلا أنَّ قدوم زين قد أفسد كل شيء..

صمتت قليلاً وكأنها تتذكر ذلك اليوم.. قامت وهي ما زالت تحمل آسر وأخذت تجول في الحجرة..

– لقد فقد رمزي الوعي، كان مفتوح العينين ساقطًا جوار أمه إلا أنه كان يهلوس، لم يكن يدرك فعلاً ما يقوله و....

تذكرت رنا شعارًا حفظته جيدًا بقدر ما تحفظ اسمها..

– من يطل النظر إلى شمس المعرفة تحترق روحه! لقد أخبرتني أن رمزي حكى لك عن شيء بهذا المعنى... إذن فرمزي قد جُنَّ أو ما شابه.. هذا إن لم يكن قد... مات..

انقبض قلبها.. مات؟ أتراها هي السبب المباشر في موته إن كان قد مات فعلاً..

– لا أظنه مات يا أمي... لقد وعدته أن أبحث عنه..

– هذا صحيح.. سنجد طريقه للوصول إليه لكن أولاً يجب علينا حلّ ما تراكم فوق حياتنا من ألغاز..

أنزلت رنا آسر وقد آلمها ظهرها الضعيف من وزنه، فسار الطفل إلى حيث صندوق ألعابه القديم..

– هل يوجد رابط بين ما حدث لرمزي وبين إصرار المرأة على أن أعمل لديها؟ بل إصرارها على أن ألحقك بالمدرسة؟ وما علاقة كل هذا بالطفل الغامض؟

أخرج آسر من الصندوق المجسمات التي صنعها وأعطتها إيناس لرنا مع النقود..

- هل تظن أن الطفل الغامض كان طالبًا في تلك المدرسة ومات بشكل ما هناك؟ قرأت أن الموت بشكل عنيف يولّد طاقة تبدو كشبح.. لكن الطفل ليس شبحًا بالمعنى المتعارف عليه.. لديه قدرات خارقة.. هاهاها.. مَنْ أنا كي أزعم أنني أعرف كل شيء عن الأشباح!

مد آسر يده إلى أمه بالأشكال الهرمية المجسمة التي كان يصنعها..

- هل تعرفين يا أمي ما معنى تلك الأشكال؟ لا أستطيع التوقف عن صنعها..

أمسكت رنا بالمجسم الذي يبدو كهرم.. بدا لها مألوفًا إلى حد كبير..

- يبدو أن الحياة قد امتلأت بالأهرامات مؤخرًا! أرى هذا الشكل في شعار المدرسة.. على ظهر الدولار.. في مجسماتك.. بل وقد لمحته وقد حفر في وسطه نقش لعين في الحلم الذي رأيت فيه رمزي.. إنه مرسوم أيضًا على ثياب الطفل الغامض!

- ماذا سنفعل الآن؟

جلست رنا أرضًا وأمسكت بكلتا كفي آسر وهمست..

- فلنرتب أفكارنا.. أريد أن أعرف كل شيء عن تلك المنظمات السرية.. عندي بعض الكتب هنا، يمكنني السهر على قراءتها حتى الصباح.. بعدها نستطيع أن نبحث على شبكة الإنترنت عن المزيد..

- وسنبحث عن عمي رمزي؟

- سنبحث عنه، لكن دعنا في ما يهم أولاً.. يبدو أن حالته قد استقرت بشكل ما وليس هناك من خطر آخر محدق به كي نستعجل البحث عنه، الخطر يحيط بنا نحن.. نحن لا نعرف بعد مدى سيطرتهم علي.. الطفل الغامض يحميني بشكل متقطع، ألاحظ أن حمايته لي تقل في المدرسة لكنها تتلاشى تمامًا في الفصل وخاصة مع وجود السيدة خوشيار..

- خوشيار؟

- نعم. اسمها غريب حقًّا..

صنعت رنا كوب من الشيكولاتة باللبن لآسر الذي ما إن شربه حتى ترنح ونام محنيًا وجهه في صدر رنا.. شعرت رنا برضا عن العالم لم تشعر به من قبل، وتمنت لو يتوقف الزمن عند تلك اللحظة فلا تضطر إلى فراقه أبدًا..

ضمته جيدًا وأخرجت أحد الكتب المتراصة بجانبها وشرعت تقرأ فيه حتى غشاها النوم في الساعات الأولى من الصباح..

طفلة صغيرة..

لم تكف مريم عن القيء والتوجع منذ أن استيقظت في ذلك الصباح، الأمر الذي جعل منال تؤجل ذهابها إلى المدرسة اليوم..

دثرت منال ابنتها وأخذت تدسّ في فمها الأقراص المضادة لكل أنواع الأمراض ثم جلست بجانبها في ذعر تنتظر النتيجة.. كانت تؤمن بنظرية الضرب العشوائي للأدوية.. حاصِر المرض بكافة أنواع الأدوية لعل أحدها يصيب ويشفيه! لم تكن تؤمن بالتفاعلات القاتلة للأدوية، إلا أن ستر الله قد حفظ أبناءها من عشوائيتها إلى الآن..

لم تكن الفتاة مريضة حقًّا، إن رنا لم تذهب إلى المدرسة اليوم، ولم تجد السيدة خوشيار بدًا من أن تشعر الفتاة بالمرض كي تمكث في المنزل وترسل إليها الأخبار عن طريق أمها..

كانت الساعة الثانية عشرة ظهرا حين قدرت منال أن هذا هو وقت الفسحة في المدارس، وقررت تجربة حظها في السؤال عن رنا، لا تظنها ستذهب إلى أي مكان اليوم وتترك طفلها.. تحتاج إلى عام على الأقل من دس الطفل في صدرها حتى تستطيع بعده أن تفكر في إمكانية تركه يتنفس!

رن الهاتف بضع مرات ثم سمعت صوت رنا المتهدج يجيبها من الطرف الآخر..

- أهلاً يا رنا... ماذا بك؟ صوتك متغير..

- أنا بخير.. فقط كنت.. مشغولة...

- ألن تذهبي إلى العمل؟ لقد توقعت هذا!

- منال.. هل يمكنك أن تقابليني؟

- ماذا حدث؟ إن مريم مريضة..

- حسنًا.. أنا في طريقي إليك..

- لا انتظري.. ا.. ا.. يمكنني أن أمرّ عليكِ غدًا حين تتحسن مريم..

- لا أظن أنني أستطيع الانتظار إلى غد..

- ماذا حدث إذن، طمئنيني؟؟

كانت مريم تنظر مفتوحة العينين عن آخرهما إلى منال، تستمع إلى كل كلمة تقولها رنا عبر الخط عن طريق ذلك الخيط الرمادي الذي يربط أذنها بالسماعة.. كانت تعمل كجهاز إرسال واستقبال آني..

شرعت رنا تحكي لمنال ما عرفته عن ارتباط المدرسة التي تعمل بها بمؤسسة ماسونية ما تتحكم من خلالها بعقول الأطفال.. لن تخض رنا في أمور خوارقية فقد أرادت فقط أن تشارك حيرتها شخص ما..

- حسنًا يا رنا.. يمكنني أن أمر عليك بعد أن يعود رشدي من العمل كي يمكث مع مريم..

- حسنا.. لا تتأخري..

أغلقت منال الخط وقد قررت أن تكذب كذبة بيضاء أخرى على رشدي، ستخبره أنها ذاهبة لشراء شيء ما، لن تغامر بأن تدع رنا تأتي ثم تفاجأ بعودة

رشدي مبكرًا.. لا تريد لها الإحراج..

تظاهرت مريم بأنها لم تكن تتنصت عليها وتساءلت في وهن..

– أمي.. هل ستذهبين حقًا إلى طنط رنا؟ أريد أن آتي معك.. لقد أوحشني آسر..

– لكنك ما زلت متعبة يا صغيرتي.. سآخذك إليها يومًا آخر..

– لا.. أشعر بتحسن شديد.. انظري..

وقامت الفتاة وذهبت إلى المطبخ، وأخرجت طبق الجبن من الثلاجة وأخذت تأكل منه بأصابعها في لهفة..

– انظري.. لا تؤلمني معدتي.. لا أريد أن أقيء!

تناولت منال الطبق من مريم ووضعته في الثلاجة مرة أخرى..

–هل جننت؟ معنى أنك قد تحسنتِ هو أنك لم تشفي تمامًا.. لا تختبري معدتك بهذه الطريقة..

– هل يمكنني أن آتي معك إذن؟!

– لا...

استحال وجه الفتاة خشبيًا كالحًا وامتدت من أطراف أصابعها خيوط دخانية كثيفة موجهة إلى ظهر منال التي كانت في طريقها إلى الحجرة..

تسمّرت منال في مكانها للحظات ثم التفتت إلى مريم الصغيرة وهمست دون تعبير على وجهها..

– اذهبي وحضّري ملابسك التي سترتدينها عندما نذهب إلى رنا..

ودون كلمة أخرى خرجت منال لا تذكر إلا أن أدويتها العشوائية قد آتت أكلها وأنها تستطيع اصطحاب مريم معها.. مريم كتومة للغاية ولن تخبر أباها شيئًا، لقد جربتها من قبل حين كانت تأتي معها لإطعام رنا حين كانت مريضة ولم تتفوه بشيء عن تلك الرحلات لأبيها أو لأي شخص..

أخرجت منال ملابسها واخذت تكويها وهي تتساءل عن معنى ذلك التشتت في الأفكار الذي يصيبها كثيرًا مؤخرًا، إلا أن تشتت الأفكار قد جعلها تندمج في الكواء ونسيت تمامًا كل شيء عن تساؤلاتها...

******

طفلة أخرى كانت تثير حيرة أمها، لم تكف لي لي عن الشكوى والتشبث بأمها طيلة الليل حتى أنهكت إيناس تمامًا فنامت حيث جلست بلا حراك حتى الثانية ظهرًا..

استيقظت فزعة وهي تشعر بأن هناك كارثة ما قد وقعت أثناء نومها.. التفتت إلى لي لي فوجدتها نائمة كما هي وبقايا إفطار بسيط على الكومود بجانبها..

فركت إيناس عينيها وتمطت، شعرت بجوع شديد إلا أنها لم ترغب في الطعام.. خرجت مترنحة إلى الصالة لتجد نهى جالسة تشاهد التلفاز..

– مدام إيناس.. صباح الخير.. حاولت أن أوقظك إلا أنك كنت في سابع نومة.. جلبت الفطور الذي حضّرته الحاجة رشيدة إلى لي لي وجلست معها إلى أن انتهت من....

– حسنًا يا نهى... شكرًا...

واصلت سيرها حتى ماكينة القهوة، وضعت فلتر القهوة الأمريكية تبعته بالقهوة ذاتها وضغطت زر التشغيل..

سرعان ما تصاعدت رائحة القهوة المركزة الغنية فبدأت خلايا مخ إيناس في العمل تدريجيًا..

لا بد أن تتصل بزين الآن... تُرى هل اتصل هو؟ كانت نهى ستخبرها.. عليها أن تبادر بإخباره أولاً..

رشفت من القهوة ثم أخذت الفنجان العملاق إلى الشرفة، طلبت رقم زين وانتظرت صوته وقلبها يرتجف في قفصها الصدري كعصفور يحاول الفرار..

- ألو.. كيف حالك يا إيناس.. لقد كنت سأطلبك حالاً..

((صوته يشي بالسعادة... هل أهدم سعادته؟؟))

- كيف حالك أنت يا زين.. يبدو صوتك سعيدًا...

- لقد كتبنا العقود لتوّنا، ورأيت أن أتصل بك لأسمع صوتك على سبيل الاحتفال.. ماذا تريدين كهدية لهذا الخبر السعيد؟

((هذه الرومانسية تقتلني.. لن أستطع إخباره..))

- أريد سلامتك يا عزيزي..

- سأشترى لك شيئًا على ذوقي إذن.. سأشترى للي لي ذلك ال.......

((.. لا تخبرني بما ستشتريه لآسر.. لا تخبرني...))

-... الجاكيت ذو الفراء الذي طالما حلمت به ستبدو فيه كأميرة! أما آسر فلربما أجرب معه ال....

- زين...

- الطاقم الذي يمكنك به صنع أشكال هـ....

- زين... كفى.. !

- ماذا؟

- لقد رحل آسر إلى الإسكندرية مع أمه بعد أن حاول أن يحرق أخته باللبن المغلي..

- ثانية واحدة.. تقولين أين ذهب؟!

- ذهب إلى الجحيم! أخبرك أن ابنتك احترقت وأنت لا تهتم إلا بابنك؟!
كانت تشعر بأعصابها تفلت منها.. تسارع الكلمات منطلقة من فمها بلا توقف.. بلا تفكير.. تحرق القهوة معدتها الخاوية فيزيد الإحساس بالحموضة الزائدة من عصبيتها..

أخذت تعبث في درج المنضدة عن سجائرها، أخرجت واحدة بيد مرتجفة وتركت العلبة تسقط أرضًا..

- من الذي أعطاه لرنا؟ من الذي أخبرها بما فعله الولد؟ أجيبي..
تعالى صوت زين حتى لم يعد ثمة داعٍ لهاتف كي تسمع صوته.. أوقدت السيجارة بقدّاحتها وسحبت نفسًا عميقًا..

- ما هذا الصوت؟ تدخنين ثانية؟! أجيبيني واتركي ما في يدك.. الآن.. !

- زين.. أنا اتصلت بها وأعطيتها الولد.. ابنك يحتاج إلى علاج نفسي وأنت لا تهتم.. لا تعترف حتى بخطورة تصرفاته..

- أنا الذي يقرر مصير ابني.. سآتي على أول طائرة.. واعلمي أن هذا الموقف

لن يمر على خير..

- زين.. أنا....

أغلق زين الهاتف فتنهدت وشرعت تمتص الدخان في نهم.. فليفعل زين ما يستطيع فعله.. لن يستطع إجبارها على شيء ولن يستطع إلحاق أي ضرر بها..

((لقد أطلق الرصاص على رنا من قبل...)).. أقصى ما سيفعله هو... تطليقها؟ ليكن.. يومها لن تندم على تجربتها، وستعلم أنه لا يستحق الحياة معها..

امرت نهى بأن تعتني بلي لي ثم دخلت غرفتها وأغلقت الباب.. ستحبس غضبها وتوترها إلى أن تتضح الصورة أكثر..

قصة رجلان..

كانت رنا تسترجع ما قرأته على شبكة الإنترنت.. تسترجع قصة رجلين بعينهما...

في عام ١٧٧٦ أسس آدم وايزهاوبت - رجل الدين الذي ألحد - محفلاً باسم "محفل الشرق الأكبر" بناء على طلب اليهود، وهو محفل يضم جماعة النورانيين، وأصبح هذا المحفل صاحب أقوى سلطة على باقي محافل العالم. نادى وايزهاوبت بتأليف حكومة عالمية تضم عباقرة ورجال فكر من كل أنحاء العالم، وقد انخدع بهذه الفكرة أكثر من الألفين من الرجال السياسيين والعلماء والحكام.

أما النوايا الحقيقية لهذه الجماعة فظهرت في التوجيهات التي يسير عليها الأعضاء ومن أهمها ضرورة الإيمان بالأممية العالمية لتجنب الحروب البشرية؛ أي إلغاء الأديان والجنسيات حتى لا تقوم حروب بين البشر، كما أطلق على البشر دونهم لفظة "جويم" وهي لفظة يهودية تعني "القطعان البشرية" التي لا تفهم ما هو صالح لها نفسيًا وجسديًا وعقليًا، فوجد أن تحويلهم إلى دمى متشابهة ممسوخة في أيديهم هي الطريقة الوحيدة لحمايتهم من شر أنفسهم! كان يجمع الأناس الأكثر تميزًا من كل أنحاء العالم لتلقي تدريب خاص، وحين ينتهي هؤلاء الطلبة من تلقي تدريباتهم في مدارس خاصة لذلك

أشهرها في مدينة سالم الألمانية، يعودون إلى بلادهم؛ ليتقلدوا أعلى المناصب ويبدؤوا في تنفيذ مخططاتهم.. لقد أصبحوا دمى تلهو بدمى، ويظنون أنهم المسيطرون..!!

أما الرجل الثاني فهو الجنرال الأمريكي ألبرت بايك فهو المخطط لما نحن فيه الآن، فقد وضع خطة لحروب عالمية ثلاث؛ الأولى هدفها إسقاط القيصرية في روسيا وجعلها معقلاً للشيوعية، والثانية هدفها هو ازدياد سلطة الصهيونية السياسية حتى يمكن إقامة دولة إسرائيل في فلسطين، وكذلك دعم الشيوعية لتصبح قوة تعادل العالم المسيحي.

أما الحرب العالمية الثالثة فالهدف منها هو وصول العالم إلى حالة من الإعياء المطلق تعمّ الحياة الروحية والعقلية والاقتصادية، وهو ما بدأ بالحدوث بالفعل.

فقد مهد بايك في خطته للحرب العالمية الثالثة عن طريق قيام الصراع بين الصهيونية السياسية وقيادة العالم الإسلامي، ولا بد أن يشترك في هذا الصراع بقية دول العالم التي تكون منجذبة إلى أي من الطرفين – كما أكدت الوثيقة التي كتبها بايك والمحفوظة في المتحف البريطاني..

"سوف نطلق العنان للحركات الإلحادية، والحركات العدمية الهدامة. وسوف نعمل لإحداث كارثة إنسانية عامة تبين بشاعتها اللامتناهية لكل الأمم نتائج الإلحاد المطلق. وسيرون فيه منبع الوحشية، ومصدر الهزة الدموية الكبرى. وعندئذ سيجد مواطنو جميع الأمم أنفسهم مجبرين على الدفاع عن أنفسهم حيال تلك الأقلية من دعاة الثورة العالمية. فيهبون للقضاء على أفرادها محطمي الحضارات. وستجد حينها الجماهير المؤمنة أن فكرتها اللاهوتية أصبحت تائهة، غير ذات معنى. وستكون هذه الجماهير متعطشة إلى مثال وإلى من

تتوجه إليه بالعبادة. وعندئذ يأتيها النور الحقيقي من عقيدة الشيطان الصافية التي ستصبح ظاهرة عالمية، والتي ستأتي نتيجة لرد الفعل العام لدى تدمير الايمان والإلحاد معًا، في وقت واحد.. ".

ان المؤامرات تعيد نفسها لكننا لا نكترث لمجرد الفكير فيها. إن التشابه بين ما حدث في مصر و ما حدث في الثورة الفرنسية واضحا جليا،فقد اقتحم حشد في باريس سجن الملك الرئيسي.. الباستيل،حيث أطلقوا سراح سبع سجناء فقط،معظمهم كانوا مرضى عقليًا،لكنهم حصلوا على البارود و البنادق التي كانوا في حاجة ماسّة إليها.

وعلى عكس التاريخ الشائع،فإن هذا الهجوم لم يكن فعلاً عفويًا لرعاع غوغائيين مُداسين، فالحقيقة المؤكدة من قبل سلطات أكثر من أن تعد،هي أنه قد تم إغواء اللصوص قاطعي الطرق من الجنوب، وجذبهم إلى باريس عمدًا سنة ١٧٨٩، حيث تم استجارهم والدفع لهم من قبل الذين زعموا قيادة الثورة، وبكلمات أخرى فإن جلب مجموعة من اللصوص المستأجرين يدحض بشكل شامل أن الثورة كانت ثورة شعب كامل لا يمكن قمعها..

وفي الوقت ذاته تم إرسال رسل مبعوثين من قبل المنظمات السرية، انطلقوا راكبين من مدينة إلى أخرى، محذرين الفلاحين من أن المتآمرين على الأمة يختفون داخل قصور الأرستقراطيين، ومزارعهم وأقاليمهم، وأنهم قد أخبروا أن الملك قد أمر بمهاجمتهم، وسرعان ما انتشرت الفوضى والعنف، وتم الترحيب بهما على أنها الثورة!

في الثورة الفرنسية نرى للمرة الأولى كيف كانت المعاناة تُخلق بشكل نظامي بغرض استغلالها و استثمارها..

قدّم المجلس الوطني عام ١٧٨٩ مذعورًا بسبب الفساد المنتشر – على أيدي

الماسونيين محركي الثورة لأهدافهم الخاصة - على عجل إعلان حقوق الإنسان والمواطنة، معلنًا الحرية والمساواة وحرمة الملكية، وحق مقاومة الاضطهاد، وهي جميعها الأهداف الرضية الطويلة المدى للماسونية.

في الوقت نفسه - مدعومة بالقلاقل في فرنسا بسبب رفض الملك الإعلان السابق - قفزت الأندية الثورية المؤسسة على الماسونية، في بلدان أخرى منها إنجلترا والنمسا وسويسرا. وظل التوتر بين فرنسا والأمم الأخرى قائمًا حتى عام ١٧٩٢.. عندما أعلنت فرنسا الحرب على النمسا وبروسيا، مواجهة بكلتيهما "حربا و ثورة"، انحطت فرنسا إلى عصر الإرهاب ،الوقت الذي تم فيه إعدام الملك لويس السادس وعدد من الأرستقراطيين.

ووراء المؤتمرات والأندية والمحاكم الثورية كان يوجد ذلك المؤتمر الأكثر سرية وخفاءً، والذي كان يدير كل شيء.. وهو القوة السرية الخفية المريعة، التي كانت مؤلفة من المبايعين الأساسيين من المستيرية illuminism

إن القوة الخفية التي قادت الثورة الفرنسية كانت الأليوميناتي ولها فقط - علنًا - ١٣ سنة في الوجود.. ومع ذلك فقد كانت قوية بما يكفي لتثير ثورة في واحدة من البلدان الرئيسة في العالم..

وعندما أعلن نابليون نهاية الثورة في عام ١٧٩٩، كانت فرنسا أرضًا مخضبة بالدماء، وكان مئات الألوف قد ماتوا بسبب الجوع والفقر والقتال، وكانت قوة الملكية والكنيسة قد دمرتا معًا.. وهكذا فقد وجدت مشاريع المنظمات السرية تمامها في استنزاف أسس المسيحية على مدى ١٨ قرنًا.. وبالتالي هدم الإيمان في تلك البقعة بالكامل..

ياللهول! ما كل تلك الخطط والمؤامرات.. بل إن هناك مؤامرة منهم على ابنها هي بالذات.. ألهذا السبب يريدون ابنها؟ لتنفيذ مخطط وايزهاويت؟ إن ابنها

مميز حقًا وذو ذكاء خارق، لا بد أنهم يستطيعون الاستفادة منه في تدمير العالم بشكل ما..

كانت ترتعد ولا تعرف كيف تتصرف، إن كان ما فهمته صحيحًا، فإنهم سيجدونه مهما فعلت..

رن جرس الباب ففزعت والتصقت بآسر وكأنهم قد وجدوه فعلاً وأتوا لأخذه منها..

– من؟ من يطرق الباب؟

– أنا منال.. افتحي..

هرولت رنا في لهفة وفتحت الباب، جذبت منال وابنتها إلى الداخل ونظرت بحرص إلى السلم ثم أغلقت الباب..

– ماذا بك؟ هل يتبعك أحد؟ لِمَ كل هذا الذعر؟!

– اجلسي يا منال.. أكاد أموت ذعرًا..

– ماذا حدث؟؟

– هناك من يريد إلحاق الضرر بابني.. إن مديرة المدرسة التي أعمل بها ماسونية، تريد أن ألحق آسر بالمدرسة لأنه ذو قدرات خاصة وتريد أن تحكم قبضتها عليه حتى تستطيع السيطرة من خلاله هو وأشباهه على العالم..

– نعم؟ لا أفهم حرفًا! أتراك قرأت شفرة دافنشي لذلك الكاتب.. جيمس براون..

– جيمس براون مغني وليس كاتب.. تقصدين دان براون..

– نعم نعم.. براون هذا.. هذه مجرد رواية، ولا يوجد مثل تلك الأشياء..

- ليست رواية يا رنا.. إنهم موجودون حقًا...

أمسكت رنا بمجموعة الكتب التي لديها والتي تتحدث عن الماسونية وألقتها أمام منال على السرير..

- هل كل هؤلاء كاذبين؟ آلاف الكتب تتحدث عن الشيء ذاته.. آلاف الأحداث لا تفسير لها سوى وجودهم...

- حسنًا.. اهدئي.. بفرض صحة كلامك.. كيف تعلم مديرة المدرسة بالقدرات الخارقة لدى آسر؟ ثم إنني لا أرى فيه شيئًا غير عادي يستأهل أن يكون مطمعًا لجماعة ماسونية كما تدعين..

- ابني مميز.. عقله أكبر من عمره كثيرًا.. ابني... ابني مميز بطريقة لن تستوعبيها.. هناك أطفال مميزون آخرون في المدرسة تتم السيطرة عليهم.. لقد رأيتهم..

- إذن لا تلحقيه بالمدرسة!

تركت مريم المكعبات التي كانت تلاعب بها آسر والتفتت إلى أمها..

- سيصلون إليه يا منال.. سيختطفونه مني..

كان هاتف رنا يرن لكنها لم تعبأ به.. على الشاشة لمحت مريم اسم زين..

صمتت منال وقد أدركت أن رنا تمر بحالة نفسية شديدة السوء.. إنها تتوهم أن العالم كله يريد أن يأخذ ابنها منها... إن حالتها سيئة حقًا..

- إذن.. ماذا ستفعلين؟ ألن تردي على الهاتف؟

صعد آسر إلى السرير حيث تجلس رنا وهمس في أذنها..

- انظري إلى مريم..

انتظرت رنا قليلاً كي لا يشك أحد فيما همس به آسر، ثم التفتت عفويًا إلى حيث تجلس مريم..

كانت مريم تنظر إلى مؤخرة رأس رنا ووجهها يضيء بلون أحمر شرير.. امتدت بشكل عنيف وفجائي خيوط دخانية كالقذائف إلى مؤخرة رأس رنا، انتفضت على أثرها وابيضت عيناها..

- رنا.. ماذا يحدث؟!

قامت منال إلى صديقتها في ذعر بينما تسمر آسر مكانه لا يدري كيف يتصرف..

كانت العين في رأس مريم تستخلص المعلومات من عقل رنا بأقصى سرعة دون الاكتراث إلى سلامة رنا.. كانت السيدة خوشيار تستعد للعد التنازلي للحصول على آسر..

أبوه يتصل وربما كان على مقربة منهم.. رنا تنوي الهرب بالولد.. إلا أن القرار الأكبر الذي قررته السيدة خوشيار كان بناء على آخر المعلومات التي اقتنصتها مريم من عقل رنا المحتضر.. رنا ترى القيود.. آسر يراها.. الأخطر أن هناك ملاكا حارسًا لهما.. ترى وجهه الآن في ذكريات رنا..
تعرفه جيدًا.. أيمن... الطفل الذي لم يمت رغم أنف الجميع...

******

سقطت رنا والزبد يتساقط من فمها.. هرع آسر كي يقطع الخيوط التي تربط مريم بعقل رنا وهو يصرخ.. مد يده الصغيرة إلى الخيوط إلا أنه وجد الطفل الغامض يحول بينه وبين أن يصل إلى أمه.. ومن الطفل الغامض صدرت

موجة تضاغطية باتجاه آسر ومنال قذفتهما بطول الغرفة فسقطا فاقدي الوعي، بينما تناثر الطفل الغامض مستحيلاً إلى ذرات من الرمال..

ثوانٍ أخرى وانسحبت الخيوط من عقل رنا..

كانت مريم ثابتة بلا تعبير على وجهها، بينما تكوّمت رنا على الأرض، بعد أن احترقت روحها بما عرفته...

احتراق و اختراق..

فتح آسر عينيه شاعرًا بدوار شديد.. تدور الحجرة من حوله فلا يستطيع تثبيت نظره على شيء.

تدور الحجرة بينما الشخص الوحيد الثابت فيها هو رمزي.. ما زال متدثرًا بالقماش الأسود، يملأ جسده البقع الزرقاء والحروق التي تتوهج أطرافها كالجمر.. يركع رمزي منحنيًا بجوار جسد رنا الهامد، يمسح على شعرها المتناثر حولها.. ما زال وجهها طفوليًا بريئًا كما عهده.. يعلم أنه لن يلمس هذا الوجه ثانية في هذه الحياة على الأقل..

يحاول آسر النهوض إلا أن الدوار يسقطه أرضًا ويصطدم رأسه بالحائط خلفه مرة أخرى..

– عمي رمزي.. ماما.. ماذا حدث لها.. ماذا حدث لك؟

– آسر.. إنني أتلاشى يا بني.. لقد علموا بما أخبرتك به في لقائنا السابق، يحرقونني بعهدي لهم، وقريبًا لن أكون في هذه الحياة.. جسدي يموت الآن، لا ترهق نفسك في البحث عني..

– أستطيع إنقاذك يا عمي.. فقط قل لي ماذا أفعل.. قل لي ماذا أفعل كي أنقذ أمي..

- يا حبيبي.. لا أعلم من أين جاءتك تلك الروح المضحية، لكنها ستكون وبالاً عليك يا صغيري.. لن تستطيع إنقاذ العالم منهم.. لن يستطع حتى من حاولوا قبلك..

يشير رمزي إلى رنا...

- انظر ماذا فعلوا بأمك.. لقد عرفوا ما عرفته وما هي قادرة على فعله فأحرقوا روحها.. نحن الآن في مكان واحد، أنا وهي.. وقريبًا سنفترق مرة أخرى..
- لا تقل ذلك.. سوف تعود أمي.. وسوف تعود أنت أيضًا..

يبتسم رمزي في مرارة.. تهب من النافذة ريح خفيفة فيتأجج اللهب في جسد رمزي ويتطاير منه بعض الرماد..

يقطب رمزي ويحيل وجهه شطر الباب..

- آسر.. خوشيار قادمة.. اهرب.. اختبئ.. لن أستطيع حمايتك..

تتسع عينا آسر في ذعر.. ينظر حوله فلا يعرف له ملجأً.. يحبو على أطرافه الأربعة حتى يصل إلى جسد أمه.. يحتضنها.. يضع يدها المرتخية فوق جسده ويرتجف..

- ماما.. إنها آتية.. لا تتركيني.. لا تدعيها تأخذني..

يجهش آسر بالبكاء، لم يكن خائفًا من خوشيار قدر خوفه على مصير أمه الضعيفة الوحيدة..

تهتز الأرضية اهتزازات متتالية خفيفة، ثم تتجسد أمامه امرأة طويلة رمادية الشعر، تحيطها هالة فضية من الخيوط الدخانية تتلوى في كل صوب.. فوق رأسها ما يشبه التاج الطيفي المثلث، تتوسطه عين وحيدة شريرة ترمقه في نهم..

تمسك السيدة خوشيار الخيوط المرتخية لمريم الفاقدة الوعي، تجذبها بشدة فتستيقظ الصغيرة وعلى وجهها ذلك القناع الخشبي.. تقوم في خطوات متخشبة.. تمد يدها إلى يد منال فتفتح الأخيرة عينيها الخاويتين.. تلتفت حولها وكأنها لا ترى شيئًا.. تقودها مريم إلى الباب في هدوء فتنقاد منال دون أي وعي...

تمد السيدة خوشيار يدها الطويلة الأظفار إلى ذراع آسر.. ينظر إليها ثم يغمض عينيه خائفًا.. تسحبه خلفها في قوة وهي تضحك..

- أخيرًا يا صغيري! أنت ملكي الآن.. لن ينقذك أحد.. لديّ دم أمك ولا ينقصني الآن إلا دمك لتصبح أغلى دمية اقتنيتها..

- لا.. اتركيني... لا!!!!.. ماما!!!!!...

تحمله تحت ذراعها وتعبر باب الشقة، يرى آسر الباب ينغلق، يخفي خلفه جسد أمه شيئًا فشيئًا..

تسير به خوشيار متعمدة أن يراها كل من في الشارع، تراها بثينة فتثبت عيناها على آسر في لا مبالاة، الوجه الخشبي يعلو وجهها وهي تمسك بيد صغيرتها الدمية بدورها..

يمران على كل شخص في الشارع ليرمقهما بذات النظرة الثابتة، لا يرى ولا يسمع إلا ما تريده السيدة خوشيار أن يراه ويسمعه..

يصرخ آسر فلا يصدر عنه صوت كأنما هو في كابوس، لن يسمعه أحد إذن..

اليوم يرى هالات الناس وقد تكشفت أمامه، كل من كان يعرفه ويحبه يومًا صار دمية لهم، لا أحد يعبأ به ولا أحد يعبأ بشيء..

تعبر السيدة خوشيار السور الحديدي المحيط بالمدرسة، تطأ بقدمها الكتب

القديمة المتناثرة في الفناء القديم فتهشم.. تسحق اللعب الكالحة اللون التي كان يلعب بها الأطفال هنا في زمن ما..

تعبر به البوابة إلى حيث لم يعد أحد..

******

تفتح رنا عينيها على عالم آخر، البرودة تتسلل إلى جانب جسدها وهي ملقاة على الأرضية ذات اللونين الأبيض والأسود لا يحول بينهما إلا قطعة كبيرة من القماش الأسود..

تجلس مذعورة وتضم القماش على جسدها وشعرها.. تلتفت حولها فتجد رمزي على مسافة منها.. يجلس ضامًا ركبتيه إلى صدره وقد استحال معظم جسده إلى جمر مشتعل..

– رمزي؟ ماذا حدث لي؟ أين نحن؟ هل أحلم مرة أخرى..

– لا يا رنا.. أنت حيث أوجد أنا.. كما حكى لك آسر..

– تعني.. تعني أنني لن أعود؟ تعني أنني قد رحلت وتركت لهم ابني؟!

صمت رمزي وأخذ يئن.. قامت رنا وصارت تجول في المكان وترفع رأسها إلى أعلى.. لا يوجد سقف ما ولا سماء.. فراغ أبيض ممتد في الجهات الخمس بلا نهاية..

– أين آسر الآن؟

– أخذته خوشيار..

– أين؟ ولماذا؟ هل ستحيله دمية لخدمة أغراضها.. أغراضهم... لخدمة أي

أغراض لعينة؟! أنا لا أفهم شيئًا!

- ستحيله إلى دمية كما فعلت مع كل من نعرفه... مصيره كمصير باقي جيله والأجيال السابقة.. والقادمة..

- نعم؟ وهل المفروض مني أن أتركه؟! ما هذه السلبية؟! لن أترك ابني لهم..

- لا تتركيه إن استطعت!

أخذت رنا تجول في المكان متسعة العينين غاضبة.. كيف تعود؟ كيف تساعده؟

- قل لي.. كيف يصنعون تلك الدمى؟

- لا أدرى بالضبط.. كل ما أعرفه أنهم يحتاجون إلى بضع قطرات من دماء الأم والابن إذا كان الطفل ولدًا، أما إن كان فتاة فيحتاجون إلى دماء الأب فقط..

- لأي غرض؟

- لحقن الدمين في رأس دمية خشبية يصنعونها، نوع من السحر أو شيء من هذا القبيل، يتحكمون في الناس من خلالها..

- وكيف حصلت المرأة على دمي؟ بعد أن فقدت الوعي؟

- لا بد أنك أعطيتيها إياه بإرادتك ولكنك لا تذكرين..

- وأين يحتفظون بتلك الدمى..

- في صندوق ما.. لا أعرف مكانه تحديدًا.....

قطع رمزي كلامه وبدا كأن النار تتأجج فيه أكثر.. توهج الجمر في جسده

وأخذ الرماد في التناثر من حوله..

- ما.. ما بك..

- روحي تفنى.. أريد أن أخبرك بكل ما أعرفه.. اجلسي.. اسمعي.... آه ه ه ه...

******

تمر السيدة خوشيار في ممرات المدرسة.. يسمع آسر أصوات الأطفال تنبعث من الحوائط.. تبدو لأول وهلة كأنها أصوات ضحكات ((أم بكاء؟))، ثم بدأ يتبين فيها كلمات متناثرة ((.. النجدة..)).... ((لا تظنه قادرًا..)).. ((كان هناك الكثير من قبل..)).... ((.. ما اسمها؟...))...
تدخل السيدة خوشيار المكتب وتغلق الباب.. تضع آسر على الكرسي وتذهب لإحضار سكينها.. يسمع آسر الأصوات حوله من كل مكان.. يهمس من بين أسنانه..

- نعم.. أستطيع.. لا تخافوا...

((.. إنه يسمعنا!..)).. ((.. صبي أم فتاة... فتاة أم صبي...))..

((.. لا تقاومها.. لا تدعها تشك...))

تصيبه الحيرة مما يسمع... هل تلك الأصوات معه أم ضده.. كيف تريد الأصوات أن ينقذها، وفي الوقت نفسه تنصحه بالاستسلام؟!

تمد السيدة خوشيار يدها بالسكين إلى أصبع آسر الذي تحيطه بكفها الأخرى..

يشعر آسر بالخدر.. هو فعلاً غير قادر على المقاومة..
تأخذ السيدة خوشيار قطرات من دمه على طرف السكين، تمسحها في كرة خيوط الكتان ثم تهرع خارجة..

- لا تحاول الهرب.. لن تستطيع...

ينظر إليها آسر متحديًا..

- لن أهرب...

تقطب خوشيار حاجبيها ثم تكمل مسيرتها إلى حيث تصنع الدمية. ينتظر آسر قليلاً حتى يتأكد من ابتعاد وقع قدميها، ثم يقفز من على الكرسي واقفًا.. يهمس وهو يتلفت حوله..

- أنا أسمعكم.. ماذا تريدونني أن أفعل؟

((.. **اهرب**...))..... ((**حاول أن تجد مكاننا**...)).. ((.. **لن تستطيع**...))..

- أستطيع.. أستطيع! أين أنتم؟

تختلط الأصوات بضحكات بعيدة جدًا.. أصوات الأطفال يختلط بعضها ببعض..

- حسنًا.. سوف أبحث عنكم...

((.... **إنها نهايته... المسكين**...))...

وينطلق آسر خارجًا من الحجرة...

إنقذنا..

يركب زين سيارة أجرة تقلّه من المطار إلى موقف أوتوبيسات الإسكندرية القريب.. لم تستطع قدماه أن تحملاه كي يسير من داخل المطار إلى الموقف، كان جسده ينبض بالغضب.. بالقلق.. ((هل هربت رنا ثانية...)).. إن حساب إيناس سيكون عسيرًا، عسيرًا لدرجة تحتاج التفرغ له.. فليجد آسر الآن وبعدها يستطيع التفكير في عقاب مناسب..

صوت صغير في عقله يلحّ عليه بسؤال.. "أتراك قد ظلمت إيناس بفرضك الولد على حياتها؟.. ((أتراك ظلمت رنا..... ؟)).

كان يعرف أن الولد غير طبيعي؛ لحكمه أرادها الله، استطاع زين أن يرى ما يراه آسر، هل الحكمة هي أن يلتمس العذر لإيناس فيما بعد إن لم تحتمله؟!

رنا أيضًا ترى تلك الأشياء.. ما تفسيرها؟ ماذا تعني؟ إن بعض الأمراض النفسية لها طبيعة التوارث، فإذا فرض أن آسر قد ورث مرضًا نفسيًا ما عن والدته، فكيف يصل هذا المرض إليه؟!!

لم يكن يؤمن بخوارق الطبيعة، كان دائمًا ما يسخر من الروايات التي تقرؤها رنا.. يبدو أن تلك الروايات قد أعانتها بشكل كبير على التعامل مع الأمر..

((يبدو أن رمزي أعانها بشكل كبير على تقبل الأمر.. لقد كانت وحيدة..))..

لن يترك الولد لرنا.. ليثبت خيانتها قانونًا ويطالب بحضانة الولد، هكذا سيستريح من البحث عن الولد كل حين، لكنه لن يضغط على إيناس أكثر من هذا.. إن آسر خطير فعلاً وربما أضر لي بي بشكل أكبر، لقد كاد أن يحرقها.. لا بد أن هذا قد مثّل ضغطًا هائلاً على إيناس..

نزل من السيارة الأجرة وقد نسي فيها حقائبه، عاد مهرولاً واسترجعها ثم بيد متوترة أخرج النقود لقطع التذكرة، ما سقط من النقود على الأرض كان ضعفي ما وصل إلى يد بائع التذاكر..

ركب الأوتوبيس وجلس وحيدًا في آخر مقعد.. إنه الشتاء، ومن الصعب أن يمتلئ الأوتوبيس بالركاب عن آخره حتى يقطع أحدهم خلوته..

أخرج هاتفه وطلب رقم رنا مرة أخرى.. لن ترد بالطبع، لا يوجد معنى آخر لعدم ردها إلا أنها قد قررت فعلاً الفرار بالولد.. ((لن تغفر لي أخذه منها...))..

ألقى بالهاتف على المنضدة الصغيرة المعلقة في ظهر الكرسي أمامه.. تنهد وأخرج علبة سجائره.. التدخين ممنوع في الحافلة، لكنه كان يبحث عن شجار ما يفرغ فيه الغضب بداخله.. دع السائق يعترض وليأخذ نصيبه إذن..
نفث الدخان وشرع يراقبه يتسلل خارجًا من فتحة تنقية الهواء في السقف...

******

إنقذنا..

يركب زين سيارة أجرة تقلّه من المطار إلى موقف أوتوبيسات الإسكندرية القريب.. لم تستطع قدماه أن تحملاه كي يسير من داخل المطار إلى الموقف، كان جسده ينبض بالغضب.. بالقلق.. ((هل هربت رنا ثانية...)).. إن حساب إيناس سيكون عسيرًا، عسيرًا لدرجة تحتاج التفرغ له.. فليجد آسر الآن وبعدها يستطيع التفكير في عقاب مناسب..

صوت صغير في عقله يلحّ عليه بسؤال.. "أتراك قد ظلمت إيناس بفرضك الولد على حياتها؟.. ((أتراك ظلمت رنا..... ؟))..

كان يعرف أن الولد غير طبيعي؛ لحكمه أرادها الله، استطاع زين أن يرى ما يراه آسر، هل الحكمة هي أن يلتمس العذر لإيناس فيما بعد إن لم تحتمله؟!

رنا أيضًا ترى تلك الأشياء.. ما تفسيرها؟ ماذا تعني؟ إن بعض الأمراض النفسية لها طبيعة التوارث، فإذا فرض أن آسر قد ورث مرضًا نفسيًا ما عن والدته، فكيف يصل هذا المرض إليه؟!!

لم يكن يؤمن بخوارق الطبيعة، كان دائمًا ما يسخر من الروايات التي تقرؤها رنا.. يبدو أن تلك الروايات قد أعانتها بشكل كبير على التعامل مع الأمر.. ((يبدو أن رمزي أعانها بشكل كبير على تقبل الأمر.. لقد كانت وحيدة..))..

لن يترك الولد لرنا.. ليثبت خيانتها قانونًا ويطالب بحضانة الولد، هكذا سيستريح من البحث عن الولد كل حين، لكنه لن يضغط على إيناس أكثر من هذا.. إن آسر خطير فعلاً وربما أضر لي لي بشكل أكبر، لقد كاد أن يحرقها.. لا بد أن هذا قد مثّل ضغطًا هائلاً على إيناس..

نزل من السيارة الأجرة وقد نسي فيها حقائبه، عاد مهرولاً واسترجعها ثم بيد متوترة أخرج النقود لقطع التذكرة، ما سقط من النقود على الأرض كان ضعفي ما وصل إلى يد بائع التذاكر..

ركب الأوتوبيس وجلس وحيدًا في آخر مقعد.. إنه الشتاء، ومن الصعب أن يمتلئ الأوتوبيس بالركاب عن آخره حتى يقطع أحدهم خلوته..

أخرج هاتفه وطلب رقم رنا مرة أخرى.. لن ترد بالطبع، لا يوجد معنى آخر لعدم ردها إلا أنها قد قررت فعلاً الفرار بالولد.. ((**لن تغفر لي أخذه منها...**))..

ألقى بالهاتف على المنضدة الصغيرة المعلقة في ظهر الكرسي أمامه.. تنهد وأخرج علبة سجائره.. التدخين ممنوع في الحافلة، لكنه كان يبحث عن شجار ما يفرغ فيه الغضب بداخله.. دع السائق يعترض وليأخذ نصيبه إذن..
نفث الدخان وشرع يراقبه يتسلل خارجًا من فتحة تنقية الهواء في السقف...

******

يسير آسر في طرقات المدرسة.. ينظر إلى الأطفال من حوله.. ينظرون إليه ويثبتون أبصارهم إلى وجهه.. تدور رؤوسهم فوق أعناقهم ليسير جسدهم إلى الأمام ورؤوسهم ما زالت ناظرة ورائها.. إلى آسر..

على مقعد طويل تجلس فتاة سمراء حزينة، تأكل بطريقة أوتوماتيكية.. تنظر إلى الجدار المقابل وكأنها تنظر خلاله.. يتذبذب خيالها الشفاف فيتحول من الوجه الخشبي إلى وجهها الطبيعي، يشير خيالها إليه وتتحرك شفتاها في ذعر
((.. أنقذني...))..

كان يعرف الفتاة وإن لم يذكر متى رآها.. يمر أمامها فيتذبذب خيالها مرة أخرى عائدًا إلى طبيعته الخشبية..

كان يسير ويشعر أنه يدور في دوائر.. برغم ذلك فإنه لم يمر بذات الطالب مرتين.. مر أكثر من ثلث ساعة وهو ما زال يدور في الممرات نفسها.. **((لن يصل.. لن يجدنا...))**.. يشعر أن عدد الطلبة في هذه المدرسة غير طبيعي.. الطرقات مزدحمة بطلبة.. بيض، وذوي شعور ناعمة فاتحة كالشوام، قمحيين خشني الشعر كالمصريين ودول المغرب العربي، سمر وذوي شعور ناعمة طويلة كسكان الخليج، ذوي ملامح أفريقية كسكان جنوب الوطن العربي... لهجات مختلفة إلا أنه يفهمها جميعًا.. لم يدرك معنى تنوع كل تلك الأشكال إلا أنه شعر أنه من غير المعتاد تنوع كل تلك الأشكال في مكان واحد..
بعض ممرات المدرسة أبرد من بعضها.. بعضها شديد الإضاءة وبعضها خافت..
من بعض النوافذ ترى الأمطار، ومن بعضها جو خانق مترب..
((... سينتهي... لا بد أنها تصنع الدمية...)) . **((. لن تستطيع أن تصنعها... إنها لا تعرف حقيقته..))**..

((.. إنها لا تعرف حقيقتها..))..

يقف آسر مستندًا إلى الحائط في إرهاق.. يلصق اذنه به عله يستمع إلى اصوات الأطفال البعيدة بشكل افضل..

–ماذا افعل.. اين انتم. ؟

((.. نحن سجناء صندوق الدمى...))

–اين هذا الصندوق؟

((... **لن تصل إليه....**)).. ((.. **سيساعده.. سيصل.....**))

زفر آسر وقد بدأ اليأس يتسلل إلى نفسه.. أخذ يجول ببصره في الأطفال... هناك... عند المنعطف، يراه جيدًا.....

– يا صديقي.. أنا هنا..!

التفت الطفل الغامض ونظر إلى آسر طويلاً، همّ آسر بأن يسير نحوه فبدأ الطفل الغامض في الجري... يجرى آسر بسرعة ليلحقه.. يشير إليه أن ينتظر..

– هه.. هه.. انتظر... أبطئ قليلاً...

تتزايد سرعة الطفل الغامض وتبتعد المسافة بينه وبين آسر... يزيد آسر من سرعته حتى إنه ليشعر بعضلاته الصغيرة تحترق..

يتسارع الممر من حوله.. تتسارع اللوحات وتبدو كأنها تذوب في لوحة واحدة طويلة..

تبدو اللوحات المتلاحقة بهذه السرعة الكبيرة كأنها تظهر بوابة ضخمة منقوش عليها... ((**حصان مجنح مقيد...**)).. نقش لم يتبينه آسر جيدًا..

تنتهي البوابة لتظهر بعدها حجرة نحاسية البوابة.. يرمي الطفل الغامض جسده ناحيتها فتبتلعه، يحذو آسر حذوه.. يشعر بدوار شديد وكأنه يسقط..

يسمع أصوات الأطفال من حوله تبتعد في سرعة.. تتلاشى..

((... لقد فعلها...)).. ((.. لكنه لم يصل لل..........................))

ويرتطم آسر بأرضية رملية يحفها الظلام والصمت...

******

مع آخر كلمات رمزي، تلاشى الرجل نهائيًا مستحيلاً تلاً صغيرًا من الرماد.. لم تزل رنا تبكي وتعفر وجهها وكفيها في الرماد الساخن..

- رمزي.. رمزي.. أين ذهبت... كيف أنقذ ابني مما نحن فيه... آسر!

تجري رنا في جنون في كل صوب.. تريد العودة.. إن آسر في خطر حقيقي..

البشرية كلها في خطر لن تتصوره في أبشع كوابيسها..

تسقط رنا وتحاول أن تغمض عينيها.. تحاول أن تتصل بآسر كما كانت تفعل من قبل...

- هيا.. هيا... آسر... اسمعني...

لا شيء...

لقد مات رمزي فعليًا الآن... تستطيع أن ترى بخيالها السيدة سكينة تبكي وتلطم الخدود، بينما طبيب ما يغطي وجه رمزي بملاءة.. صفير طويل باكٍ يشي بتوقف قلب شاب كل ما اقترفه هو أن عرف أكثر من اللازم..

كان رمزي سلبيًا محبطًا في كثير من الأحيان، إلا أنه قد ساعدها بقدر لن تنساه أبدًا ما حييت.. هذا إن عادت مرة أخرى..

تعرف أنها لن تعود، ولا يهمها ذلك كثيرًا، كل ما يهمها هو ابنها..

بحسب كلام رمزي واطلع عليه من أسرار في غيبوبته، فإن حجرة صندوق الدمى تقع في بُعد آخر، لا يستطيع بشري ذو جسد مادي اختراقه، كما لا يستطيع شبح ذو جسد ميت اختراقه أيضًا.. على حسب ما تعرف، البشر على حالتين فقط؛ إما ميت، وإما حي ((... أو ميت بجسد حي؟...)).. هذا معناه ببساطة أنه لا أحد يستطيع الوصول إلى تلك الحجرة..

إذن فالطفل الغامض ميت فعلاً، لذلك فهو يحتاج المساعدة من آسر.. لكن آسر حي.. كيف يستطيع مساعدته إذن؟

فكرت رنا أنها هي المقصودة، إنها ميتة بشكل ما.. روحها وعقلها الواعي في هذا المكان الغريب بينما جسدها حيث تركته.. بالطبع هي ليست ميتة، تعتقد أنها ستعرف الموت جيدا حين تراه.. لم يذكر أحد أن الموت هو الانتقال إلى الحياة في رقعة شطرنج لا نهائية.

هذا بالإضافة إلى أن رمزي قد مات فعلاً الآن، وتلاشى من هذا البعد.. إذن.. ربما هي الوحيدة التي تستطيع إنقاذ العالم.. لكن كيف تعود؟!

كيف؟ ؟...

سأعود..

فتح آسر عينيه فلم يبصر شيئًا إلا أرقام ساعته الفسفورية الصغيرة.. لا.. لم تتوقف الساعة.. كل ما في الأمر هي أنها تعود إلى الوراء في سرعة جنونية..

يستحيل كفه الوردية إلى لون شفاف لم يعد يبصره..

يرفع بصره ليجد باب ما يفتح.. تدخل السيدة خوشيار منه بشكلها الآدمي الطبيعي.. لا يبدو أنها تراه..

تحمل تحت ذراعها طفلاً صغيرًا يرتدي نظارة طبية ملونة.. تلقيه أرضًا فتسقط النظارة الصغيرة..

يبدو على وجه الطفل التحدي.. لا يبدو أنه خائف بأي شكل.. يقوم واقفًا منظفًا ملابسه من الرمال التي التصقت بها..

– لن تقيديني.. لن تستطيعي...

– لست أول طفل لم أستطع تقييده، لذا أحضرتك إلى هذه الحجرة..

أضاءت الحجرة بلون رمادي ضعيف.. من السقف يرى آسر حبالاً متدلية في آخر طرف كل منها طفل مربوط إليها من ساق واحدة، ما أثار ذعر آسر هو أن رأس كل طفل مدفونة في الرمال..

– أنت أذكى من رأيت يا أيمن.. لديك قدرة غريبة على مقاومة القيود، إلا أن نهاية أي عقل مثل عقلك هو الدفن هنا.. في الرمال..

أشارت السيدة خوشيار بعصاها المغلفة بالشريط الأسود فصدر منها خيوط

دخانية شفافة أحاطت بالصبي..
كانت الخيوط تلوى حوله بعنف وتحاول مقاومة حركاته المتملصة القوية، في هدوء جلست السيدة خوشيار أمامه على الأرض وعلى فمها ابتسامة ساخرة..

–لن تستطيعي تقييدي.. لن أحفظ ما تمليه علي.. لن أفعل أشياء لا أفهمها..
تخبط السيدة خوشبار على الأرضية الرملية في دقات متناغمة وتتمتم ببعض عبارات أجنبية مسجوعة، فتنمو من الأرضية الرملية دمية خشبية ترتدي نظارة ملونة صغيرة. تبدأ السيدة خوشيار في خياطة فم الدمية بإبرة ذهبية طويلة لها القدرة على اختراق الخشب كما تخترق السكين الزبد..
تمتد الخيوط الدخانية إلى فمه، تدخل في الجلد الرقيق لشفتيه وتخترقها كأنها إبرة حياكة.. يغلق فمه تمامًا بخيوط دخانية في غرز عميقة كبيرة تنزف دمًا..
– ممممففففف.... مم.. ففف...
ظل الصغير في محاولاته اليائسة للحديث، بينما تستمر السيدة خوشيار في ترانيمها، تمسك قطعتي طين وتدسّ كل قطعة في إحدى أذني الدمية..
تتكور الخيوط الدخانية على أذني أيمن الذي أخذ يهز رأسه يمنة ويسرة في جنون.. تتصلب الخيوط على أذنيه فيسكن تمامًا وعيناه متسعتان عن آخرهما..
ينسحب الطفل الصغير على الأرض من قدمه بواسطة آخر خيط دخاني حر، يرتفع طرف الخيط السقف ويُثبت هناك.. ما زالت رأس الصغير نائمة على الأرض..
تنزاح الرمال من حول رأسه الصغير وتبتلعها تدريجيًا.. تظلم الصورة في عينيه تمامًا.. رأسه مقلوب تحت مستوى الرمال إلا أن ما يحيط بها تحت مستوى العنق فراغ دامس..
يبكي، فتتساقط الدموع مقلوبة من عينيه إلى جبهته لتبلل شعره القصير..

يسمع صوت السيدة خوشيار ضعيفًا مكتومًا..

– ستموت ببطء أيها الصغير.. سيتبعك أبوك الذي أورثك هذا الذكاء في حفرة مماثلة..

كان يجاهد كي يصرخ.. أنفه مسدود لا يستطيع التنفس جيدًا.. يتنفس بصوت عال وشهقات متقطعة.. يختنق..

– لن تستطيع إنقاذه ولا إنقاذ أي من أصدقائك.. مساعدتك لهم لرفض قيودنا هي ما أودت بك إلى هنا.. وداعًا أيها الصغير..

تخرج السيدة خوشيار من الحجرة في كبرياء ويختفي معها الضوء.. يسمع آخر صوت أيمن يرجّ الحجرة في صوت قوى واثق..
((.. سأعود......))

******

يصل زين إلى الشارع الهادئ الضيق، الشارع هادئ على غير عادته.. الناس صامتون ثقيلو الحركة يتبعونه بنظراتهم دون أن تبدر منهم أي أصوات..
يصعد درجات السلم، يقف أمام الباب وقلبه يخفق في أذنيه، يقرع الباب في دقات قوية متتابعة..

– رنا.. افتحي..

لا رد.. لا صوت...

يتصل ثانية برقمها، يسمع صوت الهاتف في الداخل يرن حتى ينقطع الخط..

يتصل بمنال.. عينا ريم مثبتتان في مؤخرة رأس أمها تجعلها تمسك الهاتف، تنظر إليه في خواء ثم تتركه..

يدق جرس باب جارتها بثينة.. بعد عدة دقائق ينكشف الباب عن وجه السيدة، يسألها عن رنا فتهز رأسها نافية بلا تعبير، ومن خلفها تثبت ابنتها الطفلة عينيها على زين.. تغلق بثينة الباب..

– ما هذا؟ ماذا جرى للناس هنا؟!

يطرق باب رنا مرة أخرى ثم يقرر كسر الباب.. آثار قديمة لكسر الباب تبدو على أخشابه، لن يصمد طويلاً..

ابتعد زين إلى أبعد مسافة تسمح بها المساحة أمام الشقة ثم اندفع بكتفه نحو الباب الذي استسلم من أول ضربة..

وعندما تمالك اندفاعه، وجد عند قدميه جسد رنا الساقط فاقد الوعي..

– رنا.. رنا..

شرع يضرب خديها دون جدوى.. قام وبحث عن آسر وهو ينادي باسمه في جنون.. على منضدة الكومبيوتر وجد بعضًا من رسوم آسر التي تمثل أناسًا مقيدين بخيوط شفافة.. مجسمات عديدة تمثل أشكال هرمية.. كتب تتحدث عن الماسونية والمؤامرات..

تحت كل هذا أجندة صغيرة مهترئة، فتحها ليجدها مذكرات تكتبها رنا لابنها آسر منذ أن كان علقة!

جلس على السرير وقد قرر أن يقلب في الصفحات إلا أن ما كتبته رنا قد امتصه بالكامل لمدة ساعة كاملة....

✲✲✲✲✲✲

للمرة الثانية تُجرى السيدة خوشيار طقوسها على دمية آسر، الدمية هامدة وكذلك الخيوط الكتابية..

تدور في الحجرة لا تدري ما الخطأ.. ما المنيع في ذلك الصبي؟ لا يوجد بشري من بداية مشروعهم الضخم لم تتم صناعة دمية له، كل ما هنالك أن هناك بشرًا ذوي دمى غير مستقرة، أولئك يمكنهم أن يتركوهم وشأنهم ليدمرهم مجتمعهم المنقاد.. الأطفال الذين يقاومون الدمى وهم بعد صغار يتم التخلص منهم ببساطة.. إن التخلص من طفل تحت أيديهم أسهل من التخلص من شخص بالغ، يمحون ذاكرة كل من عرف الطفل يومًا وبهذا يصبح كأنه لم يكن..

شيء أخير.. للتخلص من طفل، لا بد من صنع دمية ولو حتى دمية غير مستقرة له أولاً.. القتل بالطريقة العادية يحرر طاقات غضب في القتيل ربما تتسبب في الأذى لعالمها..

إذن ما الذي يمنع صنع دمية لهذا الطفل؟

تستدعي دمية مريم مرة أخرى وتصل رأس الدمية برأسها وتعيد مشاهدة ذاكرة رنا منذ البداية..

ثوان قليلة وبدأت الأمور في الاتضاح.. آسر ليس صبي داخليًا إنه فتاة!

ركلت الدمية بقدمها وشرعت تذرع الغرفة.. إن الصبي الآن طليق في المدرسة بلا رادع، بالطبع لن يظل في المكتب كدمية مطيعة..

كيف تجد أبا آسر الآن وبسرعة؟ تعلم أنه سيأتي بشكل ما إلى رنا كي يسترد الطفل.. إذن فلتجعل كل الدمى المحيطة بمنزل رنا على استعداد لإبلاغ العين الكبرى إذا جاء زين..

رفعت ذراعيها إلى أعلى ليظهر بينهما الشكل الهرمي تتوسطه العين، وراحت تترنم..

******

دق جرس الباب في شقة رنا فقام زين لفتحه، أمام الباب طفلة صغيرة جميلة في عمر آسر تقريبًا تنظر له مبتسمة..

– عمو.. هل تبحث عن طنط رنا وآسر..

– هل تعرفين أين آسر؟

– نعم.. آسر في المدرسة..

وأشارت بيدها باتجاه المدرسة المجاورة للمنزل..

– مدرسة؟ إلى الآن؟ الساعة السادسة يا بنيتي..

حدقت الطفلة في وجهه ثم استدارت عائدة إلى شقة بثينة دون كلمة أخرى...

ألقى زين نظرة أخيرة على المذكرات بوجه يعتليه الوجوم.. نقل نظره إلى رنا الساقطة على الأرض، انحنى يحملها ويضعها على السرير، أسدل عليها الغطاء وقبّلها في جبينها.. لأول مرة يعرف ما كان يدور في صدرها كل تلك الأعوام.. تمنى لو استطاع إلقاء نظرة كهذه على روحها في زمن سابق قبل أن يحدث كل ما حدث..

همس في أذنها..

– سأعود بابننا..

أغلق الباب كيفما اتفق وهبط السلم وقد تيقن أن هناك شيئًا غامضًا يربط آسر بتلك المدرسة من البداية.. هذا الطفل الغامض يجذب ابنه إلى هناك لسبب ما..

عبر الشارع بحرص ثم أخذ يتفحص البوابة الصدئة.. كان الباب مواربًا بشكل غير ملحوظ، تلفت حوله فوجد المارة ينظرون إليه بلا تعبير..

دفع الباب ودخل.. آثار حذاء ذي كعب عالٍ على الأرضية.. لا يوجد أي آثار لأقدام سواها..

عبر الفناء الصغير وهو يتابع حركة الأرجوحة القديمة الصدئة.. ((ما الذي يحركها بالضبط؟)).. بطة بلاستيكية صفراء منضغطة من منتصفها.. (هناك من داسها بحذائه..))..

وصل إلى الباب الخشبي المغلق، مد يده للمقبض فدار بسهولة وانفتح الباب..

******

المشكلة هي أن زين لم يدرس في مصر أيضًا.. لا توجد دمية خاصة به في صندوقها.. لا تعلم إن كان سيتركها تلمسه كي يسقط في يدها ويعطيها دمه دون مقاومة..

لفّت الدمية الصغيرة بقماش أحمر حريري ودستها في ملابسها كي تتخلص منها في حجرة الدفن تحت الرمال، يجب عليها صنع واحدة أخرى بعد أن تأخذ الدماء من زين..

وقفت أمام الباب الخلفي للمدرسة الخالية تنتظر القادم..

انفتح الباب في حذر وخطا زين إلى الممر القصير..

- أهلاً وسهلاً.. كيف أخدمك؟

- إحم.. ابني في المدرسة، وقد أتيت كي أصحبه إلى المنزل..

- تحت أمرك.. تفضل معي إلى المكتب ريثما أرسل في طلب الولد..

- متى ينتهي اليوم الدراسي هنا؟

- ينتهي.. الآن..

سارت السيدة خوشيار أمام زين حتى وصلا إلى المكتب.. شعر زين بأصوات خافتة تصدر من الجدران.. أصوات أطفال..

((.. لا.. لا تعطِها دمك...))

- هل قلتِ شيئًا يا سيدتي. ؟

- لا.. هل سمعت شيئًا؟!

هز زين رأسه نافيًا.. جلس زين على الكرسي وهو يتلفت حوله.. كانت السيدة خوشيار تقف خلفه وتتلمس سكينها...

- قلت لي.. ما اسم ابنك..

- آسر زين....

- ممم... لن تصدق! إنه طالب متميز.. ماذا تشرب ريثما أرسل في طلبه؟

- لا شيء.. أرجو أن تتعجلي قليلاً في الارسال إليه..

جلست السيدة خوشيار على الكرسي المقابل لزين ثم نظرت إلى ساعة يده..

- آها.. ساعة فاخرة.. تيسو؟

- لا.. روليكس.. آسر لو سمحت.. لدينا موعد هام..

- معذرة.. هل لي أن أراها؟

ودون أن تنتظر الإجابة، مدت يدها إلى كف زين وهي تجرد سكينها باليد الأخرى...

******

وقف الطفل الغامض أيمن في الظلام وأمسك كتفي آسر بكلتا يديه.. يسمع آسر كلمات الطفل جيدًا ويجيب عنها دون أن تتحرك شفاههما أو يصدرا أي صوت..

- كان من المفترض أن يمتص الظلام تحت الرمال روحي ويحبسها في بُعد موازٍ كما فعل مع الأطفال الذين سبقوني.. إلا أنني ببساطة مُتّ قبل هذا.. لقد قتلتني خوشيار بهذه الطريقة وهي لا تعلم أنني مصاب بعيب خلقي في القلب، لم أتحمل الضغط والوضع المقلوب.. قتلتني وحررت طاقة غاضبة لا قبل لها بها..

كنت أشعر أنني بين الموت والحياة.. يختلط غضبي بجزيئات الرمال من حولي.. بالطاقة السوداء لأرواح الأطفال المنفيين.. يصمّ صراخهم آذاني الصماء من الأساس.. يستغيثون وأستغيث معهم.. رائحة الرمال المبتلة تتسلل من وسط شهقاتي الأخيرة النهمة للهواء.. أعوام مضت وأنا لا أعلم أين أنا أو ماذا أفعل..

في يوم لا أعرف كم مضى عليه، فتحت عيني مرة أخرى في الظلام وصرت ما أنا عليه..

آسر.. حررني.. حرر روحي..

- لا تقلق يا صديقي.. سأفعل.. لكن كيف..

- .. ستعرف..

قطب الطفل الغامض ونظر إلى أعلى.. ضغط على كف آسر ضغطة قوية فأفلتت أنّة ضعيفة من آسر، شعر بدوار آخر ثم سطع الضوء في عينيه.. فتح آسر عينيه بصعوبة فوجد نفسه في ممر من ممرات المدرسة و لم يجد الطفل الغامض..

******

يتراجع زين في كرسيه متفاديًا هجوم السيدة خوشيار غير المتوقع، يسقط بالكرسي على ظهره ليجد المرآة واقفة رافعة السكين كسيف مشهر، من خلف السيدة يرى زين الطفل الغامض يتجسد لأول مرة له في حضور السيدة خوشيار..

تلتفت السيدة برأسها للخلف فتجد الطفل الغامض يتوهج بلون أحمر ناري ثم تصدر عنه موجة طاقة شديدة تدفع السيدة خوشيار نحو الجدار فوق رأس زين ثم تسقط فوقه تمامًا..

تنغرز السكين في الشريان الخارجي لرسغ زين الذي رفع كفه في الهواء ليدفع عن وجهه أثر السقطة.. للحظة يحملق زين في السكين المغروس في يده ثم يحيل بصره إلى الطفل المتوهج الواقف جواره.. يضغط على أسنانه ويخلع السكين فتنفجر من موضعه نافورة دماء تغرق ثيابه وثياب السيدة خوشيار.. ينظر الطفل الغامض إلى موضع معين من ثوب السيدة خوشيار الفضفاض المزخرف في رضا ثم يختفي تاركًا خلفه كومة رمال صغيرة..

يقوم زين دافعًا المرأة التي بدأت في الانتفاض بطريقة غريبة.. تصور زين أن هناك شيئًا ما قد أصاب عمودها الفقري..

كانت الدماء تتدفق من ذراعه في دفعات قوية، أطلق سبة وبحث حوله عن شيء يصلح لربط ذراعه فلم يجد إلا مفرشًا مفرغا مزخرفًا.. ربط المفرش حول يده وشده جيدًا بأسنانه، ثم ربط مفرشًا آخر فوقه بقليل بالطريقة ذاتها فقل تدفق الدم إلى حد كبير..

من تحت ثياب السيدة خوشيار لمح زين شيئًا صغيرًا مغطى بالثياب يبدو وكأنه هو السبب في الرجفة التي أصابتها..

مد يده في حذر وأزاح طرف العباءة فانكشفت له لفافة غارقة في دمائه يبدو وكأنها كانت حريرية حمراء..

في حذر وعيناه مازالتا مثبتتين على المرأة الراقدة على وجهها، بدأ في فتح اللفافة التي لا تكف عن الارتجاف وكأن ما بداخلها أرنب مذبوح..

حدق النظر فيما يراه لثانيتين ثم ألقى اللفافة في ذعر جعل قلبه يثب ويزيد تدفق الدماء في جرحه..

على الأرض كانت دمية خشبية ذات شعر بني ناعم يغطي عينيها تنتفض كأنها في نوبة صرعية، بينما يمتص خشبها الدماء المحيطة به في جشع..

- أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.. ما هذا.. ما الذي تورطنا فيه..

تراجع زين إلى الباب وعيناه مثبتتان إلى الدمية.. بدت الدمية متصلة بخيوط كالتي يراها آسر وأمه.. وقفت مترنحة للحظات.. عيناها الكبيرتان تحدقان فيه.. يصدر منها صوتها مبتلاً لزجًا يستطيع أن يميز حروفه جيدًا..

- بابا...... !

لقد كنا أطفالا..

كانت هلاوس رنا من نوع خاص.. مختلف.. تحولت بقعة الشطرنج حولها إلى مساحة سوداء، سقفها رملي وأرضها هواء كثيف ساخن.. أصوات أطفال مختلطة.. ضحك وبكاء.. استغاثة..

حين اعتادت عيناها الظلام، أخذت تحدق في الكرات المتدلية في السقف.. كرات مشعرة إلى حد ما..

اقتربت من إحداها ففوجئت بعينين واسعتين تحدقان فيها.. انتفضت وتراجعت للخلف لتصطدم رأسها برأس متدل مقلوب آخر!

- هه. ما هذا.. ما أنتم.. ؟!

تكلمت الرؤوس في آن واحد بأصوات مبحوحة ذات صدى..

((... **لقد كنا أطفالا...**)).. ((.. **آسر رآنا...**)).. ((.. **لم تكن تعرف أنه أنثى...**)).. ((.. **أنقذينا...**))..

- كفى.. أين آسر.. فليجبني أحدكم.. واحد فقط..

تكلمت الرؤوس مرة أخرى في آن واحد.. أمسكت رنا رأسها وصرخت..

- كفا!!!!!!!!!!!!!!!!!!!!!!

عمّ صمت مفاجئ إلا من صوت تساقط قطرات ماء ((.. دموع..)) مصطدمة بأرضية مبتلة ما لا تسير عليها.. ربما هي تحت الهواء الكثيف الذي تقف عليه..

- أنت.. تحدث.. ما الذي يحدث..

التفت الرأس الذي لمسته إليها.. كانت فتاة صغيرة سقطت سناها الأماميتان اللبنيتان ولن تنمو لها أسنان دائمة بدلاً عنها أبدًا..

- "آثر" قابل أيمن.. الطفل الذي مات قبل أن "يشبح" مثلنا.. يريده الطفل أن ينقذه وينقذنا..

- كيف يا صغيرتي؟

- بأن يدمر الصندوق الذي يحتوي الدمى التي يتحكمون بها في الأطفال الأحياء..

- وإذا دمره، هل ستعودون أحياء مرة أخرى؟

صمتت الطفلة الصغيرة وأغمضت عينيها فتساقطت الدموع على جبهتها وشعرها.. فتحت رأس أخرى عينيها هامسة..

- سيتحرر الأطفال الأحياء.. وسنموت نحن ميتة حقيقية.. سنتحرر من عذابنا هذا..

مسحت رنا عينيها وأطرقت إلى الأرض.. ما ذنب كل أولئك الأطفال؟ ما هذا الوحش القادر على تعذيب أرواح بهذه البراءة؟

- وكيف أساعدكم؟

- ربما إن حررتي أجسادنا المعلقة.. لا نعرف تحديدًا.. لكن لا بد من التخلص من الصندوق..

- و.. وآسر؟

- لن تستطيع إيذاءه.. آسر فتاة في الأصل وسحرها يعمل على أساس أنه صبي!

في الظلام انبعث من أحد الأطفال نور صاف جذب نظر رنا.. توجهت

إليها وهي تحاول أن تذكر أين رأت هذا الوجه المقلوب.. لم تذكر أنه الطفل الغامض حتى وصلت إليه وكادت أن تلصق أنفها بأنفه..

– أنت؟ هل أنت الطفل الذي مات؟

لم يتكلم الطفل إلا أنها سمعت صوته واضحًا في ذهنها..

– نعم.. أيمن.. أنقذيني يا.. يا أمي..

– أمي؟!

امسكت وجهه البارد بكلتا كفيها وبكت..

– حبيبي.. سأنقذك.. لكن أين آسر؟

– آسر؟ المرأة الشريرة قتلته..

أفلتت من رنا صرخة ثم هوت إلى الأرض.. غطت وجهها بكفيها وظلت تردد كلمات غير مفهومة..

– مات؟ ؟ من؟.. قتلته؟... ابني... لا.... لاااا..

– أمي.. يمكنك أن تنقذيني حتى لا يضيع دم آسر هدرًا.. يمكنك أن تنقذينا جميعًا وسنكون معك دومًا.. أطفالاً خالدين كما تحلم أي أم..

– اصمت... !

اتسعت عيناها وقامت مترنحة لمواجهته..

– أأستعيض عن ابني بكم؟! لن يعوضني أطفال العالم عن أصبع ابني..

انخرطت في بكاء طويل اختلط مع ضوضاء الأطفال المتناثرة.. رفعت عينيها لتجد أيمن ما زال محدقًا فيها.. جرت نحوه ووقفت على أطراف أصبعها ودفنت رأسه في صدرها..

– سأثأر لابني.. سأثأر لكم.. سأنقذكم.. قل لي ماذا أفعل..

ثبت الطفل الغامض عينيه في عينيها وهمس..

– حرري جسدي..

******

شعر آسر وكأن آلاف الرماح تنغرس في جسده الصغير.. أخذ يدور حول نفسه في الممر ويخبط بجسده الجدران.. تتراقص الأنوار ثم تنفجر المصابيح واحدًا تلو الآخر..

يسقط آسر والدماء تنزف من أنفه.. يهتز جسده الصغير وتتكون حوله هالة مشابهة له تمامًا.. آسر آخر شفاف مضيء ينسلخ من الجسد الذي همد أخيرًا..

يقوم طيف آسر متلفتًا حوله.. ينظر إلى جسده الملقى على الأرض ثم يقارنه بجسده الجديد الشفاف الذي يشبه إلى حد كبير جسد الطفل الغامض..

يخطو آسر إلى الأمام خطوة واحدة فتنقله الخطوة إلى آخر الممر بسرعة خرافية.. شعر بذعر ممتزج بلذة استكشاف جديدة.. راح يجري بسرعته الخرافية في ممرات المدرسة الخالية.. تندمج اللوحات بتأثير السرعة كلما زاد سرعته.. مجموعة من اللوحات صارت تمثل بوابة كبيرة منقوش عليها حصان مجنح مقيد إلى مثلث ضخم..

كلما زاد آسر من سرعة دورانه في الممرات، كان شكل الباب أوضح.. في المرة التاسعة استطاع أن يرى الباب مواربًا.. استجمع شجاعته وألقى بنفسه إلى داخل الحجرة...

❊❊❊❊❊❊

.. أما ميت أو حي ((... أو ميت بجسد حي؟...))

❊❊❊❊❊❊

تقدمت الدمية بضع خطوات ثم نظرت إلى زين.. همست "بابا" مرة أخرى ثم سقطت أرضًا..

- إنها تعمل.. الدمية تعمل!

زحفت السيدة خوشيار التي كانت تراقب الموقف وهي ساقطة والتقطت الدمية وهمّت بالهرب إلى خارج الحجرة.. إنها فرصتها كي تبحث عن آخر ثم تتخلص منه عن طرق الدمية في الحجرة الرملية..

كرد فعل وبلا تفكير، حاول زين أن يأخذ الدمية منها فركلته المرأة في معدته وسارعت بالجري في الممرات الملتوية للمدرسة.. جرى زين خلفها بقدر ما تسمح له عظمة فخذه ذات الإصابة القديمة مع الركلة التي تلقاها الآن..

كان يسب ويحاول اللحاق بثوب المرأة المتطاير.. يسقط أرضًا ثم يحاول الوقوف ثانية.. تقف السيدة خوشيار على بعد عشرة أمتار منه وهي تشير بيدها إلى الحائط وتتمتم بكلمات لاتينية سريعة.. تسدد لزين نظرات قلقة بين كلمة وأخرى..

يقوم زين راكضا على أربع، تدخل بسرعة في فتحة في الحائط، يقفز زين فوق المرأة فيسقطا معًا إلى الداخل...

خدعة صغيرة..

لم ير آسر من قبل صندوقًا خشبيًا بهذا الحجم.. ولا قاعة بهذا الاتساع من قبل إلا في أحلامه.. إذن هذا هو صندوق الدمى..

من مكان ما يسمع موسيقى طفولية مما يصدر عن لعب الأطفال ذات الصندوق الموسيقي المعدني.. موسيقى عذبة إلا أنها بعثت القشعريرة في نفسه..

حاول آسر تسلق الصندوق لكنه ظل متشبثًا بحافته غير قادر على فتحه..

سمع صوت السيدة خوشيار يأتي من خارج البوابة ثم سمع أصواتًا معدنية فجرى ووقف خلف الصندوق الصغير.. انفتح الباب وسقطت من فتحته أبوه والسيدة خوشيار التي قامت من سقطتها في سرعة واعتصرت ذراع زين المصابة فصرخ الأخير وتدفقت دماؤه مرة ثانية..

شعر زين بدوار شديد، جاهد كي يفتح عينيه لكن الصورة من حوله بدت مشوشة ضبابية.. صوت الموسيقى يسحبه إلى عالم الأحلام..

وقفت السيدة خوشيار أمام الصندوق وألقت بالكلمات المناسبة لفتحه.. أخذ آسر يراقبها في ذهول..

ارتفعت المرأة إلى أعلى الصندوق وأمرت بعض الدمى أن يبحثوا لها عن آسر

بسرعة ويأتوا به إلى حجرة الرمال..

هبطت السيدة خوشيار وألقت نظرة على زين.. كان غائبًا عن الوعي ما زال ينزف ببطء.. خطت من فوقه وعبرت الباب حاملة دمية آسر ومن خلفها عشر دمى مترنحة الخطوات، يديرون أبصارهم في كل صوب بحثًا عن آسر..

******

لم تعلم رنا كيف أظلمت الدنيا ولا كيف فتحت عينيها لتجد نفسها تحدق في سقف حجرتها..

قامت متثاقلة وهي تحاول استيعاب ما حدث لها.. كيف عادت؟ وهل ساعدها الطفل الغامض في العودة؟

تذكرت شيئًا واحدًا بوضوح.. الثأر.. جرت مستندة إلى الحوئط ثم هبطت سلم دارها.. جرت في الشارع كالمجنونة، عبرت البوابة الحديدية المفتوحة للمدرسة واخترقت الباب الخشبي القديم.. الظلام يعمّ الطرقات.. تتلفت حولها.. كيف تجد الحجرة التي دفن فيها الطفل الغامض؟

في آخر الممر يظهر الطفل الغامض المتوهج باللون الأحمر.. تسير وراءه مهتدية بالضوء المنبعث منه..

من الجهة الأخرى للممرات كانت السيدة خوشيار والدمى العشر تحمل وراءها جسد آسر المرتخي..

توقف الطفل الغامض فجأة وأشار إلى رنا بالتوقف.. وقفت ونظرت إلى نهاية الممر المقابل، غطت فمها بكفها لتكتم شهقة خرجت منها.. التصق بها الطفل الغامض فانتفضت وغطت كفيها..

لم تتصور قط أن ترى آسر ميتًا.. بل وبهذا الشكل.. ماذا تريد هذه المرأة منه؟ هل ستمثل بجثته البريئة؟

اندفعت رنا صارخة نحو السيدة خوشيار فنظرت إليها الأخيرة نظرة متعجلة ثم خطت إلى داخل الحجرة الرملية..

وقفت رنا أمام الحائط المغلق المزدان باللوحات.. تتحسس الجدار بكفيها.. تنادي على ابنها.. تركل الجدار فتتألم وتركع على الأرض أمام الجدار..

– ارحميني يا سيدة خوشيار.. أرجوك.. لقد مات.. اتركي لي جسده.. أقسم أنني لن أتفوه بحرف.. سآخذه وأرحل..

تنتظر رنا بضع ثوان فلا تجد إجابة.. فقط هدوء مستفز..

– أنت يا (.........).. عليك اللعنة! سوف أهدم المدرسة على رأسك.. سأهدم العالم فوق رؤوسكم يا شياطين.. أنا أعرف من أنتم.. حاولتم تدميري وفشلتم.. ارجعي لي ابني.. !

ما زال الصمت مطبقًا.. كان الصبي الغامض يقوم بشيء غريب.. كان يجري في ممرات ويلفّ من أمام رنا بسرعة خارقة.. عشرات المرات في الثانية، ثم وجدت رنا يد الطفل تمتد وتجذبها معه إلى بُعد آخر..

******

خرج آسر من خلف الصندوق وهرع إلى أبيه الساقط على الأرض.. أخذ يهزه بقوة إلا أن يده كانت تمر خلاله فقط، أخذ يصرخ فيه حتى فتح عينيه في إرهاق..

- ابي.. أبي..

- آسر؟ ماذا حدث لك؟ هل أنت.... ؟

- أظن أنني ميت يا أبي.. لا أدري.. تركت جسدي في مكان ما بالمدرسة.. هكذا استطعت العبور إليَّ هنا، لكنني لا أعرف كيف أدمر هذا الصندوق..
قام زين جالسًا وهو يحك رأسه..

- لا أصدق.. إنه كابوس.. ما الذي حدث كي...

- أبي.. هل صنعت لي السيدة خوشيار دمية؟

- نعم.. كانت معها في طيّات ملابسها.. إلا أن الحياة قد دبت فيها حين جرحت وتشربت الدمية دمي.. تحركت بضع خطوات ثم سقطت..
قطب آسر جبينه وحاول التركيز.. هناك ما يجمع بين كل تلك النقاط.. دمه.. دم أمه.. دم زين...

- يبدو أن الدمية لا بد أن تحقن بدمين فقط.. أعتقد أن دمك هو ما فعل شيئًا ما للدمية..

- دمي هو الذي قتلك؟!

- هي من قتلتني يا أبي.. أنا أحبك فعلاً.. أتمنى لو عشت أنا وأنت وأمي معًا..

- ما كان ليحدث كل ذلك يا بني..
أخذ آسر يدير عينيه بين جرح أبيه والصندوق المفتوح المكتظ بالدمى..

- أبي..

نظر زين إلى عيني ابنه الذكيتين وقد فهم ما أراده..

قام زين متحاملاً على نفسه وتسلق الصندوق، مدّ ذراعه فوقه وفك الأربطة.. كتم ألمه وهو يفتح الجرح مرة أخرى ليعود تدفق الدماء ويغرق الصندوق..

– أبي.. لم أكن أقصد ذلك.. كنت أفكر في القليل من الدماء المتساقطة على الأرض..

– القليل أو الكثير.. دعنا ننتهي من هذا العمل القذر الآن وللأبد..

– أبي!

تمسك زين بحافة الصندوق لبضع دقائق ثم سقط فاقدًا الوعي.. تغلغلت الدماء إلى الدمي الصغيرة المتراصة.. كانت كل قطرة دماء تلمس أي جسد خشبي تجعله ينتفض بقوة ثم يهمد تمامًا.. تعالى الصراخ الحاد الرفيع من الصندوق وفي عدة دول تساقط الأطفال بلا سبب.. لم ير أحد الأطياف التي خرجت منهم ذاهلة لا تعرف ما الذي حدث لها.. تعالت الصرخات من كل شارع وكل منزل..

ظن الناس أنه وباء ما نال من أطفالهم، لم يكونوا ليعرفوا أن ذلك هو نهاية الوباء..

******

سقطت رنا مع الطفل الغامض في الظلام أمام السيدة خوشيار مباشرة. على ضوء خافت يأتي من السيدة خوشيار ذاتها رأت رنا جسد آسر المسجّى أمامها ومن حوله تقف الدمى العشر بخيوطها الفضية المتطايرة..

– أنت.. ؟! كيف دخلت إلى هنا؟! ما الذي يحدث اليوم..

تقدم الطفل الغامض ليقف أمام رنا..

- آها.. أنت ما حدث اليوم.. أنت من كنت تحميها طيلة هذه الفترة؟! لمَ اخترت آسر بالذات هه؟ ألأنه خنثى؟ ظننت أنك ستخدعني بهذا الشكل ولن أستطع عمل دمية له؟ أنت مخطئ يا عزيزي.. ها هي دميته!

اندفعت رنا نحوها إلا أنها شعرت بعشرة أزواج من الأسواط تلسع جسدها وتلقيها بعيدًا.. كانت الدمى العشر تقف حاجبة خلفها السيدة خوشيار.. دمى لا يتعدى الواحد منها ٤٠ سم إلا أنها تستخدم خيوطها الفضية كأسواط لاسعة كأسواط قنديل البحر..

تكوّمت رنا في الركن فهرع إليها الطفل الغامض وأشار إلى جسد معين من الأجساد المقلوبة..

تساءلت رنا من بين أسنانها..

- أهذا جسدك؟

أومأ الطفل إيجابًا.. تسللت رنا ببطء وهي ملتصقة بالجدار، تنزف الدماء من جروح جسدها الطولية..

كانت السيدة خوشيار تتمتم بتعاويذ وتعمل إبرتها الطويلة على فم الدمية إلا أن جسد آسر لم يبد عليه أي تأثير.. همست السيدة خوشيار في غل..

- أي شيطان هذا؟! الجسد ما زال حيًا، لمَ فقد ارتباطه بالدمية إذن؟! لقد تحركت الدمية اللعينة من قبل!!!

كانت رنا عاكفة على الحفر حول رأس جثة الطفل الغامض.. كانت الجثة جافة كأنها محنطة.. ترتجف رنا من هول التفكير فيما تفعله لكنها تتحامل على نفسها وتستمر.. لا ترى أمامها إلا الثأر..

ما إن حررت رنا الرأس الصغيرة المخاطة الفم المسدودة الأذنين، حتى اندفع الطفل الغامض نحوها وغاص فيها.. أضاء الجسد بشدة وتلوى قاطعًا ما يربطه إلى السقف..

التفتت السيدة خوشيار في عدم تصديق لكل تلك الأحداث التي تنهال على رأسها اليوم..

الطفل الغامض قد عادت روحه إلى جسده الميت.. يتحرك متخشبًا في جسده الجاف المشوّه.. من فتحات جلده المشقق تنبت أسواط من نار تدور من حوله.. يمد يده في الهواء فيمسك بخيوط الدمى العشر، تقف السيدة خوشيار أمامه في ذهول.. لقد عاد..

تتقدم رنا من الطفل الغامض وهي ترتجف من مظهره.. تحاول أن تمدّ يدها إليه فيضربها سوط ناري تطير على أثره مترين إلى الخلف..

– لماذا يا بني؟! ماذا فعلت لك؟

– يا بلهاء.. أنت أعدتِيه للحياة! هذا ما فعلتِه..!

تستدير الدمى العشر التي تبدلت إلى الهيئة النارية إلى السيدة خوشيار.. تتراجع المرأة وفي عينيها نظرة خبث واضحة..

– لن تصدق!.. لن تستطيع تدميري!

ترفع السيدة خوشيار ذراعيها إلى الأعلى لتظهر علامة المثلث والعين.. ينبعث من المثلث خيوط دخانية متوهجة إلا أنها سرعان ما تنطفئ في إشارة لم تعهدها السيدة خوشيار من قبل..

– جيشك لن يأت.. يبدو أن آسر قد حرر الدمى كما وعد!

تنهض رنا مهرولة نحو جسد ابنها.. ما زال ينبض بالحياة..

- آسر حي! لِمَ كذبت علي إذن؟!

- ما كنت لتحرريني إذا علمت أن آسر حي.. لن تفكري في الانتقام إلا بهذه الطريقة..

يرفع الطفل الغامض أحد أسواطه ويهوي به إلى حيث كانت رنا وجسد آسر وقد تدحرجت معه بعيدًا عن موضع سقوط السوط..

تصفق السيدة خوشيار كفيها معًا فينهار السقف حائلاً بينها وبين الطفل الغامض وجيشه الصغير..

تباعا، تبدأ حوائط المدرسة في التصدع بينما تسير السيدة خوشيار في ممراتها بسرعة واثقة.. تعلم أنها ستخرج من هنا..

تضم رنا آسر إلى صدرها وتهرول خارجة.. لا تدري إلى أي اتجاه تسير، وفي الاتجاه المعاكس يخرج الطفل الغامض الناري وخلفه العشرة دمى، يضربون بسياطهم ما حولهم ويهدمون الحوائط، بينما قائدهم منخرط في الضحك الهيستيري..

لقد عاد أخيرًا.. وسيسود..

وجها لوجه..

كانت جدران حجرة الدمى تتصدع وتتساقط الأحجار حول جسد زين.. يحاول آسر أن يجرّ والده إلى مكان آمن إلا أنه لا يستطيع الإمساك به بهذا الجسد الشفاف.. ركع فوق جسده ومنه انبعثت هالة ضوئية حوتهما معًا، ردت عنهما تساقط الحجار حتى غدت الحجرة بلا جدران تقريبًا يحوطها أروقة المدرسة المتشابكة..

خرج آسر إلى الممرات باحثًا عن عون، باحثًا جسده، باحثًا عن شيء لا يعرف كنهه تحديدًا..

كان يشعر بالطمأنينة كونه ما زال قادرًا على استخدام هالته الحامية، سوف يساعد من يحتاج المساعدة إذن..

دقائق حتى سمع آسر أصوات ضحكات مجنونة تلاها المشهد المرعب للطفل الغامض وقد استحال جحيمًا متحركًا..

لم تُدمّر الدمى التي حوّلها إلى قيادته، أصبحا مسوخًا أعنف وأقوى..

من خلف آسر شعر بصوت يألفه جيدًا ينادي عليه..

- آسر؟ هل هذا أنت يا بني؟!

- ماما؟

- لقد عدت يا حبيبي من أجلك.. تعالَ، اترك العالم ليذهب إلى حيث ألقت، وعُدْ إلى جسدك.. إنه ما زال حيًا..

- أمي.. إن صديقي أصبح شريرًا.. لا أفهم كيف يصبح صديقي شريرًا.. لا أفهم..

- حبيبي.. هناك الكثير لتتعلمه في الحياة.. لا طاقة لك به الآن..

- أبي.. أبي في حجرة الدمى.. اتركي جسدي هنا واذهبي لتُحضريه..

- بل أنت عد إلى جسدك الآن ولنذهب لنحضره معًا..

ضحك الطفل الناري وأشار إلى رنا، امتدّ على أثر إشارته الأسواط النارية على طولها تجاه رنا عابرة جسد آسر الشفاف..

- أمي!

طارت رنا في الهواء مرة أخرى وقد تهشمت عظامها.. رقدت بلا حراك محترقة نازفة..

من خلف الطفل الناري وقفت السيدة خوشيار تراقب كل ما يحدث في رضا.. دقائق ثم التفتت خارجة من المدرسة في هدوء..

تعرف أنها ستعود، مؤامرة مئات الأعوام لن تفنى حتى وإن فنت هي ذاتها.. وذاكرة البشر ضعيفة، سينسون سريعًا ويعودوا ليتبعوها مرة أخرى في زمن آخر وبطريقة أخرى..

اقترب آسر من الطفل الناري في تحدٍّ، تلاصقت جبهاتهما.. الأول في حزن، والثاني في نشوة وتحدٍّ..

فتحت رنا عينيها بصعوبة لتجد زين يجذبها هي وجسد آسر، يجرّهما جرًا إلى خارج المدرسة التي غدت كومة أنقاض مكشوفة يتوسطها صندوق الدمى الضخم..

- زين.. ابني..

- ابننا.. دعيه لما خلق من أجله.. لقد فات الوقت..

- لكن جسده ما زال حيًا..

تجمعت الدموع في عيني زين وضم آسر ورنا إلى صدره، ثم غاب عن الوعي مرة أخرى خلف السور المهدم الذي يحتمون فيه..

مد آسر كفيه الصغيرين ليضعهما على كتفي الصبي الناري..

- آسف.. لقد كنت صديقي الوحيد، لكنك صرت الآن مثلهم..

ابتعد الطفل الغامض إلى الوراء خطوة ثم ابتسم ساخرًا..

- أنا لست مثلهم.. أنا أفضل منهم..

- إذن.. أرني كيف تستطيع أن تنال مني..

هرول آسر في اتجاه صندوق الدمى ومن خلفه تتقاذف ألسنة اللهب فتفجر الأرض من تحت قدميه..

يتسلق آسر صندوق الدمى، ثم يتشبث جيدًا بحافته.. يلقي نظرة أخيرة على الدمى الراقدة المبقعة بالدماء..

- لن تنال مني..

ضحك الطفل الناري ضحكة شيطانية طويلة ثم أردف..

- سأنال من الجميع..

وتفجرت من الطفل الغامض واتباعه موجة نارية عارمة باتجاه آسر الذي بدأ في احتواء المدرسة كلها بما فيها الطفل الناري داخل هالته الحامية..

انبثقت الدماء الشفافة الفضية من عيني وأنف وأذني آسر بينما تحول الصندوق بما فيه إلى شظايا..

احتوت الهالة الانفجار العنيف حتى تلاشت من قوته.. وبدأ الناس في التجمع حول ألسنة النيران والدخان الكثيف..

يقول من رأى الانفجار إنه سمع ضحكات طفولية تنطلق وتدوى مغطية على صوت الانفجار.. يقول البعض إنه رأى أطيافًا تخرج من النيران وتختفي.. بعد عدة ساعات من إخماد الحريق، التفّ الناس حول أطلال المدرسة التي وقف أمامها رجل وامرأة وجثتا طفلين..

لم يعلم أحد صلتهم بالانفجار و لم يرهم أحد مرة أخرى..

لم يذكر أحد شيئًا عن فقدان أطفالهم للوعي، شعر الجميع بتشوش في ذكرياتهم عن لحظات بعينها..

مرت أيام وانشغل الناس و لم يعد أحد يذكر الحادث، إن ذاكرة البشر ضعيفة كما نعلم، لهذا السبب وحده يعيد التاريخ نفسه مرارًا ولا يذكر أحد أنه مرّ بذات الأحداث من قبل، وسيظل التاريخ يعيد أحداثه، إلى أن يأتي زمن يسود فيه ذوي العقول..

******

تعقيب..

رغم مرور خمس وخمسين عامًا، مازالت رنا تعيش في تلك المصحة، لا تتكلم، لا تتواصل مع أي شخص..

يقول من يشرفون عليها إنها أحيانًا تتمتم بكلمات، وأحيانًا تبكي، وكثيرًا ما تضحك وتدير عينيها حولها..

تحيط برنا الستائر البيضاء والورود المتناهية الصغر التي يسمونها نَفَس الطفل.. وبجانبها كيس يحوي كرات ملونة حال لونها، ومكعبات قديمة..

ويجلس بجانبها على السرير طفل ذو شعر بني طويل، يشبه الملائكة في اللوحات الكلاسيكية.. لقد وعدها هذا الطفل أن يكون معها دومًا، ورغم كونه طفلاً، إلا أنه لم يحنث بوعده قط..

لا يرى أحد هذا الطفل إلا رنا، ولا يرى أحد عشرات الأطفال الذين يحيطون بها دومًا..

لقد دُمر صندوق دمى واحد على يد هذا الصبي، وقد تحرر منه أطفال يعيشون خارج المصحة ويراهم الجميع، وأطفال داخل المصحة، يحيطون بامرأة كانت كل أمنياتها في الحياة أن تكون أمًا لطفل واحد، فغدت أمًا لعشرات..

وحين أغمضت رنا عينيها لآخر مرة، كانت الابتسامة تغطي وجهها الطفولي المجعد..

تنطوي روايتها على محتوى درامي متماسك، وم...
رعب يجمد الأنفاس..

د. محمد المخزنجي
عن روايتها الأولى "نيكروفيليا"

شيرين هنائي تصلح المجتمع بالروايات، وتميزت في روايتها الأولى "نيكروفيليا" بقدرتها على مزج الرؤية الفلسفية بالحقائق العلمية..

جريدة السياسة الكويتية

صندوق الدمى

مؤامرة مئات الأعوام لن تفنى حتى وإن فنت هي ذاتها..
وذاكرة البشر ضعيفة، سينسون سريعًا ويعودوا ليتبعوها مرة أخرى في زمن آخر وبطريقة أخرى..



شيرين احمد هنائي، مصرية من مواليد القاهرة ١٩٨٢.. تخرجت في كلية الفنون الجميلة عام ٢٠٠٤ قسم الجرافيك والرسوم المتحركة. تعمل مخرجة رسوم متحركة، كاتبة سيناريو، مصممة إعلانات ومترجمة.. نشر لها رواية " نيكروفيليا " عام ٢٠١١..

تصميم الغلاف أحمد مراد



للنشر والتوزيع